جامعة الخرطـوم

كلية الآداب

شعبة اللغة العربيــة

البديـــــع فـــي القــــرآن

دراســـة للبديـــــع فـــي أسلوب القـــرآن

رسـالة مقدمـة لنيل درجة الدكتــوراه.

إعداد : محجوب الحسن محمد

إشراف : الدكتور صالح الدين المليك

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

كلية الآداب ـ جامعة الخرطـوم

شوال ١٤٠٢هـ ـ أغسطس ١٩٨٢م

بسم الله الرحمـــن الرحيم

مقــــــدمـــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذى حباه ربه بمعجزة القرآن الكريم الخالدة وانطقه بجوامع الكلم وجعله خاتمـــا للانبياء والمرسلين •

وان من نعم الله وفضله أن هيأ لى أن يكون موضوع هـــذه الرسالة من كتاب الله العزيز ، فى موضوع يجمع البلاغة والتفســـير والنقد والادب وهو " البديع فى القرآن الكريـــــم " وما أجمـل وأعظم البحث فى كتاب الله •

وقد حفزنى للبحث فى هذا الموضوع صلته الوثيقة أولا وأخـــيرا بدستورنا السماوى ، القرآن الكريم • ثم ارتباطه بوجه من وجوه البلاغـة العربية التى لها أهمية قصوى فى الوقوف على دلائل الاعجاز وأسراره • فهى مرجع أساسى فى صياغة القرآن وسبيل الى فهم أسلوبه وبديـــع نظمه وروعة تأليفه الذى تنحنى أمامه رؤوس البلغاء والفصحاء وأربـاب البيان اجلالا وتعظيم •

ومما رغبنى فى هذا البحث مناقشـة تلك الفكرة التى تصم البديـع بالقصور وتحاول أن تعوق لحاقه بركب البلاغـة وتجعله زينة وحليا للكلام

دون أن يكون له أثر فى المعنى ، ولا ترتضيه فلا يعرف به إعجاز القرآن كغيره من فنون البلاغة • وكان لابد من بذل الجهد لانتشال البديع مما لحق به • ونحن نعلم جيدا أن القرآن نزل بلغة العرب التى اشتهرت بالفصاحة والبلاغة ، وكانت العرب تتباهى وتتفاخر ببلاغتها وتزرى بمن يقصر عنها • والقرآن قد تحدى العرب جميعا بما جاء به • وإن درجة البلاغة فيه لاتتفاوت ولا تتباين • فهو على الكمال فى كل هذه الفنون التى عرفت مؤخرا بالبيان والمعانى والبديع ولم يقتصر فى جانب منها • ولأجل ذلك فإن الإزراء بالبديع لا يمكن السكوت عنه بحجة أن هناك من غلا فيه وخرج عن المألوف • فهناك المذهب السليم السديد الذى يقود زمامه القرآن الكريم ويدل على عناية فائقة بتحسين الكلام والتفنن فى ألفاظه ومعانيه والقدرة على حوكه فى غير إسراف ولا قصور •

ومما حفزنى أيضا إلى الكتابة فى هذا الموضوع أن مداومة دراسة القرآن ترتقى بملكة الذوق الأدبى وتفيد فائدة قوية بمعرفة معايير النقد وقواعده • والتمسك بالمنهج الإسلامى السديد تمسك بالأصالة وابتعاد عن التقليد والزيف • وقد اتجه كثير من أدبائنا ونقادنا إلى القرآن الكريم للارتواء من معينه الصافى ، ولصقل مواهبهم وتنمية أفكارهم بما فيه من قيم رفيعة ترتقى بدارسه إلى الذروة •

أردت أن أقوم بمحاولة فى هذه الرسالة لرسم ملامح لهذا الفن الأصيل يمكن أن تنزله منزله الأصلى من البلاغة • ولما كانت فنون البديع نفسها من الكثرة بحيث يصبح من غير الميسور التعرض لها كلها فقد انتقيت منها ما يفى بالغرض ويبين المراد • فمن المحسنات المعنوية تعرضت للطباق والمقابلة والمشاكلة والالتفات واللف والنشر والتورية ومن المحسنات اللفظية الجناس والسجع ورد الأعجاز على الصدور •

ولكي أقدم بحثا يفي بالغرض ويحقق المطلوب فقد قمت بالتمهيد له بكلمة عن دور البديع في إعجاز القرآن • ثم بتقسيم البحث الى بابين كبيرين •

الباب الأول يحوي دراسة للبديع مقسمة إلى ثلاثة فصول ، جعلت الفصل الأول منها لتعريف البديع في اللغة والاصطلاح • والفصل الثاني تحدثت فيه عن نشأة البديع ليبين للقارئ حركة تطور البديع • والفصل الثالث عرفت ألوان البديع الآنفة الذكر في اللغة والاصطلاح ،لكي يتضح للقارئ معرفتها عند الحديث عنها في الباب الثاني •

وأما الباب الثاني فقد قسمته أيضا الى ثلاثة فصول جعلتها للحديث عن فنون البديع في القرآن • والفصل الأول من هذه الفصول الثلاثة خصصته للحديث عن المحسنات المعنوية في القرآن • والفصل الثاني للمحسنات اللفظية فيه • وأما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن أثر البديع وخصائصه •

ثم ختمت البحث بخاتمة قصدت منها عرض النتائج التي توصلت إليها باسلوب موجز • ثم أعقبت ذلك ببيان المصادر والمراجع التي استفدت منها في هذه الرسالة •

ولا يفوتني وأنا أقدم لهذه الرسالة أن أذكر فضل الدكتور صلاح الدين الطيك الأستاذ المساعد بجامعة الخرطوم قسم اللغة العربية الذي تفضل مشكورا بالإشراف على هذه الرسالة • وجهوده وعونه ودوره العظيم الذي لا ينسى هيأ الله لها أن ترى النور • أسأل الله أن يثيبه خير الثواب على ما قدم •

وللأخ / الأستاذ محمد أحمد سليمان المحاضر بجامعة الرياض حاليـــا جزيل الشكر لعونه المتواصل ولاهتمامه الكبير بأمر هذه الرسالة وتهيئة الجو المناسب لإنجازها ، جزاه الله عنا خير الجزاء.

وأتقدم بالشكر والعرفان للأخوين محمد صالح محمد خـــير وبشير إلياس بمكتبة جامعة الرياض والأخ عبدالله عثمان الحاج بقســم الهندسة بجامعة الرياض لما وجدته منهم من عون صادق ، أســأل الله لهم الجزاء الاوفى .

كما أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ أحمد محمد عبد الرحمـــن المعلم بالمركز الإسلامي الإفريقي بالخرطوم لجهوده العظيمة الـــتي لايمكن أن تنسى فقد سهل الكثير واقتطع جزءا كبيرا من وقتـــه للمساعدة أثابــه الله .

ولجامعة الخرطوم التي لاينسى فضلها منذ عهد الطالب مـــني أجمل آيات الشكر والعرفان لما تبذله من عـون لأبنائها في شتى المجالات . ولها أكبر الفضل باتاحة هذه الفرصة للتحضير فيها والاستفادة من مكتبتها العامرة .

وهناك أخوة كثيرون فاتني ذكر أسمائهم فليعذروني ولهم مـــني خالص الشـــكر ..

وأسأل اللـــه التوفيـــق والســـداد ...

تمهيد

دور البديع في اعجاز القرآن

موقف العرب الذين عاصروا نزول القرآن :

لا جرم أن بلاغة القرآن وأسلوبه في قمة الإعجاز • وليس في طوق البشر فرادى أو مجتمعين أن يأتوا بكلام يضاهي ما جاء به القرآن • وهؤلاء هم العرب الذين شهدوا نزوله — مع ما عرفوا به من نبوغ في البيان — يقفون مبهوتين أمام بيانه وتحديه • ويعجز فصحاؤهم وأرباب البيان منهم عن معارضته •

تحداهم القرآن بأن يأتوا بمثله فقال عز وجل : " قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا "(١) وتحداهم بالإتيان بعشر سور مثله فقال تعالى : " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ "(٢) ويشتمل التحدي على الإتيان بسورة واحدة قال تعالى : " وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ "(٣)

---

(١) سورة الاسراء : آية ٨٨ •
(٢) سورة هود : " ١٣ •
(٣) سورة البقرة : " ٢٣ و ٢٤ •

يضع القرآن تحديه في الآيات السابقة في مراحل ثلاث تصور التطور النفسي للإنسان لتكشف عن عجزه التام أمام القرآن . يبدأ المرحلة الأولى بالتحدي بالإتيان بما يماثل القرآن كله ، والثانية يجيء التحدي بعشر آيات مثله مفتريات ، وذلك على زعمهم أن القرآن مفترى . وأما المرحلة الثالثة فطالبهم بالإتيان بسورة واحدة كسور القرآن . وهذا أسلوب صريح تكرر التحدي فيه بطرق مختلفة لها موقعها في التفكير السليم . وبهذا نجد أن القرآن يفتح الباب أمام الكفار ويحثهم على التقدم إن كان ذلك في وسعهم . وعلى الرغم من هذه المبالغة في احتجاجهم ، وعلى الرغم من أنهم قد عرفوا بتحدي بعضهم البعض في مجامعهم وأسواقهم فقد أصابهم العجز التام . فلو كان في مقدورهم مقابلة هذا التحدي بما يناسبه ولما توانوا لحظة .

أجل ، لو قدروا لما تأخروا ، ولما خرست ألسنتهم هكذا ، فقد جاءهم التحدي في وقت كانوا يفخرون فيه بما لديهم من ملكات في الشعر والنثر وكان فيهم الشعراء والخطباء الحكماء الذين اشتهروا بالبراعة والجودة التامة في صناعة الكلام . ولكنه والقرآن إذا استولى على قلوبهم يوم أشرق نوره على جزيرتهم ، وجاءهم بما يؤثر في وجدانهم ويملك قلوبهم ويهز مشاعرهم . وصدق رب العالمين إذ يقول عن تأثيره في القلوب الخيرة النقية وحيلته الطاهرة : " تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله "(١) ويقول عز وجل : " ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا "(٢)

---

(١) سورة الزمر : من الآية ٢٣ .

(٢) سورة الاسراء : من الآية ١٠٩ .

ومع أن العرب لجأوا إلى معارضة القرآن بالسيف بعد فشلهم في معارضته بالبيان ، لكن ذلك التأثير النفسي لم يعد يفارق قلوبهم . وجدوا آياته في صياغة غير بشرية ، ونسق غير أرضي ، ومع ذلك كابروا وعاندوا ، ويدل على ذلك قول الوليد بن المغيرة مخاطبا جماعته : " فوالله مامنكم رجل أعرف بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه مني ولا بقصيده مني ، ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه الذي يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه إنه ليحطم ما تحته "(١) هذه شهادة أكبر أعداء الإسلام ، تدل على أن نفوسهم كانت ترفض الإسلام مكابرة وعنادا يقول تعالى في هذا الوليد : " إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر ". (٢)

ويروي ابن هشام في السيرة النبوية أن عتبة بن ربيعة ذهب من قبل قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم يكلمه ويعرض عليه أمورا ليكف عما أتى به . وبعد أن يستمع الرسول صلى الله عليه وسلم لما قاله ، يقرأ عليه قول الله تعالى : " حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ..." من أول سورة فصلت إلى أن انتهى إلى السجدة فسجد ثم قال : قد سمعت أبا الوليد ماسمعت فأنت وذاك . ولما رجع لقومه قال : " إني سمعت قولا والله

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، طبع دار الفكر ببيروت / الطبعة الثانية : ١/ ٤٩٩ .

(٢) سورة المدثر : الآيات ١٨ـ٢٥ .

ماسمعت مثله قط • والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانـــة ، يامعشر قريش ! أطيعوني واجعلوها بي • وخلوا بين الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه ، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم "(١)

هذا يشبه ماقاله الوليد بن المغيرة ، ففي كلام صاحبـــه وتردده وتقلبه مايشعر بأنه أدرك أن القرآن الكريم ليس من كـــلام البشر •

وقصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه تكشف لنا عن وقــع القرآن في نفوس العرب وقلوبهم • انفتح قلبه في بيت أخته التي سبقته وزوجها إلى نور الإيمان • تدبر آيات من القران الكريم من سورة طـــه فقال : " ما أحسن هذا الكلام وأكرمه "(٢) وفي روايـة أنه اقترب من النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي يقرأ القرآن ، ثم قال عـــن ذلك : " فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام " •(٣)

لقد سحر القرآن العرب ببيانه الساطع وحجته الدامغة واستولى على قلوبهم ونفوسهم ، ولم تستطع ألسنتهم أن تصول وتجول في هذا الميدان ففروا إلى ميدان القتال • رفضت هذه النفوس أن تستسلم لنور الحق بالرغم من أنها وجدت ماتشتهي الآذان ، وتهوى القلوب ، فكابرت معاندة منهـــا وأعرضت عن ذكر الله •

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، دار الجيل بيروت : ٢٦٢/١•

(٢) نفسه : ٢٩٦/١ •

(٣) نفسه : ٢٩٧/١•

آراء العلماء في إعجاز القرآن :

تفرد القرآن الكريم عن غيره من الكتب بخصائص بلاغية دقيقة، عميقة مما حدا بكثير من العلماء والنقاد إلى الانكباب على دراسته يحاولون الوقوف على أسراره بالدخول من منافذ متعددة .

ولم يكن الصحابة رضوان الله عليهم يحتاجون إلى البحث عن أسرار الإعجاز في القرآن ، فقد كانوا يدركون ذلك بفطرتهم وطبعهم . وكانت الحاجة ماسة في القرن الأول الهجري إلى جمع القرآن وتدوين الحديث النبوي الشريف . فنهض الصحابة بتفسير القرآن وكان إمام المفسرين هو عبد الله بن عباس [1] المتوفى سنة ٦٨ هـ . وفي هذا القرن بدأ وضع النحو

---

(١) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية . ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات وقيل بخمس وروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ضمه اليه وقال اللهم علمه الحكمة وكان يقال حبر العرب غزا أفريقيا مع عبد الله بن سعد سنة سبع وعشرين واتفقوا أنه مات بالطائف سنة ثمان وستين واختلفوا في سنه فقيل ابن إحدى وسبعين وقيل ابن اثنتين وقيل ابن أربع والأول هو الأقوى (بتصرف من الإصابة في تمييز الصحابة المطبعة الشرقية : ٢/٩٠ ـ ٩٤).

على يـــد أبي الأسـود الدؤلـي [١] (٦٩هـ).

لقد امتزج العرب بالأعاجم ونشأ جيل لايتكلم العربية طبعـــا وسليقة ، بل كان يتلقاها عن طريق التعلم . ولما كانت قراءة القـرآن الكريم تعتمد على الإعراب فقـــد كانت الحاجة ماسة إلى ضبط كلماتـه لقراءتـــه قراءة سليمـــة . فاللحن ظهر أول ماظهر في القضـــايا الإعـرابيـة . ثم وضع بعد ذلك الشكل بعلاماتـــه المعروفـة مـــن ضم وفتح وكسر وسكون ، وتم وضع النقط على الحروف على يدى نصـــر ابن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذى أبي الأسود [٢].

---

(١) هو أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي من بني الديل بن بكـر ابن عبد مناة بن كنانـة ، من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم ، وقد روى عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي اللـــه عنهما . وروى عن ابن عباس وغيره ، واستعمله عمـــر وعثمـــان وعلي رضي الله عنهم واستعمله علي على البصرة بعد ابن عبـاس وهو كان الأصل في بناء النحو وعقد أصوله (تهذيب الأغانـــي مؤلفـه محمد الخضري الطبعة الثالثة بمطبعة الاستقامة بالقاهـرة : ٦١/١).

(٢) البحوث الأدبيـــة ومناهجها ومصادرها للدكتور محمد عبد المنعـم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني بيروت : ١١٥ .

انطلقت الدراسات النحوية واللغوية فى القرنين الأول والثانى للهجرة بهدف وضع موازين للغة وضبطها • ونشأت مدرسة البصـــرة والكوفة فى النحو واشتهر من الأئمة أبو عمـرو بن العلاء والخليـــل ابن أحمد وسيبويـه والكسائى وغيرهم من العلماء • فاللغـــة العربية لم تعد لغة الشعر وحده ،بل صارت ركيزة أساسية لفهـم القرآن الكريم والنفوذ إلى معاليمــه • وكان من الطبيعى أن تسبق الدراسات النحوية واللغوية غيرها من الدراسات البلاغية • ومع ذلـــك لم تكن تلك الدراسات فى معزل عن الملابسات البلاغية • فقد ظهرت فيها ملامح كانت نواة لما بعدها •

وكان المتكلمون من أوائل من تحدث فى البلاغة العربيـــة لاظهار خصائص إعجاز القرآن والدفاع عنه أمام خصومه • فتثقفوا بثقافة عربية مزجت بألوان من الثقافة الأجنبية وبخاصة الفلسفة التى جعلوها من أسباب التمكن فى الكلام • يقول الجاحظ : " وليس يكون المتكلـــم جامعا لاقطار الكلام متمكنا من الصناعة ،يصلح للرياسة ،حتى يكـــون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة والعالم عندنا هو الذى يجمعهما ".(١)

لقد تسلح المعتزلة بمناهج عقلية • وعرفوا بقوة البيان وناصاعـــة الحجة ،مما جعلهم يتحدثون عن البلاغة ويضربون الأمثلة الجيدة للأسلوب البليغ • ومما يعرف عنهم أنهم أكثروا من الموازنة بين التعابير الجيدة والتعابير الرديئة شعرا ونثرا • وكان القرآن يمدهم بأبلغ الأمثلة وأرفعها •

---

(١) الحيوان للجاحظ نشر الكتاب العربى بيروت الطبعة الثالثة : ١٣٤/٢ •

فتجرا ينابيع دافقة أخصبت الحقل الأدبى ، صار الدارسون يردونها ناهلين .

واتجهت الدراسات البلاغية لدراسة نظم القرآن لمعرفة بديع تأليفه وبراعة تصويره وحسن وصفه . وكان الجاحظ أول من تكلم عن بعض المسائل المتعلقة بالإعجاز فى كتابه " نظم القرآن". ولكن هذا الكتاب لم يقدر له أن يصل إلينا وقد أشار إليه الجاحظ فى كتابه الحيوان بقوله : "كما عبت على كتابى فى الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه "[١] وأشار إليه الباقلانى أيضا بقوله : "وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتابا لم يزد على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف ما يلتبس فى أكثر هذا المعنى ".[٢] وأشار إليه الزمخشرى أيضا فى تفسيره .[٣]

وذهب الجاحظ إلى أن مرجع الاعجاز فى القرآن إلى نظمه وأسلوبه الذى يختلف عن أساليب العرب فى شعرها ونثرها . وتأثر بفكرة الجاحظ من جاء بعده من العلماء، وكثيرا ما نجد الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن يشير إلى أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه . وقد ألف عبد القاهر الجرجانى كتابه " دلائل الإعجاز" الذى يدل على أن مؤلفه عالم فذ ذو مقدرة فائقة فى تذوق الأسلوب القرآنى وإدراك جماله الفنى . وألف الزركشى كتابه " البرهان فى علوم القرآن" الذى جمع

---

(١) الحيوان للجاحظ نشر الكتاب العربى بيروت الطبعة الثالثة: ٩/١ .
(٢) اعجاز القرآن / تحقيق أحمد صقر : دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة : ٦/١ .
(٣) الكشاف للزمخشرى /طباعة باكستانيه طهران : ١٥/١ .

فيه دراسة واضحة لأسلوب القرآن : وللرمانى كتابه " النكت فى إعجاز القرآن " وللخطابى " بيان إعجاز القرآن " ولعبد القاهر " الرسالة الشافية " .

وفى العصر الحديث اتجهت أنظار الباحثين إلى إعجاز القرآن . فللسيد رشيد رضا " تفسير المنار " وفيه دراسة عميقة لمعرفة أسرار الجمال فى القرآن . وللأستاذ محمد عبده نفحات تدل على قدم راسخ فى البلاغة . وللدكتور مصطفى صادق الرافعى كتابه الشهير " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " يدل على جهد عميق لدراسة إعجاز القرآن والبلاغة النبوية وبيان وجوه الإعجاز . وللشهيد سيد قطب تفسيره الشهير " فى ظلال القرآن " الذى جاء على نمط فريد جمع بين التفسير والأسلوب الأدبى والبلاغى مما لايوجد فى سواه .

لا ريب أن القرآن منهل عذب لاتنقضى عجائبه ، ولايخلق على كثرة الرد . وله منهج فذ معجز يهيمن على القلوب ويهز المشاعر . ومع أنه لم يخرج عن معهود العرب فى لغتهم ، فمفرداته وجمله وقواعد صياغته كلها عربية كما يقول تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(١) مع ذلك كله ، فإنه يتميز بأسرار إلهية يختص بها دون سواه .

يربط العلماء بين دراسة البلاغة وإعجاز القرآن . فمن تمام الإلمام بأسرار القرآن ، ومعرفة خصائص النص القرآنى ، ودقائق تعابيره

---

(١) سورة الزخرف: ٣ .

الوقوف على الضوابط البلاغية التى تعين على تفسير أساليب الكلام • ومعرفة طرقه ، وخصائصه • يقول أبو هلال العسكرى : " وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها ، وتحيرت عقولهم فيها • "(١)

لقد وفق أبو هلال العسكرى فى كشف أهمية البلاغة وإثبات مالها من دور فى الوقوف على إعجاز القرآن الكريم • ومما لاشك فيه أن البلاغة تؤهل صاحبها لتذوق القرآن وتعينه على إنشاء الكلام المحكم البليغ • ولايعنى ذلك أن من يتقن فنونها يمكنه أن يأتى بما يضارع القرآن فى بلاغته • إن التركيب القرآنى فى درجة معجزة يستحيل الوصول إليها • فإذا كان الإتيان بأسلوب يماثل أسلوب القرآن فى بلاغته وإحكام نسجه وروعة تأليفه قد استعصى على العرب الخلص الذين فطروا على اللغة وطبعوا على البلاغة فهل يتيسر ذلك لمن يتعلم فنون البلاغة !!

---

(١) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، تحقيق على ـــ البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم : ٧ •

دور البديــع فى الاعــجاز:

القرآن كله معجز ، وهو يتفوق بأسلوبـه على غيره من الأساليب . فهو كلام الله الذى لايأتيــه الباطل من بين يديــه ولا من خلفـــه . فقد وقع التحدى فيه ليشمل العرب وغير العرب ، وهو تحد باق على مـدى الزمن يقول تعالى : " قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لاَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا "(١)

ويشمل التحدى جميع فنون البلاغة التى عرفت موخرا بالبيان والمعانى والبديع . ومع ذلك فهناك من يرى أنه لايمكن أن يستدل على إعجاز القرآن بصور البديع ، يقول الباقلانى : " وقد قدر مقدرون أنــه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التى نقلناها وأن ذلك مما يمكن الاستدلال عليه وليس كذلك عندنا لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصــل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها وذلك كالشعر الذى إذا عرف الانسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه . والوجوه التى نقول إن إعجـــاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل اليه بحال "(٢)

الباقلانى فى كلامه هذا متأثر بمذهب " البديع " أو "أدب الصنعة" الذى تعمد فيه أصحابه الغلو فى فنون البديع بحشد أكبر قدر منهــــا فى كلامهم . وإيرادها بمناسبة مفتعلة أو بغير مناسبة حتى خلا أدبهـــم من كل طاقة وروح . لقد أوغلوا فى التأنق والتصنع والزخارف اللفظيـــــة

---

(١) الاسراء : آيـة ٨٨ .

(٢) اعجاز القرآن (بهامش الإتقان) للباقلانى مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٤٣/٢ و١٤٤ .

والمعنوية . ويذكر ذلك الباقلاني نفسه حين يقول : "إن كثيرا من المحدثين قد تصنع لأبواب الصنعة حتى حشا جميع شعره منهـــا واجتهد ألا يفوته بيت إلا وهو يملؤه من الصنعة"(١) ويستشهـد بلامية أبي تمام :(٢)

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل   وصدرك منها مدة الدهر آهل

وإذا تأملت نظم القرآن في جميع مايتصرف فيه من أوجــــه البلاغة ، المعاني والبيان والبديع ، فلايمكن أن تجد تفاوتـا فـــى أسلوبـه ، إذ أنه ينزل المنزلة العليا في أي فن من هذه الفنـــون الثلاثة . فهي ترد على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليــف والرصف . الآيات جميعـها طويلها وقصيرها في نهاية البلاغة وغاية البراعة . فهي في قمة بلغت رتبة من الإعجاز لا يقدر عليها البشر . قال تعالى : "الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ".(٣)

وما دمنا نؤمن بأن القرآن بهذه الدرجة من الإحكام ، فلا غرابـــة أن يتميز أسلوبه عن أساليب سائر البشر ، فالقدرة الإلهية تسوى بين مفرداته وجمله وتراكيبه . ولهذا فإننا لا نجد مبررا لنفي الإعجاز عن البديــــع لوجود من سلك بالبديع منهجا مذموما . فإن للقرآن طريقته في معالجـة مواضيعه من خلال هذه الفنون تظهر فيها النفحة الربانية التي لا تجارى . ويمكن للقارئ أن يلاحظ الفرق الكبير بين أسلوب السجع الذي كان سائدا

---

(١) نفسه : ١٤٤/٢ .

(٢) هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ولد بقرية جاسم بدمشق في سنة تسعين ومائة من الهجرة . وكان فطنا ، قوي العارضة ، حاضر البديهة . وكان له مذهب في البديع اشتهر به . اتصل برجال الدولة في عصره ومدح وهجا ورثى ، وقال في كل أغراض الشعر . توفي بالموصل سنة احدى وثلاثين ومائتين (ملخص من مقدمة الموازنة الطبعة الاولى مطبعة حجازى بالقاهرة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) .

(٣) سورة هود : الاية الاولى .

في الجاهلية عند الكهان وبين أسلوب القرآن . يقول سطيح :(١)

" أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش، فليملكن ما بين أبين الى جرش "(٢) ويقول شق:(٣) " أحلف بما بين الحرتين من انسان لينزل أركم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان وليملكن ما بين أبين الى نجران "(٤)

فأى مقارنة تكون بين هذه الأفكار المشتتة التى لا تناسق بين أجزائها ولا توافق فى تراكيبها ؟ وبين الأفكار التى يعرض لها القرآن مما سنبينه فى موضعه إن شاء الله بالشرح والتحليل لنرى المنهج الفذ الذى لا يكون هدفه الأساس البديع لذاته مثل منهج البديع، ذلك المنهج الذى خسر الطبع والذاتية بسبب التكلف والتعمل ، وغلب على أصحابه التقليد وقلت الأصالة، وهذا ما جعل الباقلانى يقول : " لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذى ادعوه فى الشعر ووصفوه فيه وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له "(٥)

---

(١) سطيح هو ابن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب (حاشية البيان والتبيين تحقيق عبد السلام محمد هارون : ١/ ٢٩٠).

(٢) جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت ، مصطفى البابى الحلبى وأولاده : ١/ ٩٢.

(٣) هو شق بن أنمار بن نزار ، زعموا أنه كان شق إنسان ، له يد واحدة ، ورجل واحدة، وعين واحدة (حاشية البيان والتبيين تحقيق عبد السلام محمد هارون : ١/ ٢٩٠).

(٤) جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت مطبعة مصطفى البابى الحلبى : ١/ ٩٣.

(٥) اعجاز القرآن (بهامش الاتقان) للباقلانى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى : ٢/ ١٤٨.

وهنا تفترق الطريق بين مذهب البديع وبين طريقة القـــرآن في تناول فنون البديع في أروع أسلوب وأعذب بيان • ولم يلـــــتزم الإكثار منها من غير هدف ، وضرب المثل الأعلى في تفوقه وإبداعـــه فجاءت كل فنون البديع من النظم حيث يطلبها المعنى • وإننا إذا تجاوزنا التركيب إلى المفردات في فنون البديع نجدها تتميز بالآتي :

أولا : لها وقع وتأثير في السمع فاذا أبدلت بأخرى فانها لا تقوم مقامها •

يقول ابن سنان الخفاجي : " نجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية على غيرها وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة "(١)

ثانيا : لها علاقة بالمعنى المراد ، فهي في تناسق تام مع غيرها وفـــي توافق مع التراكيب •

ثالثا : لها دور ودلالة معنوية تتسم بالعمق والشمول بحيث لا يؤدي دورها ودلالتها غيرها من الكلمات •

إن الحسن في الكلام ليس للألفاظ وحدها مجتمعة أو متفرقة وإنمـــا الحسن في تناظرها وتعاضدها في تأدية المعنى بحيث تأخذ كل منهـــا نصيبه في البلوغ بالصور البيانية منزلة رفيعة من الجمال ولهذا فإن القـــرآن حوى الحسن من جميع الوجوه ، جمع إلى دقة اختيار الألفاظ الجميلـــة والعبارات المشرقة تجانس الأفكار وترابطها وتلاحمها • ولأجل ذلك جاءت فنون البديع فيه صافية أصيلة ، بعيدة عن التكلف والجمود وكان لهـــا أثر كبير في الدراسات البلاغية والنقدية •

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي /مطبعة محمد علي صبيح وأولاده تعليـــق عبد المتعال الصعيدي : ٦٧ •

الباب الاول

ماهو المنهج

الفصـــــل الاول

البديـــع فى اللغـــة والاصطـــــلاح

عـــلوم البلاغـــة :

يقسم البلاغيون البلاغة إلى ثلاثة علوم ، هى المعانى والبيان والبديع • وما دمنا بصدد الحديث عن البديع فى هذه الرسالـــة ، فلنبدأ بتعريف العلمين الاخيرين وهما المعانى والبيان ونعقب بالبديع•

علم المعانى علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال •[1] وهو يصون المتكلم على الاحتراز من الخطأ فى تأدية المعنى المراد •

وأما علم البيان فهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه •[2] وهو يصون المتكلم على الاحـــتراز عن التعقيد المعنوى ، أى عن أن يكون الكلام غير واضح الدلالة علـــى المعنى المراد •

لقد مرت هذه العلوم الثلاثة بعصور تاريخية متعاقبة ، انتقلت فيها من طور إلى طور ، ومن مرحلة إلى مرحلة • وكانت البلاغة فى مراحلها الأولى وحدة شاملة • وكانت مسائلها تختلط بعضها ببعض من غــير

---

(١) التلخيص فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى / نشر دار الكتـــاب العربى بيروت ، شرح عبد الرحمن البرقوقى : ٣٧ •

(٢) نفسه : ٢٣٥ •

فصل بين علومها . وقد سبق لى أن قلت فى رسالة الماجستير عن حدود علوم البلاغة " هذه مميزات وفواصل تفصل بين علوم البلاغة الثلاثـــــة ، ولكن هذه المميزات والفواصل لم تكن معروفة لدى البلاغيين والنقـــاد العرب الذين عاشوا قبل القرن الخامس الهجرى . نجد أنهـــــم يطلقون كلمة البيان على هذه الفنون فى بادىء الأمر لتعلقهـــــا جميعا بالبيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير ، ثم أطلق اسم البيان على المسائل المعروفة عندنا بعلم البيان والبديع ، وأطلـق أيضا علم البديع على العلوم الثلاثة "(١)

ثم صار علماء البلاغة يفصلون بينها فصل الفصل والاستقلال إلى أن أتم الخطيب القزوينى تقسيمها إلى علوم ثلاثة فى القرن السابع الهجـــــرى فى كتابه " التلخيص " بعد أن مهد له أبو يعقوب يوسف الكاكى فـــى القرن السادس الهجرى فى كتابه " مفتاح العلوم " .

وقصر علماء البلاغـة علم المعانى على دراسة الجملة ، وعلم البيان على دراسة الصورة فى المجاز والاستعارة والتشبيه والكنايـة ، وأما البديـــع فقد جعلوه شيئا ثانويا . لا دخل له فى صميم البلاغة . لأنه يقوم علـى دراسة طرق التحسين الذى يلحق بالكلام كالطباق والجناس والسجـــع والمقابلة وما إلى ذلك من المحسنات المعنويـــة واللفظيـــة .

---

(١) النقد البيانى عند العرب / رسالة الماجستير فى جامعة الخرطوم ١٩٧٩ : ٦ .

البديـــع في اللغـــة :

البديع فعيل بمعنى مفعل أو بمعنى مفعول . وهو مشتق من قولهم بدع الشيء يبدعه بدعا ، وابتدعه أي أنشأه وبدأه ، اخترعه .(١) يقول عز وجل : " بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ "(٢) ويقول تعالى أيضا : " قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ "(٣) أي ما كنت مبتدعا من تلقاء نفسي ما أدعو إليه ، " إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ "(٣)

يقول ابن رشيق القيرواني : "وأما البديع فهو الجديد ، وأصله في الحبال ، وذلك أن يفتل الحبل جديدا ليس من قوى حبل نقضت ثم فتلت فتلا آخر . وانشد للشماخ بن ضرار :(٤)

أَطَارَ عَقِيقَهُ عنه نُسَالًا وأُدمِجَ دمجَ ذي شَطَنٍ بَدِيعِ(٥)

ويذكر صاحب جوهر الكنز ما ذكره ابن رشيق فيقول : " وأما البديع فإن هذه اللفظة مصدر أبدع ، يقال أبدع فلان فعله ، إذا فتل الحبل من شيء جديد لا من نقاضة حبل آخر .(٦) لا أرى سببا بجعل

(١) مادة بدع : لسان العرب ، أساس البلاغة ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (مجمع اللغة العربية) .
(٢) سورة البقرة : من آية ١١٧ ، وسورة الأنعام : من آية ١٠١ .
(٣) سورة الأحقاف : من الآية ٩ .
(٤) يقال إن اسمه معقل بن ضرار وهو من أوصف الشعراء للقوس والحمر وكان شاعرا جاهليا ، قال الحطيئة : أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان . أخوه مزرد وجزء ابني ضرار . (الشعر والشعراء لابن قتيبة نشر دار الثقافة ببيروت : ١/٢٣٢ و٢٣٣ .
(٥) العمدة لابن رشيق مطبعة السعادة الطبعة الثالثة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد : ١/٢٦٥ .
(٦) جوهر الكنز لابن الأثير الحلبي ، نشر منشأة المعارف بالاسكندرية ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٤٨ .

لفظة البديع مصدرا لأبدع ، لأن الرباعي على وزن " أفعل" إذا كان صحيح العين فمصدره على "إفعال" نحو أجمل إجمالا وأحسن إحسانا .
ولذا يقال في أبدع ،أبدع إبداعا يقول ابن مالك :

وَزَكِّه تزكيةً وأجملا   إجمالَ من تَجَمُّلاً تجملا

وأما البدعة بكسر الباء ، الحدث في الدين بعد الإكمال ومنه الحديث : " إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ".(١) وقيل هي ما استحدث بعد النبي (ص) من الأهواء والأعمال .
وجمع بدعة بدع بكسر الباء وفتح الدال قال الشاعر :

مازَالَ طَعن الأعادِي والوشاةِ بِنا   والطعنُ أمرٌ من الواشينَ لابِدع (٢)

ويلاحظ مما تقدم أن البدعة تحوى معنى الجدة أيضا ، ولكنها تكون فيما استحدث من هوى وضلال .

وأما البديع في اللغة بمعنى المخترع والموجد على غير مثال سابق فالله سبحانه وتعالى جعل من أسمائه البديع ، فهذا لإبداعه الأشياء وإحداثها . وهو البديع الأول قبل كل شيء . ويجوز أن يكون البديع بمعنى مبدع أو يكون من بدع الخلق بمعنى بدأه ، جاء لفظ البديع بمعنى الجديد والمخترع في قول حسان بن ثابت :

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان المجلد الخامس مادة بدع .

(٢) نفســه .

قَومٌ إذا حاربُوا ضرُّوا عدوهم ... أو حاولوا النفعَ فى أشياعِهم نفعُوا
سجيةٌ تلك فيهم غير مُحْدَثَــةٍ ... إن الخلائقَ فاعلم شرُّها البِــدَعُ

وقول الفرزدق :

أبت ناقتى إلا زيادا ورغبتى ... وما الجُودُ من أخلاقِهِ بِبديــعِ

فإذا كان هذا هو المعنى فى اللغة فما المعنى فى الاصطلاح ؟
وهل هناك علاقة بين المعنيين ؟

البديــــع فى الاصطلاح :

أما البديع فى اصطلاح البلاغيين يذكره القزوينى فيقــول :
" هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة"(١)

وللقارئ أن يلاحظ فى سهولة العلاقة الواضحة بين المعنيين اللغوى والاصطلاحى . فالمعانى اللغوية التى سبق ذكرها يمكن حصرها فى أمريــن أساسيين وهما البراعــة والجدة التى تدل على الإنشاء من غير مثال سابق. والجديد أو المحدث أو المخترع من شأنه أن يكون فيه حسن وطرافــة وروعة .

إذا استعرضنا ألوان البديع ، نجد أنها تكسب الكلام حسنــــا وجمالا ، وتخلع عليه حلة من الجلال مما جعل بين المعنيين اللغــــوى والاصطلاحى صلة سوغت التسمية .

---

(١) التلخيص فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى / نشر دار الكتاب العربــــى بيروت ، شرح عبد الرحمن البرقوقى : ٣٤٧ .

ينبغى أن نكون على حذر مما يجر إليه تعريف القزوينى السابق .
لقد ذهب القزوينى ومن سار على نهجه مذهبا بعيدا فى الغض من البديع ودوره فى البلاغة . وتأثر البلاغيون بتعريف القزوينى فسرت بينهم روح تقصر البلاغة على علمى المعانى والبيان ، وتجعل البديع تابعا لهما . إن هذه النظرة التى ظهرت على مسرح الحياة البلاغية تقضى بأن المعانى والبيان يعرف بهما التحسين الذاتى للكلام ، وأن البديع يعرف به التحسين العرضى .

باستقراء التعريف نراه يدعو إلى مايجب اعتباره من علم المعانى وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ومايجب اعتباره من علم البيان وهو وضوح الدلالة . وقد فطن إلى هذا المعنى البهاء السبكى فقال : " والحق الذى لاينازع فيه منصف أن البديع لايشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة . وإن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الإيراد بطرق مختلفة من وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين وأول برهان على ذلك أنك لاتجدهم فى شىء من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان اشتمال شىء منها على التطبيق ولا تجدهم فى شىء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه والاستعارة والكناية التى هى طرق علم البيان . هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفا لكلام الاكثرين ولايخفى أن هذا التعريف من الرسوم غير الحقيقية لما فيه من التعديـة ".(١)

---

(١) عروس الافراح (فى شروح التلخيص) مطبعة عيسى البابى الحلبى وأولاده بمصر : ٢٨٤/٤.

بهذا النص أرشد السبكى إلى أمر هام هيأ به الأذهان للانفكاك من تلك النظرة التى تخرج البديع من البلاغة وتجعله تابعا لها وذيلا. ولكن هذه المحاولة الجادة ليست كافية لانتشال البديع من الذيلية التى غمسه فيها القزوينى، لأن السبكى أبعد شرطا هاما وضروريا وهو أن لايشتمل البديع على التطبيق الذى عرف به القزوينى البلاغة حين قال: "البلاغة فى الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"(١) فينبغى لذلك أن يراعى فى البديع أحوال الكلام والأغراض والمزايا التى يصاغ لها، والمواضع التى تقتضيه. وعند ذلك تكون وجوه البديع قد وردت حين اقتضاها المقام. وإن ذلك كله يعد من البلاغة فى الكلام.

لقد ناقش هذا الموضوع الدكتور أحمد إبراهيم موسى خير نقاش وأعطى البديع حقه فى هذا الجانب. فقد عز عليه أن يحكم المتأخرون من علماء البلاغة على البديع بالذيلية والعرضية فقال بعد أن عرض لأقوالهم: "إن أصباغ البديع التى تجرى على نمط ما اختاره الخطيب فى القبول والصفاء من البلاغة فى أكرم موضع وأعز مكان، سواء لدينا بعد ذلك جعلها علما مستقلا، أو تابعة لأحد العلمين، أو موزعة بينهما كما أسلفناه. فإن تعريف بلاغة الكلام الذى ذكره الخطيب القزوينى بقوله "هى مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته" شامل لهذه الاصباغ مع التوسع فى مفهوم الحال بجعله أعم مما ذكروه حتى ينطبق على أحوال البديع. فإذا اقتضى الحال طباقا أو تقسيما أو مزاوجة أو غير ذلك كان الكلام المشتمل عليها مطابقا لمقتضى الحال، وخلوه منها غير مطابق

---

(١) التلخيص فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى. نشر دار الكتاب العربى بيروت، شرح عبد الرحمن البرقوقى: ٣٣.

فيكون فى الاول بليغا ، وفى الثانـــى على خلافـــــه "(١)

ما من شك فى أن البديع من صميم البلاغـة ، ولا يمكن اعتبـــاره أمرا خارجا يراد به تحسين الكلام وحـــده • فهو يمثل الذروة فـى البلاغـــة فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وكلام العرب الفصحاء •

إلى جانب ذلك فإن أساليب البديع ترمى إلى هدف مثل ما ترمى إليه أساليب المعانى والبيان • ومعنى آخر أنها لا تجىء بهدف تزيين الكلام وتنميقه فحسب وإنما يحقق كل فن منها معنى من المعانـــى المطلوبة • وإن حسن الكلام وفضله يتم بتوخى المعانى والألفاظ جميعا وباستيفاء كل منهما نصيبه من الحسن والجمال ، يقول ابن رشيـــق : " اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجســـم يضعف بضعفه ويقوى بقوتـــه ••• فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة فى السمع كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى رأى العين إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيـــد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنـــا لا نجد روحا فى غير جسم البتـة" •(٢)

لا يمكن أن تنحى المحسنات البديعية عن هذا المفهوم الشامل • فإنها لا تقع موقعها من الحسن حتى يكون المعنى هو الذى استدعاهـــا

---

(١) الصبغ البديعى فى اللغة العربية للدكتور أحمد ابراهيم موســـى ، نشر دار الكاتب العربى للطباعـــة والنشر : ٥٠٧ •

(٢) العمدة فى صناعـة الشعر لابن رشيق / مطبعة أمين هندية الطبعة الاولى ١٣٤٤هـــ ١٩٥٢م : ١/ ٨٠•

وساقها نحوه . ويلتزم فيها الطبع وإرسال المعانى على سجيتهـــــا لتكتسى من الألفاظ أثوابا تليق بها فى غير تكلف وتعمـــد . ولأجـــل هذا كله ذم الاستكثار منها والولوع بها .

تقســـم البديـــــع:

يقسم البيانيون وجوه البديع إلى محسنات معنوية ومحسنات لفظية . المعنوية هى التى يرجع التحسين فيها إلى المعنى أولا وبالذات قبـــل رجوعـه لتحسين اللفظ . واللفظية هى التى يرجع التحسين فيها إلـــى اللفظ أولا وبالذات وإن تبع ذلك تحسين المعنى . ويراعى فى هــــذا التقسيم وجود العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعانى فلايهمل لفظ لمعـنى ولا معنى للفظ . وقد أجمع العلماء على أن هذه المحسنات خاصة اللفظية منها لايقع موقعها من الحسن مالم يطلبها المعنى وجاءت عفوا دون تكلف أو قصـد وإلا فهى مبتذلة .

إن أوضح مايلاحظ فى تقسيم البديع تلك الكثرة التى صاحبت تطـور دراسته من عصر إلى آخر ، حتى أصبح من العسير حصر فنونه . ولهـذا فإننا لانغالى إذا قلنا ان هذه الفنون قد أربت على المائة ، كما فعـــل ابن أبى الاصبع[1] فى كتابه بديع القرآن ،وكما فعل أسامة بن منقـــذ

---

(١) هو أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المعروف بابن أبى الاصبع العدوانى المصرى . ولد فى مصر سنة ٥٨٥ هـ فى ولاية صلاح الدين الايوبى وتوفى سنة ٦٥٤، وله كتاب آخر فى علم البلاغـــة يسمى " تحرير التحبير" (من حاشية البيان العربى للدكتور بـــدوى طبانة طبع ونشر مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الرابعـــة .

الذى يطلق البديع على خمسة وسبعين نوعا جمعها فى كتابه " البديع ولقصد الشعر " • ولم تكن كل هذه الفنون تخص البديع وحده بل تشمل علوم البلاغة كلها •

نتج عن هذه الكثرة فى فنون البديع أن اختلفت المسميات وتداخلت فيما بينها يقول صاحب جوهر الكنز : " نظر علماء الأدب فى البديع وقسموا محاسنه أنواعا ، وسموا كل نوع باسم حتى تداخلت عليهم الأسماء ، وسموا الاسم الواحد بأسماء مختلفة وتكررت أعداد الأنواع • ثم إن من علماء البيان من ذكر من مسقاته أبوابا أو عدها من البيان • ومنهم من عد تلك الأنواع بعينها من مصنفات البديع "(١)

لقد أفاض علماء البيان فى القول عن دراسة البديع ، وأكثروا من الغوص فى مسائله المتشعبة • وظهر فى كتبهم أن بعض الحدود يكتنفها شىء من الغموض ، ولذا نجد أن الأمر قد اختلط على بعضهم ، فتراه يورد أمثلة لفن من فنون البديع يوردها غيره لفن آخر • وأوضح مايكون ذلك فى أمثلة الجناس والمطابقة وأمثلة الجناس والمشاكلة • وسنوضح ذلك إن شاء الله فى نهاية الحديث عن فنون البديع فى اللغة والاصطلاح •

---

(١) جوهر الكنز لابن الأثير الحلبى ، نشر منشأة المعارف بالاسكندرية ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٤٨•

الفصل الثاني

نشأة البديع ونموه

حينما نتكلم عن البديع، ينبغي أن نفرق بين علم البديع وفن البديع. فالأول يقصد به قواعد البديع ومسائله التي تدرس دراسة نظرية في أسلوب منسق مستقيم. والثاني يقصد به الجانب العملي والتطبيقي لهذه القواعد والمسائل. ويعتبر فن البديع أصلا لعلم البديع، فهو ذو جذور ضاربة في القدم، وجدت آثاره منذ العصر الجاهلي دون أن تكون هناك معرفة باسمه. ومن أمثلة المبالغة في الوصف مثلا، وصف امرئ القيس (١) لفرسه:

فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا ولم ينضح بماء فيغسل

لقد بالغ الشاعر في وصف فرسه، فادعى أنه أدرك ثورا وبقرة في عدو متواصل دون أن يعرق وهذا مما لا يمكن عقلا وعادة.

ومن رد الأعجاز على الصدور قوله:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزان

---

(١) هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي، وهو من أهل نجد من الطبقة الاولى، وهو من كندة وأمه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث ابن زهير، أخت كليب ومهلهل ابني ربيعة التغلبيين وهو من أصحاب المعلقات قال لبيد: أشعر الناس ذو القروح، يعني امرأ القيس. ويقال أنه أول من بكى الديار. (ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة نشر دار الثقافة بيروت: ١/٥٠ ـ ٧٥).

وفي هذا البيت أورد الشاعر لفظة "يخزن" في صدره وجاء بما يوافقها في عجزه وهو لفظة "خزان" وهذا مايعرف برد الأعجاز على الصدور .

ومن المطابقة قوله :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

وهنا المطابقة بين قوله " كذب" و "صدق" وهما ضدان .

لقد بسط العرب القول في فنون البديع مما جعل الجاحظ يقول :
" والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان ، والراعي[1] كثير البديع في شعره ، وبشار[2] حسن البديع والعتابي[3] يذهب في شعره في البديع "[4]

---

(١) هو عبيد بن حصين بن معاوية النميري من نمير بن عامر بن صعصعة ، ويكنى أبا جندل ، والراعي لقب له لكثرة وصفه للإبل وجودة نعته إياها ، وهو شاعر فحل من شعراء الإسلام وكان مقدما مفضلا حتى اعترض بين جرير والفرزدق وكان يفضل الفرزدق على جرير حتى قال فيه جرير قصيدته التي يقول فيها :
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
(ترجمته من تهذيب الأغاني تصنيف محمد الخضري الطبعة الثالثة من مطبعة الاستقامة بالقاهرة : ٢٢١/٤ و٢٢٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة نشر دار الثقافة ببيروت : ٣٢٧/١ و٣٣٠).

(٢) بشار بن برد يكنى أبا معاذ وهو من أصل فارسي . كان أبوه برد مولى لام الظباء العقيلية السدوسية فادعى بشار أنه مولى بني عقيل لنزوله فيهم . وهو من مخضرمي شعراء الدولتين العباسية والأموية . اتهم عند الخليفة المهدي بالزندقة فضرب بالسياط حتى مات (البيان والتبيين) تحقيق عبد السلام محمد هارون : ١٦/١ وتهذيب الأغاني لمحمد الخضري الطبعة الثالثة من مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

(٣) هو كلثوم بن عمرو من بني تغلب من بني عتاب من ولد عمرو بن كلثوم التغلبي ، ويكنى أبا عمرو . وكان شاعرا محسنا ، وكاتبا في الرسائل مجيدا ولم يجتمع هذان لغيره (الشعر والشعراء لابن قتيبة نشر دار الثقافة ببيروت : ٧٤٠/٢).

(٤) البيان والتبيين : ٥٥/٤ و٥٦ .

أما نشأة علم البديع، فيحيلنا على معرفتها أبو عثمان عمر ابن بحر الجاحظ، فقد أورد بيت الأشهب بن رميلة [١] مثالا له :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لا تنوء بساعد

يقول الجاحظ: " هم ساعد الدهر إنما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع. وقال الراعي :

هم كاهل الدهر الذي يتقى به ومنكبه إن كان للدهر منكب [٢]

---

(١) الأشهب بن رميلة شاعر إسلامي مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، أسلم ولم تعرف له صحبة ولا اجتماع بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولذا أورده ابن حجر في قسم المخضرمين من الإصابة. ورميلة أمه، وكانت أمة لخالد بن مالك بن ربعي بن سلمى ابن جندل. وأبوه ثور بن أبي حارثة بن عبد المدان ابن جندل بن نهشل بن دارم بن عمرو بن تميم. وكان الأشهب يهاجي الفرزدق (البيان والتبيين تحقيق عبد السلام محمد هارون ٦٦/٣).

(٢) البيان والتبيين للجاحظ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر تحقيق عبد السلام محمد هارون : ٥٥/٤.

لم يكن الجاحظ أول من أطلق لفظ "البديع" على هـــذه الفنون البيانية ، ونراه يذهب إلى أن التسمية وردت من طريـــق الرواة ، ثم إن الجاحظ يطلق البديع على الاستعارة فى قول الشاعر " هم ساعد الدهر " ، وهذا يدلنا على أن مفهوم البديع فـــى زمانه يطلق على الجديد الطريف من هذه الصور والتعابير البلاغيـة، وهذا مفهوم شامل يعنى فنون البلاغـة بأجمعها .

وبلغ البديع من الشهرة والذيوع والانتشار بحيث اشتغل بـــه كبار الشعراء يقول الجاحظ: " ومن الخطباء الشعراء من كان يجمع الخطابة والشعر الجيد ، والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثـوم ابن عمـرو العتابى ، وكنيته أبو عمـرو ، وعلى ألفاظه/ وحذوه ومثاله فـــى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحـــو منصور النمرى ، (١) ومسلم بن الوليـــد الأنصارى (٢) وأشباههمـا ، وكان العتابى يحـــذو حـذو بشـار فـــى البديع ، ولم يكـــن

---

(١) هو منصور بن سلمة بن الزبرقان بن النمر بن قاسط ، كان مع الرشيد مقدما ، يمت إليه بصلة بأم العباس بن عبد المطلب وهى نمرية وأسمها نتيلة وكان الرشيد يجزل له العطاء ، يظهر ولاءه للعباسيين (الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٢/٧٣٦).

(٢) أحد أبناء الأنصار ، كان مداحا محسنا ، يلقب بصريع الغوانى . ولى فى خلافة المأمون بريد جرجان فلم يزل بها حتى مات ، وهو أول من ألطف فى المعانى ورقق القول وعليه اعتمد الطائى (الشعر والشعراء لابن قتيبـة : ٢/٧١٢).

فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمــة[1] " (٢)

ومهما يكن فى مفهوم البديع فانه نشأ فى الأدب العربى من التفكير المختلط والجهد المشترك بين العرب والفرس، ولم يكن خالصا من الفرس وحدهم الذين يعرفون بميلهم إلى التعبير باللون .(٣)

لقد نشأ البديع فى العصر العباسى على أيدى الشعراء ، وكــان النقاد والعلماء الذين عاصروا مولده يردونه إلى مصادر عربية خالصة . فالعرب قبل ذلك نطقت بالبديع على سجيتها وطبعهــا ،كان شعراؤهم وكتابهم وخطباؤهم ينشئون الطباق والجناس وغيرهما شاعرين بطرافتهــا وجمالها من غير معرفة للاصطلاح . والقرآن الكريم نفسه يعتبر المثــل الأعلى فى فنون البديع . له من الفضل والجمال فى رشاقة الألفــاظ وسلامة العبارات وصحة المعانى مالا يستطيع أحد سوى الله سبحانــه وتعالى أن يقدر عليــه .

---

(١) هو إبراهيم بن على بن سلمــة بن هرمة الفهرى . وكان معاصــرا لجرير ولد سنة ٩٠ وكان الأصمعى يقول ختم الشعر بابن هرمــة وحكم الخضرى وابن ميادة ... الخ (حاشية البيان والتبيــــين تحقيق عبد السلام محمد هارون : ١١١/١).

(٢) البيــــان والتبيــــين للجاحـــظ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون : ٥٦/٤ و ٥١/١ .

(٣) النثــر الفنى فى القرن الرابع لزكى مبارك . دار الجيل ، بيروت : ٤٤/١ .

ولكنا عندما نتقدم إلى العصر العباسي يظهر لنا من الشعراء بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبوتمام وابن الرومى والبحترى (١) وعبد الله بن المعتز وغير هؤلاء من الذين نظروا إلى فنون البديع فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والأدب العربى ورأوا مالهـا من التأثير والروعـة والقوة . وفى سبيل الوصول إلى تلك الروح أفرط بعضهم فى البديع وتكلفه كأبى تمام ووقف بعضهم إلى حد القصد مثل البحترى وابن المعتز .

ويقول ابن سنان الخفاجى عن هؤلاء الذين توجهت أنظارهـم نحو البديع وأكثروا منه وأتوا بما هو غريب بعيد عن سنن العـرب وأسلوبهم : " ثم جاء المحدثون فلهج به منهم مسلم بن الوليـد الانصارى ، وأكثر منه ومن استعمال المطابق والمخالف وهذه الفنـون المذكورة فى صناعة الشعر ، حتى قيل إنه أول من أفسد الشعـر . وجاء أبو تمام حبيب بن أوس بعده فزاد على مسلم فى استعمالـه والإكثار منه حتى وقع له الجيد والردىء الذى لا غاية وراءه فى القبح .(٢)

---

(١) هو أبو عبادة الوليد بن عبد الله بن يحيى البحترى الطائى . ولد بمنبج فى عام ٢٠٦ هـ . ونشأ فى البادية بين قومه بنى طى وغيرهم . اتصل بكثير من رجال الدولة ومدح الكثيرين منهم وأكثر مدائحه فى الخليفة العباسى المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان . توفى فى عام ٢٨٤ من الهجرة [من مقدمة الموازنة / مطبعة حجازى بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى مطبعة محمد على صبيح وأولاده تعليق عبد المتعال الصعيدى : ٢٢٧ .

وكلما تقدم الزمن ازداد هؤلاء الشعراء تكالبا على البديع يقول الدكتورأحمد ابراهيم موسى : " وهكذا كلما تقدم بالمحدثين وجاءت منهم طبقة أربت على سابقتها فى هذه الأصباغ وتفننت فى هذا البديع وأحدثت فيه فنونا وابتكرت فيه أنواعا أو عقدت فيه أو فى أدواته ،حتى أضحى الشعر فنا وصنعة تعلوهما الكلفة ،وأصبحت الألفاظ تبدل والعبارات تغير لا لأن المعنى يكمل بذلك أو يزداد وضوحا أو يكتسب تحددا . بل ليكون اللفظ طريا فى السمع وليأتى به للشاعر صبغة من أصباغ البديع، ولهذا كان التكلف أول ظاهرة فى شعر المحدثين ".(١)

ولم يقف هؤلاء الشعراء عند حد التكلف ،بل ظهر منهم مايشعر أنهم يحتزون بالبديع ،فادعى بعضهم أنهم اخترعوا البديع وابتدعوه ،وانفردوا بما لم يعرفه الأوائل ،وأصابوا فيه حظا وافرا من البيان . وهذا ماحدا أن يهب عبد الله بن المعتز لجمع البديع ،وينال قصب السبق فى هذا المضمار . فصنف كتابه "البديع" سنة أربع وسبعين ومائتين ليرد على هؤلاء بأنه لافضل لهم فى ابتكار البديع وأن غلوهم فيه واكثارهم منه ليس مبررا لهم بأن يزعموا أنهم اخترعوه .

وذكر ابن المعتز أنه أول من جمع فنون البديع فى كتاب فقال : " وماجمع فنون البديع قبلى ولاسبقنى اليه أحد ".(٢) لم يكن

---

(١) الصبغ البديعى فى اللغة العربية للدكتور أحمد إبراهيم موسى نشر دار الكتاب العربى للطباعة والنشر : ٥٦ .

(٢) البديع لابن المعتز نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكى : ٥٨ .

ابن المعتز واضعا للبديع وانما كان جامعا له . واعترف له بهذا الفضل كثير من العلماء والنقاد يقول ابن رشيق : "على أن ابن المعتز هو أول من جمع البديع وألف فيه كتابا "(١) ويقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : " والكتاب أول مؤلف في البديع وصنعة الشعر كما أجمع على ذلك جميع الباحثين وهو أهم كتب ابن المعتز بالنظر الى اختصاصه في هذا الفن وبعد فتحا جديدا "(٢)

وراح ابن المعتز يصف القديم ويرد البديع الى أصل عربي خالص عندما رأى المحدثين يدعون أنه من مبتكراتهم فقال : " لقد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه "(٣)

نرى أن ابن المعتز يهدف الى دحض الدعوى واقامة الدليل القاطع على قدم البديع ، ثم يسوق الأمثلة ليؤكد مذهبه اليه .

---

(١) العمدة في صناعة الشعر لابن رشيق / مطبعة السعادة : ١/ ٢٦٥ .

(٢) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان مكتبة الحسين التجارية الطبعة الأولى : ٣٧ .

(٣) البديع لابن المعتز ، نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكي : ١ .

ويبدأ بالقرآن الكريم فى كل فن من فنون البديع ثم يثنى بأحاديث الرسول صلوات الله عليه وسلامه ويعقب ذلك أمثلة من كلام العرب شعره ونثره • وهذا يدل على أن دراسة البديع بدأت بالرغبة فى اثبات وجوده فى القرآن الكريم • واستأثرت باهتمام النقاد فعكفوا على قراءة القرآن ودرسه لاستنباط الأقيسة والقواعد لفهم جوهر اللغة والاحاطة بدقائق تراكيبها •

ويعد كتاب ابن المعتز خطوة كبيرة فى النقد والبلاغة ومصدرا لمن بعده • ويشمل الكتاب خمسة فنون سماها ابن المعتز "البديع" وهى الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد الاعجاز على الصدور والمذهب الكلامى • وعد فنونا أخرى أطلق عليها محاسن الكلام •

ولم يقفل ابن المعتز الباب أمام الدارسين ولم يدع أنه أتى بكل مايمكن أن يقال فى البديع فقال : "ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع، ولم يأت غير رأينا فله اختياره ".[1] وهكذا صارت فنون البديع تزداد شيئا فشيئا إلى أن أربت عند بعضهم على المائة •

نتقدم مع البديع إلى القرن الرابع الهجرى لنجد الكاتب الشهير قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ للهجرة• لقد اشتهر قدامة بثقافته فى الفلسفة والمنطق • ألف كتابا قيما فى مجال النقد والبلاغة

---

(١) البديع لابن المعتز • نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكى : ٥٨ •

يسمى " نقد الشعر " • أورد سبعا وعشرين نوعا من البديع انفـــرد منها بعشرين نوعا واتفق مع ابن المعتز على سبعة منها وهـــى الاستعارة والالتفات والتجنيس والطباق والاعتراض والتشبيه والافراط فى الصفة •

ويسمى قدامة " الاعتراض" التتميم والافراط فى الصفة المبالغة • ويجعل المطابق والمجانس من نعوت ائتلاف اللفظ مع المعنى • وهـــو لايريد بالمطابق ماعناه ابن المعتز وإنما يريد ضربا من الجناس التام كقول الأفوه الأودى :(١)

وأقطع الهوجل مستأنســـا   بهوجل عيدانة عنتريس

ويقول : " فلفظة الهوجل فى هذا الشعر واحدة قد اشتركت فى معنيين لأن الاول يعنى الأرض والثانى الناقـــة " (٢)

---

(١) الافوه لقبه واسمه صلاءة بن عمرو بن مالك وهو من شعراء مذحج وكان يقال لأبيه عمرو بن مالك فارس الشوهاء وفى ذلك يقول الافوه :

أبى فارس الشوهاء عمرو بن مالك
غداة الوغى إذ مال بالجد عاثر

والأفوه من كبار الشعراء القدماء فى الجاهلية وكان سيد قومـــه وقائد حروبهم وكانوا يصدرون عن رأيه (تهذيب الاغانى تصنيف محمد الخضرى الطبعة الثالثة مطبعة الاستقامة بالقاهرة : (٦١/١)•

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر دار الكتب العلمية بيروت لبنـــان ، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى : ١٦٣•

وكان الصراع بين أبي تمام والبحتري داعيا لنمو البديع . فقد ألف الآمدي كتابه "الموازنة بين أبي تمام والبحتري" صور فيه ذلك الصراع الذي انقسم فيه النقاد والأدباء والعلماء إلى قسمين : أصحاب مذهب الطبع الذين ينبذون التكلف في الشعر ويريدون ارساله على السجية والطبع ، وهؤلاء يؤثرون البحتري ويفضلونه . وأصحاب مذهب الصنعة (البديع) الذي يتكلف أصحابه في صناعة الشعر ويميلون إلى الفلسفة والمنطق وهؤلاء يؤثرون أبا تمام .

يعرض الآمدي في مؤلفه فنونا بلاغية وآراء في النقد ، ويوازن بين الشاعرين في الإجادة والإبداع . ومن فنون البديع يورد ما عيب على أبي تمام من التجنيس الذي جد في طلبه واستكثر منه ، فبين ما أصاب فيه وما أساء . وكذلك درس الآمدي الطباق كما أخذ على قدامة مخالفته ابن المعتز في مصطلحات الفنون البلاغية .

ويطالعنا في هذا القرن الرابع القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني بكتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" الذي ذكر فنونا قليلة من فنون البديع . تعرض للتجنيس وقسمه إلى أقسام : المطلق والمستوفي ، والناقص والمضاف ومثل لكل نوع من هذه الاقسام . وتعرض للمطابق وغيره من فنون البديع التي يرى أن المحدثين فتنوا بها يقول "إن أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد وأن أبا تمام تبعه فسلك في البديع مذهبه فتحير فيه . كأنهم يريدون اسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات ، واسرافه في التماس هذه الابواب وتوشيح شعره بها ، حتى صار كثير ما أتى به من المعاني

لا يعرف ولا يعلم غرضه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل ، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن والحدس" (١)

وكان لدراسة البديع عناية خاصة عند أبي هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" ـ لقد سار أبو هلال فيه على ضوء سابقيه فذم الغلو في البديع والإكثار منه ، وهاجم المحدثين الذين ادعوا ابتكاره فقال :
"فهذه فنون البديع التي ادعى من لا رواية له ولا دراية عنده أن المحدثين ابتكروها وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين ، لأن هذا الكلام إذا سلم من التكلف وبرئ من العيوب ، كان في غاية الحسن ، ونهاية الجودة "(٢)

ومع أن أبا هلال لم يؤلف كتابا خاصا في البديع ، لكنه أفرد له جزءا كبيرا في كتابه "الصناعتين" ، خصص الباب التاسع لشرحه وحصر أبوابه وفنونه ـ وجعلها خمسة وثلاثين فنا مثل لكل نوع منها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب ، يقول " وقد شرحت في هذا الكتاب فنونه ، وأوضحت طرقه ، وزدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع :

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الرابعة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م تحقيق محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي .

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم: ٢٧٣ .

التشطير ، والمحاورة ، والتطريز ، والمضاعف ، والاستشهاد ، والتلطف ، وشذبت على ذلك فضل تشذيب ، وهذبته زيادة تهذيب ، وبالله أستعين على مايزلف لديه ، ويستدعى الإحسان من عنده ، وهو تعالى وليه ومولیه إن شاء الله " (١)

عمل أبو هلال العسكرى هذا امتداد لجهود من سبقه ، ومن الطبيعى أن يكون باعثهم على دراسة البديع إعجاز القرآن الكريم ، ولما كانت البلاغة العربية هى مدار المعرفة لإعجاز القرآن فقد أولاها أبوهلال اهتماما كبيرا يقول : " إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله "(٢)

إعجاز القرآن كان أساس دراسة البديع ، وإن هذا الإعجاز خليق بأن يثير فى الحياة الاسلامية مباحث على جانب كبير من الأهمية ، بذل فيها العلماء جهودا كبيرة مشكورة للكشف عن أسلوب القرآن الفذ فى التعبير ، ووجه كثير منهم عنايته لإعجاز القرآن الكريم .

ومن هؤلاء العلماء القاضى أبوبكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ ، وهو من أعلام المتكلمين على مذهب الأشاعرة ، ألف كتابا سماه "إعجاز القرآن " ، أفاض فيه القول عن وجوه الإعجاز فى القرآن .

---

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى طبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ، تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٢٧٢ .
(٢) نفسه : ٧ .

ومما يؤمن به في هذه الوجوه التي ذكرها أن القرآن بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز الخلق عنه .

وأما البديع فمفهومه عنده مفهوم عام شامل فنون البلاغة كلها . تحدث عن الاستعارة والكناية وغير ذلك مما لايندرج تحت اسم البديع . ورد في دراسته ماذكره الرماني في نفي السجع عن القرآن وقال إن فواصل القرآن تباين السجع إذ الفواصل تتبع المعنى أمـــا السجع فيتبعه المعنى ومن أجل ذلك يكون فيه التكلف .

تحدث عن المطابقة وذكر أن قدامة أطلقها على صورة من الجناس الكامل . وتحدث عن الجناس وبين أن ابن المعتز جعله في كل كلمتين متجانستين في تأليف حروفهما بينما خصه قدامة بجناس الاشتقاق كمـــا سبق أن رأينا .

يرى الباقلاني أن ماورد من البديع في القرآن جيد مطبـــــوع ولكن لاسبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من ذلك البديع الذي أدعـــوه في الشعر ووصفوه به . وذلك أن هذا الفن ليس فيه مايخرق العادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتصنع له . وقـــــد سبق لنا أن ناقشنا هذا الرأي .(١)

وربما تكون هذه الفكرة التي نبذ فيها الباقلاني التماس إعجـاز القرآن من خلال فنون البديع ، قد أوحت لابن أبي الإصبع المصري أن

---

(١) راجع صفحة ١٥ ومابعدها .

يؤلف فى القرن السابع الهجرى كتابه " بديع القرآن " ليبين ما فى القرآن من غرر البديع التى تفوق ما عرفه الكتاب والشعراء الذين علاهم الباقلانى .

واستنبط ابن أبى الاصبع أمثلة متعددة لفنون البديع فى القرآن . واستطاع أن يفيد من جهود سابقيه فأحصى نحو مائة فن فى كتابه جمعها كما يقول فى مقدمة كتابه من ستة وسبعين كتابا . وجعل القرآن الكريم مادته الاساسية فى التطبيق .

ونلتقى بابن رشيق القيروانى فى القرن الخامس الهجرى وكتابه " العمدة فى الشعر ومحاسنه " . وتقوم دراسته على أساس من رواية الاخبار والقصص . وينقل أحيانا نقدا مأثورا عن العلماء السابقين وآرائهم . ومما تحدث فيه من فنون البديع " التجنيس والطباق والمبالغة والغلو والتقسيم والتسهيم وغير ذلك .

وأخذ الدكتور بدوى طبانة على ابن رشيق عدم الابتكار فيما جاء به فيقول : " فإن ملكة الابتكار تكاد معالمها تكون مفقودة فى هذا الكتاب وإن كان لصاحبه شئ من الفضل فهو فيما جمعه من الروايات المأثورة . وما نقله من كلام غيره من علماء البيان ونقاد الشعر . ولهذا يعد كتاب العمدة من أهم المراجع التى يعتمدها الباحثون فى علم البلاغة عند العرب ، والطالبون لفنونها التى يزخر هذا الكتاب بالكثير منها ، كما يجدون فيه إشارات واضحة إلى الكتاب والمؤلفين فى البلاغة . وما استطاعوا أن يستخرجوه من فنونها ، وما وضعوه من ألقابها ومصطلحاتها ".(١)

---

(١) البيان العربى للدكتور بدوى طبانة . طباعة دار العودة ، دار الثقافة بيروت ، الطبعة الخامسة :١٢٧ .

وأما ابن سنان الخفاجي صاحب كتاب "سر الفصاحة" فقد تناول في كتابه فصاحة اللفظ الواحد ، واشترط له ثمانية أشياء • ثم ذكر صفات الألفاظ المؤلفة وعرض في كتبه لبعض فنون البديع كالطباق والتجنيس والمقابلة وانتهت به دراسته إلى أن من أنواع البديع ما مرجعه اللفظ ، ومنها ما مرده إلى المعنى ولعل هذا أساس ما انتهت إليه هذه الأنواع إلى محسنات لفظية ومحسنات معنوية •

وتناول عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري أيضا البديع في كتابيه "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" • وقد دفعه البحث في إعجاز القرآن إلى تأليف "دلائل الإعجاز" كما يبدو من اسمه •

ذم عبد القاهر الإفراط في البديع فقال : "وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع إلى أن ينسى أن يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده كمن ثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها" •(1)

---

(1) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، مطبعة الاستقامة الطبعة الاولى تعليق الاستاذ أحمد محمد المراغي : ١٣ و ١٤ •

ومفهوم البديع لايختلف عن سابقيه ، أطلقه على التشبيه والاستعارة والتمثيل والتجنيس والطباق والمجاز اللغوى والعقلى وحسن التعليل ، وقدم دراسة لهذه الفنون تدل على ثقافة عميقة واطلاع واسع ، وتسيطر على دراسته نظريته فى النظم ، تلك النظرية التى يبين فيها العلاقة بين اللفظ والمعنى ، ومما يقول فى ذلك : " فقد اتضح إذن اتضاحا لايدع مجالا للشك أن الالفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ "(١)

يرى عبد القاهر أن روعة الكلام شراكة بين اللفظ والمعنى ، يقول فى ذلك : " وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفى فى نظمها آثار المعانى وترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء إلى الشىء كيف جاء واتفق ".(٢) ويمتاز عبد القاهر عمن سبقه ببحثه العميق وطريقته المبتكرة فى تحليل النصوص وتفسيرها ونقدها بطريقة موضوعية يلتزم فيها التعليل فى أحكامه .

وننتقل بعد ذلك إلى السكاكى وبدر الدين بن مالك والقزوينى الذين كان لهم دور كبير فى دراسة البديع ، لقد تضافرت جهود هؤلاء العلماء الثلاثة فى جعل البديع علما مستقلا بنفسه ، ففى القرن السادس الهجرى

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م: ٣٨ .

(٢) نفسه : ٤٠ .

تحدث أبو يعقوب السكاكي في القسم الثالث من كتابه " المفتاح " عن علمي المعاني والبيان اللذين جعلهما من البلاغة ، وألحق بهما وجوها مخصوصة يقصد بها تحسين الكلام فقال : " وإذ تقرر أن البلاغة بمرجعيها وأن الفصاحة بنوعيها ، مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها بقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها ، وهي قسمان : قسم يرجع إلى المعنى وقسم يرجع إلى اللفظ " .[1] ولم يجعل السكاكي علم البديع مستقلا عن العلمين الآخرين ، ولكنه هيأ الأذهان لذلك بنصه المذكور .

وجاء بدر الدين بن مالك في القرن السابع الهجري فسمى تلك المحسنات " علم البديع " في كتابه "المصباح" وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف: " وظل على رأي السكاكي في أن علمي المعاني والبيان هما مرجع البلاغة وأن مرجع المحسنات البديعية الفصاحة إلا أنه مع اعترافه بأنها توابع للبلاغة وبعبارة أخرى لعلمي المعاني والبيان جعلها علما مستقلا بنفسه سماه علم البديع وبذلك هيأ لأن تصبح البلاغة متضمنة ثلاثة علوم ".[2]

وأكمل الخطيب القزويني في القرن الثامن الهجري جهود السكاكي وبدر الدين بن مالك فقام بتعريف البديع فقال : " هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ".[3] وبما فعله الخطيب القزويني أصبح البديع أحد علوم البلاغة الثلاثة بعد أن وضع له التعريف السابق . وعلى ذلك سارت الدراسات البلاغية إلى يومنا هذا .

---

(١) مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي ، مصطفى البابي الحلبي بمصر : ٢٠٠ .
(٢) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف الطبعة الرابعة : ٣١٥ .
(٣) التلخيص في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، شرح عبد الرحمن البرقوقي : ٣٤٧ .

الفصـــل الثـالــث

فنـــون البديـــع في اللغـــة والاصطـلاح

الطـــباق

ويسمى بالمطابقة والتطبيق والتطابق والتضاد والتكافــــؤ .
ولعل الخليل بن أحمـد هو أول من تكلم عنه وعرفــه ، فقد نقل عنه عبد الله بن المعتز قوله : " طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحــد "(١) ويقول ابن رشيق القيرواني "تكلم الخليـــل والأصمعي وعليهما اعتمد العلماء " (٢)

الطباق في اللغــة: هو الجمع بين الشيئين ، والمطابقة تعني الموافقة، وتقول طابق بين الشيئين بمعنى جعلهما على حذو واحد وألزقهمـــا .(٣) وكل فقرة من فقر الظهر والعنق طبق ، وذلك أن بعضـها مفضود علـى بعض(٤) ويقال طابق البعير في سيره إذا وضع رجله موضع يده . (٥)

---

(١) البديع لابن المعتز نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكي :٣٦.
(٢) العمدة لابن رشيق القيرواني / مطبعة السعادة الطبعة الثالثـــة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد : ٢/ ٥ و٧ .
(٣) مختار الصحاح مادة طبق .
(٤) الصناعتين لأبي هلال العسكري عيسى البابي الحلبي وشركاه . تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٣١٧.
(٥) نفسه :٣١٦.

وفى القرآن الكريم "سبع سموات طباقا" أى يعلو بعضها البعض(١)

قال امرؤ القيس :

ودبمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر

الطباق فى الاصطلاح : أما الطباق فى الاصطلاح فقد عرفه كثير من البلاغيين • وأول من أورده هو ابن المعتز وذكر فيه تعريف الخليل السابق• ويعرفه أبو هلال العسكرى بقوله : " الجمع بين الشئ وضده "(٢) ويقول قدامة بن جعفر : " فأما المطابق فهو مايشترك فى لفظة واحدة بعينها "(٣) ويمثل له بقول زياد الأعجم :(٤)

ونبئتهم يستنصرون بكاهل وللؤم فيهم كاهل وسنام

---

(١) تفسير جزء تبارك لأحمد مظهر العظمة / المكتب الإسلامى بيروت • الطبعة الثانية : ٤٩ •

(٢) الصناعتين لأبى هلال العسكرى عيسى البابى الحلبى وشركاه • تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم :٣١٦•

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر دار الكتب العلمية بيروت لبنان تحقيق الدكتور عبد المنعم خفاجى : ١٦٢•

(٤) هو زياد بن سلمى ،ويقال زياد بن جابر بن عمرو بن عامر من عبد القيس• كانت فيه لكنة فلذلك قيل له الأعجم • وكان يهاجى قتادة بن مغرب اليشكرى • وهجا الفرزدق أيضا (الشعر والشعراء لابن قتيبة نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت لبنان : ١/٣٤٣) •

وقول الأفوه الأودي :[1]

وأقْطَعُ الهوجلَ مُسْتَأنِسًا   بِهَوجلٍ عيرانَةٍ عَنْتَرِيسِ

يقول : فلفظة الهوجل في هذا الشعر واحدة قد اشتركت في معنيين لأن الأول يعنى الأرض والثاني الناقة"[2]

هذا هو الطباق عند قدامة ،يعرفه ويمثل له بلفظين متشابهين في البناء والصيغة مختلفين في المعنى . وهو بهذا يجعل الجناس طباقا وسنتعرض لذلك إن شاء الله عند الحديث عن الجناس. ويورد قدامة أمثلة من الطباق فيما يسميه التكافؤ الذي هو ذكر الشيء وضده . ومن أمثلته قول زهير :

حُلَمَاءُ فِي النَّادِي إذَا مَاجِئْتَهُم   جُهَلاءُ يومَ عجاجةٍ ولِقَاءِ

يقول : " حلماء وجهلاء تكافؤ " .[3]

ومن العلماء الذين عرفوا الطباق الزركشي الذي يقول "هو أن يجمع بين متضادين مع مراعاة التقابل ،كالبياض والسواد ، والليل والنهار، وهو قسمان لفظي ومعنوي " .[4]

---

(1) سبقت ترجمته .

(2) نقد الشعر لقدامة بن جعفر دار الكتب العلمية بيروت لبنان تحقيق الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي : ١٦٣ .

(3) نفسه .

(4) البرهان في علوم القرآن للزركشي : عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطبعة الثانية تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم : ٤٥٥ .

يقول السكاكى فى تعريف المطابقة: " وهى أن تجمع بين متضادين "(١)
ويمثل لها بقول الشاعر:

أمَا والذِى أبكَى وأضحَكَ والذِى　　　أماتَ وأحيَا والذِى أمرُهُ الأمْرُ

والتعريف الذى أخذ به البلاغيون هو تعريف القزوينى : " وهو الجمع بين متضادين أى معنيين متقابلين فى الجملة "(٢)

فى هذه التعريفات وغيرها نجد أن المتقدمين من العلماء باستثناء قدامة بن جعفر ،قد فهموا الطباق كما فهمه المتأخرون • والعلاقة وثيقة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى ،فقد ذكر ابن سنان الخفاجى : " الطبق للشىء إنما قيل له طبق لمساواته فى المقدار إذا جعل عليه أو غطى به وإن اختلف الجنسان ••• ومنه طباق الخيل • يقال طابق الفرس إذا وقعت رجلاه فى موضع يديه فى المشى والعدو وكذا الكلاب • قال النابغة الجعدى:

وخيلٍ يطابِقْنَ بالدَّارعِينَ　　　طباقَ الكلابِ يطأْنَ الهَرَاسَا(٣)

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكى / مصطفى البابى الحلبى وشركاه بمصر الطبعة الاولى: ٢٠٠•

(٢) التلخيص للقزوينى نشر دار الكتاب العربى لبنان • شرح عبدالرحمن البرقوقى : ٣٤٨•

(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى / مطبعة محمد على صبيح وأولاده تعليق عبد المتعال الصعيدى: ٢٣٤و ٢٣٥•

فالطباق هنا يرجع إلى الجمع بين الشيئين ، وهو كما يقول ابن رشيق : " المطابقة عند جميع الناس جمعك بين الضدين فى الكلام أو بيت شعر "(١) فالعلاقة قائمة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى . أرادوا بمطابقة اللفظ للمعنى موافقته له . ولعل هذه الموافقــــة هى التى جعلت قدامة بن جعفر يجعل التجانس مطابقــــة . فقــــد سبق أن أورد أن اجتماع المعنيين فى لفظة واحدة مكررا طباقا . ويصح أن يقال ذلك فى قول الخليل بن أحمد الذى ذكر فيه أن الطباق هو الجمع بين الشيئين على حذو واحد . والجمع بين المتقابلين يعــــنى المطابقة بينهما بجعل أحدهما منطبقا على الآخر بمقابلته له أو لأنهما تطابقا أى توافقا فى التضـــــاد . والشبه قائم بين المعنى الاصطـــــلاحى ومطابقة الفرس بوضع رجلها مكان يدها . فقد ورد فى شروح التلخيـــص أن أصل التعريف مأخوذ طابق الفرس إذا وضع رجله مكان يده .(٢) فوقوع رجل الفرس ويده المتقابلين فى موطئ واحد كوقوع المختلفين المســـمى بالمطابقة هنا فى تركيب متحد أو كالمتحد فى الاتصال .(٣)

وبهذا نقول إن المتضادين هنا لايقصد بهما الأمران اللــــذان يردان وبينهما غاية الخلاف كالسواد والبياض فحسب ، بل المراد بالتضاد والتقابل هنا معنى أعم من ذلك وهو أن يكون بين الشيئين تناف وتقابـــل

---

(١) العمدة لابن رشيق : مطبعة السعادة ، الطبعة الثالثة ، تحقيـــــق محمد محى الدين عبد الحميد : ٥/٢ .

(٢) عروس الافراح ومواهب الفتـــاح (ضمن شروح التلخيص) للسبكى والمغربى عيسى البابى الحلبى وأولاده : ٢٨٦/٤ .

(٣) مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) لابن يعقوب المغربى / عيســـى البابى الحلبى : ٢٨٦/٤ .

في الجملة يقول عبد الرحمن الأخضري : " وهو الجمع بين متقابلين في الجملة أي سواء كان تقابل ضدين أو نقيضين أو عدم أو ملكة "(١)

ويشترط في الطباق - كما يقول ابن رشيق (٢)- أن يكون بلفظين لا يرد فيهما الاسم المشترك بين ضدين ، ومثال ذلك أن يقع في الكلام شيء مما يستعمل للضدين كقولهم " جلل " بمعنى صغير و "جلل" بمعنى عظيم ، وكذلك " الجون بمعنى الأبيض و "الجون" بمعنى الأسود .

أقسام الطباق: يقسم البلاغيون الطباق إلى أقسام متعددة ، نكتفي هنا بذكر أشهرها كالطباق الحقيقي والطباق المجازي وطباق الإيجاب وطباق السلب .

الطباق الحقيقي : وهو ما كان طرفاه بألفاظ الحقيقة كقوله تعالى " وَتَحْسَبُهُم أَيْقَاظًا وهم رُقُود "(٣) وقوله تعالى : " وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا " (٤) الطباق في " إيقاظ ورقود" و " أضحك وأبكى " و " أمات وأحيا " .

---

(١) حلية اللب المصون على الجوهر المكنون لعبد الرحمن الأخضري / نسخة مكتوبة باليد بجامعة الرياض ١٢١ .

(٢) العمدة لابن رشيق / مطبعة السعادة الطبعة الثالثة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد : ٢/ ١٢ .

(٣) سورة الكهف : آية ١٨ .

(٤) سورة النجم : الآيتان ٤٣ و ٤٤ .

الطباق المجـــازى : ماكان طرفاه مستعملين فى المجاز كقوله تعالى : " أَوَ مَنْ كَانَ مَيتاً فَأَحْيَيناهُ "(١) أى ضالا فهديناه فالإماتة والإحياء لفظان مجازيان ومضاهما متضادان • والضلالة والهدى وهما حقيقتـــا اللفظين متضادان أيضـــا •

طباق الإيجـــــاب: عـرفه الدسوقى بقوله : "أن يكون اللفظان المتقابلان مصاحها موجبا ".(٢) وهو نوع من الطباق لايختلف فيه الضدان إيجابـــا وسلبا • نحو قوله تعالى : "وتحسبهم أيقاظا وهم رقود " ذكرت اليقظـــة والرقاد بطريق الاثبات • وقوله تعالى : " قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلكِ تُؤتِى المُلكَ من تَشاءُ وَتنزِعُ المُلكَ مِمَّن تشاءُ وتُعِزُّ من تَشاءُ وتُذِلُّ من تَشاءُ "(٣) تجــد أن تقابل المعنيين بالتضاد فى الآيـة • فالطباق فى " تؤتى وتنزع " و"تعز وتذل " • ومثاله أيضا قوله تعالى : " قُل إِنْ تُخفُوا مافِى صُدُورِكُـــمْ أو تُبدُوهُ يعلَمْهُ اللّهُ ويعلمُ مافِى السَّمواتِ ومافِى الأرضِ واللّهُ على كُلِّ شىءٍ قَديرٍ • يَومَ تَجِدُ كلُّ نفسٍ ماعَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ مُحضَرًا وماعَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لو أَنَّ بينَها وبينَهُ أَمَدًا بَعيداً ويُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفسَـهُ واللّهُ رَءوفٌ بالعِبادِ ".(٤) الطباق هنا فى قوله " تخفوا وتبدوا" وفى " خير وسوء" وفى "محضرا وبعيدا" •

---

(١) سورة الانعام : من الايـة ١٢٢ •

(٢) حاشية الدسوقى (ضمن شروح التلخيص) عيسى البابى الحلبى وأولاده : ٢٩٠/٤ •

(٣) آل عمران : من الآية ٢٦ •

(٤) آل عمران : آية ٢٩ و ٣٠ •

طبـــاق السلب : يقول التفتازانى أحد شراح التلخيص : " وهو أن يجمع بين فعلى مصدر واحد أحدهما مثبت والآخـر منفى أو أحدهما أمر والآخر نهى . ومثال الأول قوله تعالى : " يَسْتخفُونَ مِن النَّـاسِ ولايستَخْفُونَ مِن اللَّهِ " (١) والطباق فى (يستخفون ولا يستخفون) .
ومثال الثانى قوله تعالى : " اتّبعوا ما أُنْزِلَ إليكُم مِن ربكُم ولا تتَّبعُـوا مِنْ دونِهِ أولياءَ " (٢) الطباق فى " اتبعوا ولا تتبعوا " وقوله تعالـــى : " ولا تَخْشَـوا النَّاسَ واخْشَوْنِ " (٣) الطباق فى " لا تخشوا واخشونى " .

وسواء أكان الطباق طباق ايجاب أو سلب وسواء أكان طباقـا حقيقيا أو مجازيا فانه يكون بلفظين من نوع اسمين نحو " وتَحْسَبُهُـمْ أيْقاظًا وَهُمْ رُقودٌ " أو فعلين نحو " يُحْيِى ويُميتُ " (٤) أو حرفين نحو " لَهَا مَاكَسَبَتْ وعَلَيْها مااكتَسَبَتْ " (٥) أو من نوعين نحو " أو من كـان ميتا فأحييناه " فأحدهما اسم والآخر فعل .

ويلحق بالطباق ماينى على المضادة تأويلا فى المعنى نحو قولـه تعالى : " فَيغفِرُ لِمَن يشَاءُ ويُعذِّبُ من يشَاءُ " . (٦) التعذيب لا يقابل بالمغفرة

---

(١) سورة النساء : آيـة ١٠٨ .
(٢) " الأعراف : " ٣ .
(٣) " المائـدة : آية ٤٤ .
(٤) " يونس : " ٥٦ .
(٥) " البقرة : " ٢٨٦ .
(٦) " " " ٢٨٤ .

صريحا لكن على تأويل كونه صادرا عن المؤاخذة التى هى ضـــد المغفرة . وهذا مايعرف "بإيهام التضاد " .

ويقول تعالى فى وصف المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلـــم " أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ "(١) فجمعت الآيــة بين الشدة والرحمة . ولكن الرحمة لاتقابل الشدة وإنما تقابلها الفظاظة ، والشدة يقابلهــا اللين لكن الرحمــة مسببة عن اللين المقابل للشدة فقوبل فى الآيـــة بين المعنيين .(٢)

التكافـــؤ : أطلق قدامة بن جعفر على أمثلة الطباق اسم التكافـــؤ . وهو يعنى عنده ذكر الشىء وضـــده من غير اتحاد اللفظ . وجعـــل شرط الطباق اتحاد اللفظ أو اشتراك المعنيين المتقابلين فى لفظ واحد ، فإذا ذكر لفظ "الجون" مثلا مرتين أو " الناهل " فانه يصدق عليهمـا حد الطباق . وهذا لايجيزه علماء البيان وقد سمى ذلك بالجناس .

وأما التكافؤ من غير قدامة فقد اشترط له ابن الأثير الحلبـى أن يكون أحد الضدين حقيقة والآخر مجازا يقول : " أما التكافـــؤ فهو كالطباق فى أنه فى ذكر الشىء وضده ، لكن يشترط فى التكافـــؤ أن يكون أحد الضدين حقيقة والآخر مجازا ، فبهذا يحصل الفرق بينهما "(٣)

---

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

(٢) مختصر التفتازانى (ضمن شروح التلخيص) مصطفى البابى الحلبـى وأولاده بمصر : ٤/٢٩٤ .

(٣) جوهر الكنز : لابن الاثير الحلبى نشر منشأة المعارف بالاسكندريـة ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٨٩ و ٩٠ .

ومثال التكافؤ عنده قول دعبل :

لا تعجبي يا سَلْمُ من رجلٍ ضَحِكَ المشيبُ برأسِهِ فبكى

ومعنى ضحك المشيب اشتداد بياض شعره . فضحك المشيب مجاز وبكاء الرجل حقيقة . ومثاله أيضا قول بشار بن برد :

إذا أيقظتْكَ حروبُ العِدى فنبِّهْ لها عمْرًا ثُمَّ نَمْ

فإيقاظ الحروب مجاز . ونوم الشخص حقيقــة .

ويذكر ابن أبى الاصبع مثل ذلك فيقول : " فلابد أن يأتى فى الكلام المتضمن التكافؤ استعارة ، فإن لم تكن فيه استعارة فلا تكافؤ " وشاهده عنده قول الله عز وجل :" أوَ مَن كانَ مَيتـًا فأحْييناهُ "(١) أى ضالا فهديناه ، فإن الموت والحياة هنا مجاز .

---

(١) سورة الانعام : آيـة ١٢٢ .

المقابلــــــــــة

المقابلـــــة في اللغـــــة:(1)

المقابلة المواجهة والتقابل مثلـه • ورايته قبلا وقبلا ـ بفتح القاف والباء وضمها ـ أي مقابلة وعيانا •

والمقابلة الشاة التي تقرض أذنها من قبل وجهها والمدابـرة التي تقرض أذنها من قبل قفاها • قال الأصمعي : المقابلة أن يقطع من طرف أذنها شيء ثم يترك معلقا لايبين كأنه زنمة ، والمدابـرة أن يفعل ذلك بمؤخر الأذن من الشاة •

ورجل مقابل أي كريم النسب من قبل أبويه قال اللحيانـي المقابل : الكريم من كلا طرفيه • قال :

إنْ كنتَ في بكرٍ تعتُّ خؤولــةً ... فأنا المُقابلُ في ذَوِي الأعْمَامِ

ويقال انزل بقبل هذا الجبل أي بسفحه ،وكان ذلك في قبل الشتاء وفي قبل الصيف أي في أوله •

وقبالة الطريق : مااستقبلك منه • والاستقبال ضد الاستدبـــار، والإقبال ضد الإدبار قالت الخنساء :

تَرْتَعُ مارَتَعَتْ حتّى إذا ادَّكَرَتْ ... فإنّما هي إقبالٌ وإدبـــارُ

وقبائل الرأس أطباقــه قال الليث : قبيلة الرأس كل فلقة قد قوبلت بالأخرى• وقال الجوهري : القبيلة واحدة قبائل الرأس وهي القطع المشعوب بعضهـا إلى بعض تصل بها الشؤون ،وبها سميت قبائل العرب ، الواحدة قبيلة •

---

(1) الصحاح ،لسان العرب ،أساس البلاغة ،القاموس المحيط ،مختار الصحاح مادة قبل •

المقابلة في الاصطلاح :

لم يفرد ابن المعتز للمقابلة بابا خاصا في كتابه البديع ولكنه ذكر أمثلة لها في حديثه عن الطباق كقول الرسول (ص) للانصار: "انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع"(١) وهذا يعني أنه يجعل أمثلتها في الطباق .

وتكلم قدامة بن جعفر عن " صحة المقابلة" في باب المعاني الدال عليها الشعر" ويقول عن ذلك : وهو أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها البعض ، فيأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة ، أو يشترط شروطا ويعدد أحوالا في أحد المعنيين ، فيجب أن يأتي في مايوافقه بمثل الذى شرطه وعدده ، وفي مايخالف بضد ذلك " .(٢)

ويقول أبو هلال العسكري عن المقابلة هي : "إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة .(٣)

وحد المقابلة عند صاحب جوهر الكنز : " فأما حد المقابلة فهي

---

(١) البديع لابن المعتز نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكي : ٣٦ .

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، دار الكتب العلمية لبنان بيروت . تحقيق الدكتور عبد المنعم خفاجي : ١٤١ .

(٣) الصناعتين : لأبي هلال العسكري ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، تحقيق محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل ابراهيم : ٣٤٦ .

أن تكون اللفظة مقابلة لاختها ومعناها مختلف ".(١)

ويذكر ابن رشيق أن أصلها : ترتيب الكلام على مايجب فيعطى أول الكلام بما يليق به أولا ، وآخره بما يليق به آخرا ، ويأتى فى الموافق بما يوافقه ، وفى المخالف بما يخالفه ".(٢)

وأما ابن سنان الخفاجى فقد كان أكثر تأثرا بقدامة ابن جعفر فقد عرف المقابلة وهو يتحدث عن الكلام فى المعانى المفردة • وذكر أن من الأوصاف التى تطلب من هذه المعانى هى الصحة • وقال : " ومن الصحة صحة المقابلة فى المعانى وهو أن يضع مؤلف الكلام معانى يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة فيأتى فى الموافق بما يوافق وفى المخالف "(٣) ومثل لها بقول الطرماح :

أَسَرْنَاهُم وأَنعَمْنَا عَليهِمُ ... وأسقَينا دماءَهم التُّرابَا
فَما صَبَرُوا لبأسٍ عند حربٍ ... ولا أَدَّوا لِحُسن يدٍ ثَوابَا

ومثل قدامة بالبيتين السابقين وقال : " فجعل بإزاء أن سقوا دماءهم التراب وقاتلوهم أن يصبروا • وبإزاء أن أنعموا عليهم أن يثيبوا "(٤) والبيتان عنده من المقابلة الصحيحة •

---

(١) جوهر الكنز لابن الاثير الحلبى نشر منشأة المعارف بالاسكندرية ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٨٥•
(٢) العمدة لابن رشيق مطبعة السعادة الطبعة الثالثة تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد : ٢/١٥•
(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده ، تعليق عبد المتعال الصعيدى : ٢١٣و٢١٤•
(٤) نقد الشعر لقدامة بن جعفر دار الكتب العلمية بيروت لبنان تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى : ١٤٢ •

وهنا يذكر ابن رشيق أن قدامة لم يبال بالتقديم فيما ذكر ، بمعنى أن المقابلة الصحيحة ينبغى أن يراعى فيها الترتيب . يقول : "فقد ذكر الإنعام على الأسورين ، وأخر ذكر القتل فى البيت الأول . وأتى فى البيت الثانى بعكس الترتيب ، وذلك أنه قدم ذكر الصبر عند بأس الحروب وأخر ذكر الثواب على حسن اليد . اللهم إلا أن يريد بقوله : "فما صبروا لبأس عند حرب القوم الأسورين إذ لم يقاتلوا حتى يقتلوا دون الأسر وإعطاء اليد . فإن المقابلة حينئذ تصح وتترتب على ما شرطنا ".(١)

وإذا نظرنا الى تعريف المقابلة عند السكاكى نجده يقول : " وهى أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما ثم إذا شرطت شرطا هنا شرطت هناك ضده . ويمثل لذلك بقوله تعالى : " فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى "(٢) ويقول أنه لما جعل التيسير مشتركا بين الإعطاء والاتقاء والتصديق جعل ضده وهو التعسير مشتركا بين أضداد تلك وهى المنع والاستغناء والتكذيب.(٣)

لا شك أن تعريف السكاكى فيه فهم لحقيقة المقابلة فإنه يفصلها تماما عن المطابقة فى وضوح تام . وقد جاء بعده القزوينى وعبدالرحمن

---

(١) العمدة لابن رشيق . مطبعة السعادة ، الطبعة الثالثة تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد : ١٦/٢ .

(٢) سورة الليل : ٥ ـ ١٠ .

(٣) مفتاح العلوم للسكاكى . مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى : ٢٠٠ .

الأخضري وعرفاها بقولهما : وهو أن يؤتـى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب "(١) وهذا أصوب تعريف وأوجزه وبه يبين الفرق بين المقابلة والطباق وذلك أن الطباق لايكـون الا بالجمع بين ضدين فإذا جاوز الضدين كان مقابلة •

<u>صـور المقابلـة:</u> والذى يطلع على صور البلاغـة يجد أن منها مايكون مقابلة اثنين باثنين وهذه أقل صورها ومثال ذلك قول الله تعالى : " فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وليبكوا كثيرًا "(٢) وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

وَيَبْقَى بَعْدَ حِلْمِ القَومِ حِلْمِى   ويفنى قبلَ زادِ القـومِ زادِى

ففى الآيـة المقابلة بين " يضحكوا ،كثيرا " و " يبكوا ، قليلا " وفى البيت بين " يبقى ، بعد " و " يفنى ، قبل " ومثاله أيضـا قول الشاعـر :

وإذَا حديثٌ ساءَنِى لم اكتئبْ   وإذا حديثٌ سَرَّنى لم أشِـرْ

يقول قدامة : " فقد جعل بإزاء سرنى ساءنى ، وبإزاء الاكتئاب الأشـر وهذه المعانى غايـة فى التقابل "(٣)

---

(١) حلية اللب المصون على الجوهر المكنون لعبد الرحمن الاخضـرى ، نسخة مكتوبة باليد بجامعة الرياض : ١٢٢ •

(٢) سورة التوبـة : ٨٢ •

(٣) ~~سورة الحديد : ٢٣ •~~

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر دار الكتب العلمية بيروت لبنان تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى : ١٤٥

ومنها مقابلة ثلاثة بثلاثة كقوله تعالى : لِكَيلاَ تأسَوا عَلَى مافاتَكُمْ ولاتَفْرَحُوا بما آتاكُم "(١) وقول أبي تمام :

يا أُمَّةً كانَ قبحُ الجورِ يُسخِطُهَا دَهرًا فأصبحَ حُسنُ العَدْلِ يُرضِيهَا

المقابلة في الآية بين " تأسوا ، على ، فاتكم " و "تفرحوا ، والباء من بما ، آتاكم " وفي بيت أبي تمام المقابلة بين " قبح ، الجور يسخطها " و "حسن ، العدل ، يرضيها ".

وقوله تعالى : "يُحلُّ لَهُم الطيباتِ ويُحرِّمُ عليهِم الخَبائِثَ"(٢) فالمقابلة بين " يحل ، واللام من لهم ، والطيبات " و "يحرم ، وعلى من عليهم ، والخبائث"

ومقابلة أربعة بأربعة كقوله تعالى : " فأمَّا مَن أعْطَى واتَّقَى وصَدَّق بالحُسنى فسنيسِّرُهُ لليُسْرى . وأمَّا مَن بَخِلَ واستغْنَى وكذَّبَ بالحُسنى فسنيسِّرُهُ للعُسْرى "(٣) فقابل بين المعاني الأربعة الاولى " أعطى ، اتقى ، صدق الحسنى " والمعاني الأربعة الأخيرة وهي " بخل ، استغنى ، كذب ، العسرى".

ومقابلة خمسة بخمسة كقول أبي الطيب :

أزُورهُم وسوادُ الليلِ يَشفعُ لِي

وانثني وبياضُ الصبحِ يُغرِي بِي

---

(١) سورة الحديد : ٢٣
(٢) سورة الأعراف : ١٥٧.
(٣) سورة الليل : ٥ ـ ١٠ .

فقابل بين المعانى الخمسة فى صدر البيت والمعانى الخمسة فى عجز البيت .

ولم يرد فى القرآن الكريم مقابلة خمسة معان بخمسة أخرى . وهذا يعنى أن جودة المقابلة ليست بكثرتها وإنما فى تناسبها ووفاء المعنى وتمام الغرض .

__تقسيم المقابلة:__

يقسم صاحب جوهر الكنز المقابلة إلى ثلاثة أقسام وهى :(١) مقابلة الشىء بضده أو بغيره أو بمثله .

فأما مقابلة الشىء بضده كقوله تعالى : " مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كالأعْمَى والأصَمِّ والبصيرِ والسميعِ "(٢)

ومقابلة الشىء بغيره كبيت قريط بن أنيف، شاعر إسلامى ، ومن شعراء الحماسة :

يَجْزُونَ مِن ظُلم أهلِ الظُّلمِ مغفرةً

ومِن إساءةِ أهلِ السُّوءِ إحسانَا

قابل الظلم بالمغفرة وليست ضدا لها ، وإنما ضد الظلم العدل ولكن لما كانت المغفرة متضمنة معنى العدل من حيث استشعار عدم المؤاخذة حسنت المقابلة :

---

(١) جوهر الكنز لابن الأثير الحلبى ، نشر منشأة المعارف بالاسكندرية تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٨٧ و٨٨ .

(٢) سورة هود : ٢٤ .

ومثال ذلك قول الشاعر عمرو بن كلثوم :

فإنا نُورِدُ الراياتِ بِيضاً ... ونُصدِرهُنَّ حُمراً قد رَوِينا

فقوله " نورد " و " نصدر " ضدان متقابلان ، وقوله " بيضا " و " حمرا " مقابلة الشيء بضده ، لأن البياض ليس له ضد إلا السواد ، وبقية الألوان إنما يقال فيها متغايرة ، لأنها تصبغ وتنصبغ بخلاف الأسود والأبيض ، فالأسود يصبغ ولا ينصبغ ، والأبيض ينصبغ ولا يصبغ فحسن أن يكونا ضدين بخلاف بقية الألوان .

وأما مقابلة الشيء بمثله كقوله تعالى " نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ "(1) . وكقوله تعالى : " وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ "(2) وتظهر المماثلة هنا في الألفاظ . وهذه الأمثلة ما سنتحدث عنه إن شاء الله في أسلوب المشاكلة .

---

(1) سورة التوبة : آية ٦٧ .

(2) سورة آل عمران : آية ١٥٣ .

المشـــاكلـــة

المشاكلـة فى اللغـــة :[1]

المشاكلة الموافقة والتشاكل مثله . يقال هذا أشكل بكـــذا أى أشبه . وشاكلة الإنسان ناحيته وطريقته . وكل يعمل على شاكلته أى على جديلته وطريقته وجهته ومذهبه .

والشَّكل بفتح الشين ~~وكسرها~~ : المثل ، والجمع أشكال وشكـول . أنشـــد أبو عبيـــدة :

فَلا تَطْلُبا لِى أيّمًا إن طَلبْتُما   فإن الأيامَى لَسْنَ لِى بِشُكُولِ

وتقول هذا على شكل هذا أى على مثاله ويقال هذا شكـــل من هذا أى من ضربه ونحوه ، وهذا أشكل بهذا أى أشبه . وقـــد تشاكل الشيئان ، وشاكل كل واحد منهما صاحبه .

قال أبو عمرو : فى فلان شبه من أبيه وشكل وأشكلة ـ بفتح الكاف واللام ـ وشكله ـ بضم الشين وسكون الكاف ـ وشاكل ومشاكلة .

المشاكلة فى الاصطلاح :

يقول السكاكى : " وهى أن تذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعـه فـى

---

(١) الصحاح ، القاموس المحيط ، تاج العروس ، لسان العرب مادة شكل .

صحبتــــه .[1] ويقول القزويني : " وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا وتقديرا ".[2] ويذكر عبد الرحمـــــن الأخضري تعريف القزويني[3] .

المشاكلة التحقيقيـــة: وهي أن تكون الألفاظ المشاكل بها موجـودة في النص ومثاله قول ابن الرقعمق :[4]

إخوانُنا قَصَدُوا الصبوحَ بسُحْرَةٍ فأتى رسولُهم إليَّ خُصوصَـــا
قَالوا اقترحْ شيئًا نُجِدْ لكَ طبخَهُ قلتُ : اطبخُوا لِي جُبةً وقميصًا

وذلك أنه كان للشاعر أخوان أربعة ، وكان ينادمهم أيام كافور الإخشيدي فجاء إليه رسولهم وقد كان اليوم باردا ،ولم يكن له كسوة تحصنه من البرد ، فقال الرسول له : إخوانك يقرئونك السلام ويقولون لك : قد اصطبحنا اليوم ،وذبحنا شاة سمينة ، فاشته علينا نطبخ لك منهـــا فكتب إليهم البيتين السابقين ، وذهب الرسول بالرسالة وعاد ومعـــــه

---

(1) مفتاح العلوم للسكاكي ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأولى : ٢٠٠ .

(2) الإيضاح للقزويني " ضمن شروح التلخيص " عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر : ٤/٣٠٩ و٣١٠.

(3) حلية اللب المصون على الجوهر المكنون ، نسخة مكتوبة باليد بجامعـــة الرياض : ١٢٢ .

(4) اسمه ابن الرقعمق أحمد بن محمد الانطاكي توفي سنة ٣٩٩هـ ، (حاشية الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني مطبعة السنة المحمديـــة بالقاهرة : ٣٤٨/٢).

أربع خلع ، وأربع سرر في كل مرة عشرة دنانير ، فلبس احدى الخلع وذهب إليهم .[1] والشاعر في بيته وضع كلمة " اطبخوا لي " مكان "خيطوا لي " ليشاكل بها لفظ الطبخ الذي وقع في صحبته .

ومثال المشاكلة التحقيقية أيضا قوله تعالى : " وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، قال سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تَعْلَمُ مافِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مافِي نَفْسِكَ ، إنَّك أنتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ ".[2]

فقوله تعالى : " تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك جاء عن طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام فقد أطلقت النفس في الآية الكريمة على ذات الله سبحانه وتعالى لوقوعها في صحبة "نفسي" المراد بها عيسى عليه السلام وسنوضح المراد بهذه الآية عند حديثنا عن المشاكلة في القرآن إن شاء الله . وينبغي أن ننبه هنا إلى أنه لما كان اللفظ المشاكل به " نفسي" موجود في الآية الكريمة كانت المشاكلة في الآية تحقيقية .

<u>المشاكلة التقديرية</u> : قد تكون الألفاظ المشاكل بها غير موجودة ، وإنما تفهم من السياق كقوله تعالى : " قُولُوا آمنا باللَّهِ وما أُنزِلَ إلينَا وما أُنزِلَ

---

(١) البديع في أساليب القرآن دار المعارف الطبعة الأولى : ٧٧ .
(٢) سورة المائدة : ١١٦ .

إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتِيَ موسَى وعيسَى ، وما أوتِيَ النبيونَ من ربهم ، لا نفرقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مُسلمونَ ، فإنْ آمنوا بمثْلِ ما آمنتمْ بهِ فقد اهتَدَوا ،وإنْ تولوا فإنَّما هُم في شِقاقٍ فسيكفيكَهُمُ اللّهُ ،وهو السَّميعُ العَليمُ ، صبغةَ اللّهِ ومَن أحْسَنُ مِنَ اللـــهِ صبغةً ونحنُ لهُ عابِدونَ " .(١)

يقول القزويني : " صبغة الله ،وهو مصدر موكد لآمنا بالله أي تطهير الله ، لأن الإيمان يطهر النفوس ،والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون إنـــه تطهير لهم ،فعبر عن الإيمان بالله بصبغة الله للمشاركة بهـــذه القرينـة " .(٢)

أمر الله المؤمنين أن يقولوا للنصارى : صبغنا الله بالإيمان صبغته ،ولم نصبغ بصبغتكم . وجيء بالصبغة في الآية عن طريق المشاكلة، ولفظ " صبغة الله " قد وضع موضع " تطهير الله " لوقوعه في صحبة صبغة النصارى تقديرا لا تحقيقا ،لأن الصبغ ليس مذكورا في كلام النصارى ولكن لما كان غمس أولادهم في الماء الأصفر يستحق أن يسمى صبغـا وكان دليلا على دخولهم النصرانية ،كانت الآية منزلة في سبب ذلـك الفعل صار لفظ الصبغ المذكور تطهيرا ودخولا في الإيمان .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٣٦ ــ ١٣٨ .

(٢) التلخيص للقزويني نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي : ٣٥٧ و ٣٥٨ .

الالتفـــات

الالتفات فن مشهور من فنون البديع ، وعادة مألوفة لدى العرب ، ويدل على مقدرتهم فى التصرف والافتنان فى وجوه الكلام واظهار القدرة عليها والتمكـــن منها .

الالتفـات فى اللغـــة:[1]

تقول لفتّ فلانا عن رأيه أى صرفته ومنه الالتفات ، واللفتة هى المرة الواحدة من الالتفات ، والتلفّت أكثر منه .

ولفت وجهه عن الشىء وعن رأيه بمعنى صرفه عنه ، وتلفّت إلى الشىء والتفت إليه صرف وجهه إليه قال الشاعر :

أرَى الموتَ بين السَّيفِ والنِّطْعِ كامِنًا
يلاحِظُنِى من حيثُ ما أَتَلَفَّــــتُ

واللفت :اللى ، تقول لفته يلفته لفتا أى لواه على غير جهته ، واللفت الصرف يقال : مالفتك عن فلان أى ماصرفك عنه ؟ وأصـــل اللفت لى الشىء عن الطريقة المستقيمة ، وفى حديث حذيفة : إن من أقرإ الناس للقرآن منافقا لايدع منه واوا ولا ألفا يلفته بلسانه كما تلفت البقرة الخلى بلسانها ، أى كما تفعل البقرة بالحشيش إذا أكلته لأنـــه كما يقال : فلان يلفت الكلام لفتا أى يرسله ولايبالى كيف جاء ، بمعنـــى أنه يقرأه من غير روية ولاتبصر وتعمد للمأمور به وغير مبال بمتلوه كيف جاء .

---

(1) لسان العرب ، الصحاح ، القاموس المحيط ، مختار الصحاح مادة لفت .

وقولهم لا تلتفت لفلان أي لا تنظر إليـــه .

الالتفات في الاصطلاح :

لم يجعل ابن المعتز " الالتفات" من فنون البديع الخمسة ، بل جعله أول باب من المحاسن وعرفه بقوله : " وهو انصراف المتكلـــم عن المخاطبة الى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلـــك ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه الى معنى آخر ".(١)
ومما يمثل به قوله تعالى "حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِـــمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ"(٢) وقول جريـــر :

مَتَى كَانَ الخِيامُ بِذِى طُلُـــوحٍ سُقِيتِ الغَيثَ أَيَّتُهَا الخِيـــامُ
أَتَنْسَى يومَ تَصْقُلُ عَارِضَيْهـــا بعودِ بَشَامَةٍ سُقِى البَشَـــامُ

وأما قدامة بن جعفر فيجعله من نعوت المعانى ويقول :"وهو أن يكون الشاعر آخذا فى معنى ، فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظن بـأن رادا عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه ، فيعود راجعا إلى ما قدمـــه فإما أن يذكر سببه ، أو يحل الشك فيـــه "(٣) ومن أمثلته قول الرماح ابن ميادة :

---

(١) البديع لابن المعتز ، نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكى : ٥٨ .
(٢) سورة يونس : من الآيـــة ٢٢ .
(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، دار الكتب العلمية بيروت لبنـــان ، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى : ١٥٠ .

فلا صرمهُ يبدو وفي اليأس راحةٌ
ولا وصلهُ يبدو لنا فنكارمُـــــهُ

ويقول : " وفي اليأس راحة " التفت إلى المعنى لتقدير أن معارضا يقول له ماتصنع بصرمه ؟ فقال لأن اليأس راحة "(1)

ان تعريف قدامة ومثاله لاينطبقان على الالتفات ، وهذا مايعرف عند البلاغيين بالاعتراض . وقد جعله ابن المعتز بابا على حدتـــــه بعد باب الالتفات ومن أمثلته قول كثير :(2)

لو أنّ الباخلينَ وأنتَ منهُم رأوكِ تعلمُوا منك المطَـــالا

ويعني ابن المعتز أن الاعتراض في قوله " وأنت منهم " .

وحكى عن اسحق الموصلي أنه قال :قال الأصمعي : أتعرف التفات جرير ، قلت وماهو ؟ فأنشدني :

أتنسى إذ تودّعنا سُلَيمَى بعود بشامةٍ سقى البَشَـــامُ

ثم قال : أما تراه مقبلا على شعره ، إذ التفت إلى البشام فدعا له .(3)

---

(1) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : ١٥١ .

(2) البديع لابن المعتز نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكي : ٦٠ .

(3) العمدة : ٤٦/٢ .

ويؤيد ما ذهبت إليه من أن تعريف قدامة يقصد به الجملة الاعتراضية أن ابن أبى الإصبع المصرى أخذ تعريف قدامة السابق ومثل له بقوله تعالى : "فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ..."(١) ثم قال معلقا : "فقال : "ولن تفعلوا" قبل أن يتم الكلام الأول بقوله "فاتقوا النار"، وكان تأخير هذه الجملة ممكنا بحيث يقال : "فإن لم تفعلوا فاتقوا النار ولن تفعلوا" لكن لهذا التقديم والتأخير تأثير فى النظم يجعل له فى القلوب من الجلالة والتفخيم والرونق ما يحصر عنه ..."(٢)

لقد أشار ابن أبى الإصبع إلى أمر هام وهو عدم بتر الكلام فى حالة التقديم والتأخير فى مثل هذا الضرب من الامثلة ، ونبه إلى النكتة البلاغية فى التقديم فى الآية . وهذا كله لأن فى الكلام جملة اعتراضية جاءت لبيان التحدى والعجز التام فى جميع العصور والأزمان .

ومن أفضل ما عرف به الالتفات قول السيوطى : " هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر أعنى من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة الى آخر منها بعد التعبير بالأول "(٣)

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٤ .

(٢) بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى ، طبع ونشر مكتبة نهضة مصر بالفجالة : ٤٣ .

(٣) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، الطبعة الثالثة . وأنظر أيضا معترك الاقران ١ / ٣٧٧ .

بيّنا أن الاعتراض قد يحدث في جملتـه تقديم وتأخـير دون الاخلال بالسياق العام • وان هذا لايعني أنه لافائدة فـي الاعتراض وانما قصدت بذلك أن أوضح أن هناك فرقا كبيرا بينـه وبين الالتفات الذي لايمكن إزالته عن الجملة فانظر الى قولـه تعالى : " وَمَاأَرْسَلْنَا من رَسُولٍ الا ليُطَاعَ بإذنِ اللَّهِ ولو أنَّهُـمْ إذْ ظَلَمُوا أنفُسَهُم جاءُوك فاستغْفَرُوا اللَّهَ واستغْفَرَ لَهُمُ الرسُولُ لوَجَـدُوا اللَّهَ توابًا رَحِيمًـا "(١)

الالتفات في قوله " واستغفر لهم الرسول " والأصل فيـه " واستغفرت لهم " كما هو ظاهر من سياق الآية • فالنكتة هنـا ليست في التقديم والتأخير وانما في العدول عن خطابه (ص) تفخيما لشأنه وتعظيما لاستغفاره " حيث أسنده الى لفظ منبئ عن علـو مرتبته "(٢) وبهذا يظهر الفرق جليا بين الاعتراض والالتفات •

وفي قوله تعالى :"إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين"(٣) التفات ، إذ الاصل "إذ قلنا " • وفي ذلك اظهار للاعتناء بتربيتـه عليه السلام وجاء جواب ابراهيم عليه السلام على النمط نفسه " قـال أسلمت لرب العالمين " ولم يقل "أسلمت لك " وفي ذلك اذعان وخضوع وبيان لكمال قوة إسلامه فمن كان ربا للعالمين لايليق إلا أن يذعن له ويتلقى أمره بالطاعة • وليس في مقدورنا أن نوجد تقديما أو تأخيرا في الآية السابقة يستقيم به المعنى بصورة من الصور • وسنوضح بـإذن الله — ما في الالتفات من اللطائف والاسرار في موضعه •

---

(١) سورة النساء : آية ٦٤•
(٢) روح المعاني للألوسي ،احياء التراث العربي بيروت لبنان : ٥/٧٠•
(٣) سورة البقرة : آية ١٣١ •

اللـــف والنشـــــر

يطلق عليه اللف والنشر أو الطى والنشـــر . والمعنى ليس فيه اختلاف .

اللف فى اللغـــة:(١)

اللف فى اللغة يعنى الجمع والضم . لف الشيء يلفه لفا أى جمعه . والتف الشيء تجمع وتكاثف ويقال لفف فى ثوبه والتف به . واللفـــاف الثوب كلاكرتـــه . واللفافة بكسر اللام : مايلف على الرجل وغيرها والجمـــع اللفائف .

ورجل ألف مقرون الحاجبين ،وجمع لفيف يعنى أنه مجتمع ملتــــف من كل مكان . وقولهم : جاءوا ومن لف لفهم ،أى ومن عد فيهم وتأشب .(٢) ويقال كان بنو فلان لفا ، وبنو فلان لقوم آخرين لفا إذا تحزبوا حزبين .

واللفيف ماجتمع من الناس من قبائل شتى . يقال جاءوا بلفهـــم ولفيفهم أى وأخلاطهم . وطعام لفيف أى مخلوط من جنسين فصاعدا . والألفاف الأشجار الملتفة بعضها ببعض ومنه قوله تعالى : وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا .(٣)

---

(١) مادة لف ونشر فى الصحاح ، لسان العرب ، تاج العروس ، القاموس المحيط ، مواهب الفتاح (باب اللف والنشر) .
(٢) تأشب القوم اختلطوا . الأشابة من الناس ـ بضم الهمزة ـ الأخلاط .
(٣) سورة عم : آيــة ١٦ .

وكل هذه المعانى تدل على الجمع والضم فاذا قلت مثلا ألف الطائر رأسه تحت جناحيه ، وفى أرض فلان تلافيف من عشب فانه لايخرج عن المعنى .

النشر فى اللغة:

النشر خلاف الطى ، وهو مصدر نشرت الثوب أنشره نشرا أى بسطته ويقول الجوهرى نشر المتاع وغيره ينشره نشرا أى بسطه ، ومنه ريح نشور ورياح نشر – بضم النون والشين .

وتقول : نشرت الخبر أنشره ، إذا أذعته ، وصحف منشرة شدد الشين للكثرة ، وانتشر الخبر : ذاع .

وتنشر الشئ وانتشر : انبسط ، تقول انتشر النهار إذا طال وامتد ، ويقال : رأيت القوم نشرا – بفتح الشين – أى منتشرين ، وانتشرت الإبل والغنم أى تفرقت عن غرة راعيها . وتقول : ضم الله نشرك – بفتح الشين – أى ما انتشر من أمرك كقولهم لم الله شعثك .

والنشر – بسكون الشين أيضا الكلأ إذا يبس ثم أصابه مطر فى دبر الصيف فاخضر وهو ردئ يضر الإبل ، ويقال : اتق على إبلك النشر .

ونخلص من هذه المعانى جميعها إلى أن اللف والنشر فى اللغة يختلفان فى المعنى ، فالأول بمعنى الضم والجمع والثانى بمعنى البسط والانتشار .

اللف والنشر في الاصطلاح :

اللف والنشر فن واحد من فنون البديع في اصطلاح البلاغيين ، ولا يجوز الفصل بينهما . وتعريفه في الاصطلاح متعلق بالمعنى اللغوي ومرتبط به .

يقول أبو يعقوب السكاكي في تعريفه : "أن تلف بين شيئين في الذكر ثم تتبعهما كلاما مشتملا على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد كلا منهما إلى ما هو له ."(١) وهذا تعريف أفاد منه البلاغيون بعد السكاكي .

ويقول السيوطي : "هو أن يذكر شيئان أو أشياء إما تفصيلا بالنص على كل واحد أو إجمالا بأن يؤتى بلفظة تشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ،كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى مايليق به " (٢)

وإذا رجعنا إلى ماقبل عهد السيوطي والسكاكي نجد أن ابن سنان الخفاجي في القرن الخامس الهجري لايطلق عليه اسم اللف والنشر وإنما يجعله من التناسب في الألفاظ وهو حمل اللفظ على اللفظ في الترتيب فيقول : " ومن التناسب حمل اللفظ على اللفظ في الترتيب ليكون مايرجع إلى المقدم مقدما وإلى المؤخر مؤخرا " ومثال ذلك قول الشريف الرضي :

---

(١) مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الاولى : ٢٠٠ .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي : ١/ ٤٠٨ و٤٠٩ .

قَلْبِي وَطَرْفِي مِنْكَ هَذَا فِي حِمًى ... قَيْظٍ وهذا في رياضِ ربيعِ

يقول : " فإنه لما قدم قلبي وجب أن يقدم وصفه بأنه في حمى قيظ فلو كان قال : طرفي وقلبي منك لم يحسن في الترتيب أن يؤخر قوله — في رياض ربيع — والطرف مقدم ".(١)

وأما الخطيب القزويني فيعرفه بقوله :" هو ذكر متعدد على التفصيل ، أو الإجمال ، ثم ما لكل واحد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرده إليه "(٢) وهذا تعريف جيد أخذه عبد الرحمن الأخضري (٣) واعتمد عليه في دراسته .

ومعنى تعريف القزويني أن اللف والنشر أساسه ذكر متعدد سواء كان اثنين أو أكثر إما مفصلا أو مجملا ثم يذكر ما لكل واحد من ذلك المتعدد ما يختص به من غير تعيين ، وثوقا بأن السامع يعلم ما لكل كقول ابن الرومي :

آراؤُكم ووجُوهُكم وسيوفُكم ... في الحادثاتِ إذا دَجَوْنَ نُجومُ
فيها معالمُ للهُدى ومصابحٌ ... تَجْلو الدُّجَى والأُخْرَياتُ رُجومُ

---

(١) سر الفصاحة : لابن سنان الخفاجي ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده تعليق عبد المتعال الصعيدي : ٢٢٥.

(٢) التلخيص في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، شرح عبد الرحمن البرقوقي : ٣٦١.

(٣) حلية اللب المصون على الجوهر المكنون نسخة مكتوبة باليد بجامعة الرياض : ١٢٦.

وهذا من النوع المفصل المرتب فقد جمع الشاعر الآراء والوجوه والسيوف فى البيت الأول ثم ذكر المعالم للآراء والمصابيح للوجوه والرجوم للسيوف فى البيت الثانى فجاء فيه التفصيل مرتبا كما ذكرنا .

ولأجل هذا قلنا إن هناك علاقة بين المعنى الاصطلاحى والمعنى اللغوى . فمن المناسب هنا أن يسمى الأول لفا لأن الحال المبينة ملفوفة أى مجموعة ومضمومة إلى بعضها فلم تنشر وناسب أن يسمى الثانى نشرا لأنه بيان لما انطوى عليه اللف .

أضرب اللف والنشر:

يقسم البيانيون اللف والنشر إلى ضربين ورد ذكرهما فى التعريف وهما التفصيل والاجمال .

ا ـ التفصيل :

وهو نوعان باعتبار وجود الترتيب وعدمه .

الأول: أن يكون النشر على ترتيب اللف ، يجاء بالنشر على حسب ما فى اللف فيذكر الأول من المتعدد فى النشر للأول من المتعدد فى اللف ، والثانى وهكذا إلى آخرها . ومثاله قوله تعالى : "وَمِن رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ولِتبتغُوا من فَضْلِهِ " (١)

---

(١) سورة القصص : ٧٣ .

جمعت الآية بين الليل والنهار ثم ذكرت السكون لليل وابتغاء الفضل للنهار على سبيل التفصيل المرتب من غير تعيين واحد منهما لآخر لأن السامع يرد كلا إلى مايناسبه .

الثاني: أن يكون النشر على غير ترتيب اللف . ويقسمه البلاغيون إلى قسمين :

أولهما : أن يكون نشره على عكس ترتيب اللف ، بأن يكون الأول من النشر للآخر من اللف ، والثاني من النشر للذي يليه الآخر من اللف وهكذا . ومثاله قوله تعالى: "فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً من ربكُمْ ولتعلَمُوا عددَ السنينَ والحسابِ"(١)

ورد في هذه الآية أن ابتغاء الفضل للثاني من اللف وعلم الحساب للأول منه ، خلاف الترتيب .

ومثاله أيضا قوله تعالى : "وماكان قولهم الا أن قالوا ربنا أغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وأنصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين " (٢)

جاء دعاء أتباع الرسل على أسلوب اللف والنشر . فقد ذكر سبحانه وتعالى دعاءهم على سبيل التفصيل . ثم ذكر الاجابة من غير تعيين فقدم ثواب الدنيا مع تأخره في الدعاء وأخر ثواب الآخرة مع تقدمه . وسنبين باذن الله السر في ذلك في موضعه . ومثاله قول الفرزدق لهبيرة ابن ضمضم وهو يهجوه لقتله القعقاع بن عوف :

---

(١) سورة الاسراء : ١٢ .
(٢) " آل عمران: ١٤٧ و ١٤٨ .

لَقد خُلتَ قومًا لو لجأتَ إليهم ... طريدَ دمٍ ، أو حاملًا ثقلَ مغرمِ
لألفيتَ فيهم مُعطيًا أو مُطاعنًا ... وراءك شزرًا بالوشيجِ المقوَّمِ

فجاء قوله معطيا يرجع إلى كونه حاملا ، ومطاعنا يرجع إلى كونه طريدا ، على غير ترتيب .

ثانيهما : أن يكون نشره مختلط الترتيب بأن يكون الأول من النشر للآخر من اللف ، والثانى من النشر للأول من اللف والآخر من النشر للوسط من اللف . كقولنا هو شمس وأسد وبحر جودا وبهاء وشجاعة .

ولايخفى مافى هذا المثال من اختلاط ، لأن الجود هو الأول من النشر عائد إلى البحر وهو الآخر من اللف ، والبهاء وهو الثانى من النشر عائد للأول من اللف وهو الشمس والشجاعة وهو الآخر من النشر عائد إلى الوسط من اللف .

٢ ـ الإجمال :

قد يكون المتعدد مجملا كقوله تعالى : "وَقَالُوا لَن يدخُلِ الجَنَّةَ إلا مَن كانَ هُودًا أو نَصَارَى " (١) لايمكن أن يقول النصارى أن اليهود سيدخلون الجنة ولايمكن أن يقول ذلك اليهود فى النصارى . ولهذا فإن الضمير فى "قالوا" فى الآية لأهل الكتاب من اليهود

---

(١) سورة البقرة : ١١١ .

والنصارى وقد يكون المراد كما يقول القزويني : " قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصارى فلف لعدم الالتباس، للعلم بتضليل كل فريق صاحبه "(١)

جاء اللف على هذا الأسلوب ■ بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله لأن ذكر أهل الكتاب قد تقدم، وحالهم في طعن كل منهم الآخر معلومة . يقول السيوطي : " وإنما سوغ الإجمال في اللف ثبوت العناد بين اليهود والنصارى . فلا يمكن أن يقول أحد الفريقين بدخول الفريق الآخر الجنة . فوثق بالعقل في أنه يرد كل قول إلى فريقه لأمن اللبس وقال ذلك يهود المدينة ونصارى نجران ". (٢)

وقد يكون الإجمال في النشر لا في اللف بأن يؤتى بمتعدد ثم بلفظ يشتمل على متعدد يصلح لهما نحو قوله تعالى : " حَتّى يَتبينَ لكم الخَيطُ الأبيضُ مِن الخَيطِ الأسْودِ من الفَجْرِ "(٣) على قول أبي عبيدة أن الخيط الأبيض أريد به الفجر الكاذب لا الليل "(٤)

---

(١) التلخيص في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان . شرح عبد الرحمن البرقوقي : ٣٦٣.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الثالثة : ٢ : ٩٣.

(٣) سورة البقرة : من الآية ١٨٧.

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الثالثة : ٢/ ٩٣.

التـــوريـــة

التـــوريـــة لغـــة:(١)

وتسمى بالإيهام لاشتمالها على إيهام إرادة المعنى القريب.(٢)

والتورية لغة مصدر وريت للخبر توريـــة إذا سترته وأظهـــرت غيره. ويقول الجوهري : كأنه مأخوذ من وراء الإنسان لأنه إذا قال وريتـــه فكأنه يجعله وراءه حيث لا يظهر. وتوارى استتر.

ووراء بمعنى خلف، وقد يكون بمعنى قدام، وهي من الأضـــداد وقوله تعالى "وَكَانَ وراءهُم ملكٌ"(٣) أى أمامهم.

والورى قيح فى الجوف، وقيل الورى قرح شديد يقاء منه القيـــح والدم. وحكى اللحيانى عن العرب : ماله وراه الله أى رماه اللـــه بذلك الداء. قال والعرب تقول للبغيض وريا وقحابا(٤)، وللحبيب إذا عطس رعيا وشبابا. وفى الحديث عن النبى (ص). أنه قال: لأنْ يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا ".(٥)

---

(١) الصحاح، لسان العرب، مختار الصحاح. أساس البلاغة، القاموس المحيط : مادة ورى.

(٢) حلية اللب المصون على الجوهر المكنون، لعبد الرحمن الأخضرى نسخـــة مكتوبة باليد بجامعة الرياض تحت الرقم العام ٨٩٥٥٦ : ١٢٤.

(٣) سورة الكهف : من الآيـــة ٧٩.

(٤) قحب يقحب قحابا وقحبا إذا سعل، ويقال أخذه سعال قاحب. (لسان العرب مادة قحب.)

(٥) لسان العرب مادة ورى.

التوريـــة فى الاصـــطلاح :

يعرفها القزوينى بقوله : "أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعـيد ويراد البعيد "(١) ويقول عبد الرحمن الأخضرى : " وهـــو أن يذكر لفظ له معنيان قريب وبعيد ويراد البعيد "(٢)

والتورية تكسو الكلام جمالا ولطفا يقول الزمخشرى :
" لا ترى بابا فى البيان أدق ولا ألطف من التورية ولا أنفع ولا أعـون على تعاطى تأويل المتشابهات فى كلام الله ورسوله ".(٣)

المقصـــود بالقريب والبعيد :(٤)

التورية فى الاصطلاح ــ كما رأيت ــ لها معنيان قريب غير مراد وبعيد مراد . ويقصد بالمعنى القريب أنه قريب إلى الفهم لكثرة استعمال اللفظ فيه والمعنى البعيد أنه بعيد عن الفهم لقلة استعمال اللفظ فيه .

---

(١) التلخيص فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ، نشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان ، شرح عبد الرحمن البرقوقى : ٣٦٠.

(٢) حلية اللب المصون على الجوهر المكنون ، لعبد الرحمن الأخضرى ، نسخة مكتوبة باليد بجامعة الرياض تحت الرقم العام ٨٢٥٥٦ : ١٢٤.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، مطبعة مصطفى البابى الحلـــبى وأولاده ، الطبعة الثالثة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م : ٨٣ .

(٤) الكلام عن المعنى القريب والمعنى البعيد وعن خفاء القرينة ملخص من شروح التلخيص ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وأولاده بمصر : ٤/ ٣٢٢ و٣٢٣.

وكما علمت من الشرح اللغوي للتورية أنها من وريت الشيء إذا سترته وأخفيته ، فهذا فان المعنى القريب ساتر للبعيد ، والبعيد خلفه . والمراد هو المعنى تحت الستر .

خفاء القرينة :

لابد أن تكون إرادة المعنى البعيد معتمدا فيها على قرينة خفية لأجل أن يذهب الوهم قبل التأمل إلى إرادة المعنى القريب . فلو كان المعنى واضحا صار المعنى قريبا بها ، لعدم ستر المعنى القريب للبعيد ولم تكن هناك تورية . وإذا لم تكن هناك قرينة فليست هناك تورية فلا يفهم إلا المعنى القريب وهنا يكون لفظها قد خرج عن قانون الاستعمال وهو إفهام المراد .

والتورية عند البلاغيين مجردة ومرشحة وهذا التقسيم باعتبار النظر إلى المعنى القريب ومايذكر ملائما له :

التورية المجردة :

وهي التي " لم يذكر فيها شيء من لوازم المورى به ولا المورى عنه "(١) وهي كقوله تعالى : " وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار "(٢) أراد بقوله جرحتم معناه البعيد وهو ارتكاب الذنوب ولم يرد المعنى القريب وهو الجارحة .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الثالثة : ٢/٨٤ .

(٢) سورة الأنعام : ٦٠ .

وقوله تعالى : "الرَّحمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوَى " (١) فالاستواء على معنيين ، الاستقرار فى المكان ، وهو المعنى القريب المورى به ، وهو غير مقصود لتنزيهه تعالى عن ذلك ، والثانى : الاستيلاء على الملك وهو المعنى البعيد المقصود الذى ورى عنه بالقريب المذكور •

ولم يذكر فى المثالين السابقين مايلائم المعنى القريب ولذا سميت التورية بالمجردة •

التوريـــة المرشحـــة :

يقول السيوطى : وهى التى ذكر فيها من لوازم هذا وهذا (٢) يعنى بذلك المعنى القريب والمعنى البعيد • يقول عبد الرحمن الأخضرى : وهى التى قرنت بما يلائم المعنى القريب • (٣)

ومثالها قوله تعالى : " والسَّماءَ بَنيناها بِأيدٍ " (٤) ، فكلمة أيــد لها معنيان أحدهما المعنى القريب وهو الجارحة ، وهو المورى بــــه •

---

(١) ســـورة طـه : ٥ •

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، الطبعة الثالثة : ٢/٨٤•

(٣) حلية اللب المصون عن الجوهر المكنون لعبد الرحمن الاخضرى ، نسخة مكتوبة باليد بجامعة الرياض : ١٢٤ •

(٤) سورة الذاريات : ٤٧ •

وقد ذكر من لوازمه "بنيانها" على جهة الترشيح . والمعنى البعيد المراد هو القوة والقدرة .

ومثالها قول الشاعر:

حَملناهم طُرا على الدُّهم بَعْدَما ... خَلَعنا عليهم بالطِّعانِ ملابسَا

والمراد أنهم أسروا أعداءهم وقيدوهم بالحديد بعد طعنهم وإصابتهم بالجراح . فكلمة الدهم لها معنيان : أحدهما المعنى القريب غير المراد وهو الخيول السود وهذا ما يتبادر إلى الذهن . وأما المعنى الثاني هو القيود السود وهو المعنى البعيد المراد . وفي التورية ترشيح بما يلائم المعنى القريب وهو كلمة "حملناهم" .

الجنـــــاس

الجناس في اللغــــة:

والجناس والمجانسة والتجنيس والتجانس كلها بمعنى .(١)
وتورد المعاجم العربية لفظ الجناس في شرحها للفظ الجنس . يقول ابن منظور : " الجنس في اللغة الضرب من كل شيء والجمع أجناس وجنوس ومنه المجانسة والتجنيس ويقال هذا يجانس هذا أي يشاكله .(٢)

ويقول الجوهري : الجنس الضرب من الشيء ومنه المجانســـة والتجنيس .(٣)

والضرب أعم من النوع ، تقول هذا النوع من ضرب هذا ــ أي من جنسه . فالجنس من كل شيء : ما ترجع الأنواع إليـــه .(٤)

ويطلق الجنس على القبيلة والأمة وعلى المختلف بالأغراض وكذلك الجنس يطلق على المتشابه مطلقا بأي وجهة كان . فتقول هذا جنس هذا ،

---

(١) جوهر الكنز لابن الأثير الحلبي ، نشر منشأة المعارف بالاسكندريـــة تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٩١.
(٢) لسان العرب مادة جنس .
(٣) الصحاح مادة جنس
(٤) فن الجناس لعلي الجندي ، مطبعـــة الاعتماد بمصر ، نشر دار الفكر العربي : ٥ .

يعنى مشابها له .[1] وكان الأصمعى يدفع قول العامة هذا مجانس لهذا ويقول أنه مولـــد .[2]

الجناس فى الاصطلاح :

يذكر صاحب جوهر الكنز أن لفظتى الجناس والمجانسة لم تتكلم بهما العرب وإنما قاسوهما على نظائرهما وجعلوا الجناس حال كلمـــة بالنسبة إلى أختها المجانسة[3]

ويذكر على الجندى أن الجناس سمى جناسا لمجىء حروف ألفاظه من جنس واحد ومادة واحدة .[4]

ويرى ابن دريد أن الأصمعى واضع كتاب الأجناس هو أول مـــن جاء بالجناس. [5] وتشير المصادر العربيـــة إلى أن الخليـــــــــل

---

(١) جوهر الكنز لابن الاثير الحلبى ، نشر منشأة المعارف بالاسكندريـــة تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٩١.

(٢) مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) لابن يعقوب المغربى ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وأولاده بمصر : ٤٠٤١٣/٤ وأنظر أيضا الصحاح مادة جنس.

(٣) جوهر الكنز لابن الاثير الحلبى ، نشر منشأة المعارف بالاسكندريـــة ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٩١ .

(٤) فن الجناس لعلى الجندى مطبعة الاعتماد بمصر نشر دار الفكر العربى : ٣.

(٥) القاموس المحيـــط مادة جنس.

ابن أحمد هو أول من تكلم عن الجناس حين قال : الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو . فمنه ماتكون الكلمة تجانس أخرى فى تأليف حروفها ومعناها ويشتق منها مثل قول الشاعر :

يوم خلجت على الخليج نفوسهم ...

أو يكون تجانسها فى تأليف الحروف دون المعنى مثل قول الشاعر :

إن لوم العاشق اللوم (١)

وأول مايطالعنا فى كلام الخليل أنه يجمع بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى . ويمكننا أن نقول إن الفضل فى المعنى الاصطلاحى للجناس يرجع الى الخليل بن أحمد ، فهو ـ كما ترى ـ يطلق التجنيس على ما اتحد فى المعنى واختلف فيه من غير أن يفرق بينهما .

وجاء الأصمعى بعد ذلك وألف كتاب الأجناس وقد أشار ابن المعتز الى ذلك فى تعريفه للجناس الذى يقول فيه : "هو أن تجىء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر وكلام . ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها على النحو الذى ألف الأصمعى كتاب الأجناس عليها "(٢)

هكذا عرف ابن المعتز الجناس ومثل له كما عرف عنه من القرآن الكريم والحديث النبوى وكلام العرب نظمه ونثره . ومما يمثل له من

---

(١) البديع لابن المعتز نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكى : ٢٥.

(٢) نفسه .

القرآن قوله تعالى : " وأَسْلَمْتُ مَعَ سُليمانَ لِلّهِ رَبِّ العالَمِين "(١) وقوله " فأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ القَيِّمِ "(٢) ومن الحديث النبوى قوله صلى الله عليه وسلم : عصية عصت الله وغفار غفر الله لها " وقوله أيضا : " الظلم ظلمات" ومن أقوال الصحابة رضوان الله عليهم قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : هاجروا ولا تهجروا .
ومن شعر العرب قول محمد بن كناسة :

وسَمَّيتُهُ يَحْيَى ليحيَا وَلَم يكُن ... إلى رَدِّ أمرِ اللَّهِ فيه سبيلُ
تيمّمت فيه الفألَ حين رزقتُهُ ... ولم أدْرِ أنَّ الفألَ فِيه يَفِيلُ

وقول جرير :

فما زالَ مَعْقولاً عِقالٌ عن النَّدى ... وما زالَ مَحْبُوسًا عن المَجْدِ حابِسُ

وقول زياد الأعجم :

وفيتهُمْ يستنصِرُونَ بكاهِلٍ ... وللؤْمِ فيهم كاهِلٌ وسَنَامُ

وعرض ابن رشيق للتجنيس ولم يعرفه وذكر أن ضروبه كثيرة فقال :
" التجنيس ضروب كثيرة : منها المماثلة ، وهى أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى ".(٣)

---

(١) سورة النمل : ٤٤
(٢) " الروم : ٤٣
(٣) العمدة لابن رشيق ، مطبعة السعادة ، الطبعة الثالثة ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد : ١/ ٣٢١.

ودرسه أبو هلال العسكرى وعرفه بقوله : " التجنيس أن يورد المتكلم فى الكلام القصير نحو البيت من الشعر أو الجزء من الرسالة أو الخطبة كلمتين تجانس كل واحدة منها صاحبتها فى تأليف حروفها على حسب ما ألف الأصمعى كتاب الأجناس".[1]

وأما السيوطى فيورد تعريفين أحدهما للجناس والآخر للتجنيس يقول عن الأول : " هو تشابه اللفظين فى اللفظ".[2] وعن الثانى : " أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ولايكون أحدهما حقيقة والآخر مجازا بل يكونا حقيقتين ".[3]

ويخلط الرمانى بين التجنيس والمشاكلة فيقول فى تعريفه للتجنيس " تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد فى اللغة "[4] ويقسمه إلى قسمين مزاوجة ومناسبة ويورد أمثلة من المشاكلة للتوضيح .

---

(١) الصناعتين : لأبى هلال العسكرى ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ، تحقيق على ــــ البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم: ٣٣.

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، الطبعة الثالثة : ٢/٩٠ .

(٣) نفسه : ٢/٩١ .

(٤) النكت فى إعجاز القرآن للرمانى [ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن] دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية : ٩٩).

ويجعل ابن سنان التجنيس من باب التناسب بين الألفاظ ويعرفه بقوله : هو أن يكون بعض الألفاظ مشتقا من بعض إن كان معناهما واحدا أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفا، أو تتوافق صيغتا اللفظين مع اختلاف المعنى "(١)

وهذا التعريف ينطبق على مايعرف بجناس الاشتقاق والجناس المغاير ولاينطبق على أضرب الجناس الأخرى .

وتكلم عبد الرحمن الأخضري عن الجناس وعرفه فقال : " وهو تشابه اللفظين في التلفظ فيخرج المترادفان ويدخل المشترك(٢) وقسمه الى تام وغير تام وعرف كل قسم ومثل له .

وأما ابن أبي الإصبع المصري فيقول : للتجنيس أصلان : وهما جناس المزاوجة ، وجناس المناسبة ، تفرع فيهما عشرة فروع : منها لفظي ومنها معنوي .(٣) ويسلك منهج الرماني في التمثيل بأمثلة من المشاكلة .

وأما تعريف القزويني فهو : الجناس بين اللفظين وهو تشابههما في اللفظ .(٤) أدرك الشراح عدم شمولية التعريف وخاضوا طويلا في شرحه .

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده تعليق عبد المتعال الصعيدي : ٢٢٧ .

(٢) حلية اللب المصون على الجوهر المكنون لعبد الرحمن الاخضري ، نسخة مكتوبة باليد بجامعة الرياض : ١٣٤ .

(٣) بديع القرآن : لابن أبي الإصبع المصري ، طبع ونشر مكتبة نهضة مصر بالفجالة : ٢٧ و٢٨ .

(٤) التلخيص في علوم البلاغة نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان شرح عبد الرحمن البرقوقي : ٣٨٨ .

فذكروا أن التشابه بين الكلمتين لابد أن يصحبه اختلاف فى المعنى ليخرج المترادفان نحو أسد وسبع للحيوان المفترس والتشابه فى اللفظ والمعنى كالتأكيد اللفظى نحو قام زيد ،والتشابه فى العدد نحو ضرب وعلم اذا بنيا للمجهول ،والاتفاق فى الوزن نحو ضرب وقتل .

وأفضل حد للتجنيس هو ماذكره صاحب الجوهر : " اتفاق الألفاظ واختلاف المعانى ".(١) وهذا تعريف أحكم من تعريف القزوينى .

وإذا كنا قد رأينا الرمانى وابن أبى الإصبع المصرى يمثلان للجناس بأمثلة من المشاكلة فاننا نرى قدامة بن جعفر قبلهما يجعل الجناس على ماكان بين المشتقات والطباق على ماكان بين الجوامد . فهو يجعل الجناس طباقا ويمثل له بأمثلة من الجناس كقول الافوه الأودى :

وأقطعُ الهَوْجَل مُستأنسا ... بهوجلٍ عيرانَةٍ عَيْطَمُوسٍ

ويجعل المجانس للمعانى التى تكون مشتركة فى ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق كقول الفرزدق :

خفاف أخفَّ اللهُ عنه سحابة ... وأوسعه من كلِّ سافٍ وحاصبِ

---

(١) جوهر الكنز لابن الأثير الحلبى ،نشر منشأة المعارف بالاسكندرية ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام: ٩٤ .

ويقول ابن سنان عن مخالفة قدامة لغيره في هذا الفن :

" وأبو الفرج قدامة بن جعفر يسمى هذا الفن من التجانس المطابق ، ويسمى المطابق المتكافيء ـ لأن التكافيء عنده هو المتقابل بالايجاب والسلب ونحوهما ... وقد أنكر عليه ذلك أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى فقال : " فإن الناس قد تقدموا أبا الفرج في تلقيب هذه الانواع ، مثل أبي العباس عبد الله بن المعتز بالله وغيره ، وكفوه المؤونة في اختراع ألقاب تخالفهم ". (١)

أقسام الجناس:

الجناس عند البلاغيين يكون تاما وغير تام . فالتام هو الذى تتشابه فيه الحروف في نوعها وعددها وترتيبها وشكلها ومثاله الآية الكريمة : " وَيَومَ تقومُ الساعةُ يقسمُ المجرمونَ مالبِثوا غير سَاعةٍ ". (٢) فالساعة الأولى معناها القيامة والثانية المراد بها الوقت . وهذا الجناس التام ينقسم الى قسمين :

أ ـ مماثل : وهو ماكان اللفظان فيه من نوع واحد اسمين أو فعلين أو حرفين .

ومثاله من الاسمين قول الصلتان العبدى يرثي المغيرة بن المهلب:

فانْعَ المغيرةَ للمغيرةِ إذ بدَتْ   شعواءُ مُشعلة كنبحِ النّابحِ

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده تعليق عبد المتعال الصعيدى : ٢٢٩.

(٢) سورة الروم : ٥٥.

المغيرة الأولى الرجل ، والمغيرة الثانية الفرس ، وهو ثانية الخيل التى تغير. ومثاله أيضا قول الشاعر:

أبيخت فألقت بلدةً فوق بلدةٍ قليلٌ بها الأصواتُ إلا بغامُهَا

البلدة الأولى صدر الناقة ، والثانية المكان من الأرض .

ب ـ المستوفى : وهو ماكان فيه اللفظان فيه من نوعين كاسم وفعل مثل قول أبى تمام:

ما ماتَ من كرمِ الزمانِ فإنّهُ يحيَا لدى يحيَى بنِ عبدِ اللهِ

فجانس بيحيا الفعل ويحيى الاسم .

وأما الجناس غير التام فهو ما اختلف فى نوع الحروف أو عددها أو ترتيبها أوشكلها وينقسم الى :

أ ـ المضارع : ما اختلف فيه الكلمتان فى نوع الحروف كقوله تعالى : "وَهُمْ ينهَوْنَ عنهُ وينأَوْنَ عنهُ "(١) وقول البحترى :

هلْ لِما فاتَ من تلاقٍ تلافِى أم لشاكٍ من الصبابةِ شافِى

الاختلاف فى الآيــة بين كلمتى " ينهون وينأون" وفى بيت البحترى بين كلمتى " تلاق وتلافى " وكلمتى " شاك وشافى " . وكل كلمتين اختلفتا فى حرف من حروفهما . وقد سمى قدامة بن جعفر هذا الفن من المجانس

---

(١) سورة الأنعام : ٢٦.

من — تلاق وتلاف، المضارعة اذ كانت احدى اللفظتين تماثل الأخرى بأكثر الحروف ولا تشابهها في الجميع.(١)

وتكلم ابن رشيق عن المضارعة في باب التجنيس وقال أصلها أن تقارب مخارج الحروف وفي كلام العرب كثير منه ومثل لها بالآية السابقة.(٢)

ب— الجناس الناقص : ما اختلف فيه عدد الحروف ومثاله قول الله تعالى : " والتفَّتِ السَّاقُ بالساقِ إلى ربكَ يومئذٍ المَساقُ " (٣) وقول الخنساء :

إنّ البكاءَ هُو الشفــا ءُ مِن الجَوى بينَ الجَوانـــحِ

وقول أبي تمام :

يمدُّونَ من أيدٍ عَواصٍ عَواصِمٍ تصُولُ بأسيافٍ قَواضٍ قَواضِبِ

وقول النابغــــة:

وأقطعُ الخَرْقَ بالخَرْقاءِ قد جَعَلَتْ بعد الكَلالِ تَشَكَّى الأينَ والسَــأمَا

الجناس فيما سبق غير تام لاختلاف كل كلمتين في عدد الحروف . ففي الآية جانس بين الساق والمساق . وفي البيت الأخير مثلا جانس بين

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، تحقيق عبد المتعال الصعيدي : ٢٣٢ .

(٢) العمدة لابن رشيق ، مطبعة أمين هندية بمصر ، الطبعة الاولى : ١/ ٢٣٣ .

(٣) سورة القيامة : ٢٩ و ٣٠ .

كلمتى " الخرق والخرقاء" . والخرق هو الواسع من الأرض الذى يتخرق فيه الريح والخرقاء الناقة التى بها هوج من نشاطها . والشاعر هنا يشير الى بعد السفر وطوله وأنه استعمل هذه الناقة نشيطة فى أول أمرها حتى أعييت من طول السفر ، فلو كانت مما تشتكى لاشتكت طوله .

جـ ـ الجناس المحرف : ما تماثل فيه اللفظان فى الحروف واختلفا فى الحركات كقوله تعالى " وَلَقد أرْسَلْنا فِيهِم مُنذِرِينَ فانْظُر كَيْفَ كانَ عاقِبةُ المُنْذَرِينَ "(١) وقول الشاعر :

هَلاّ نَهاكَ نُهاكَ عن لَوْمِ امرِئٍ ... لَمْ يُلفَ غيرَ منعَّمٍ بِشَقَاءِ

جانس فى الآية بين " المنذرين والمنذرين" الأولى بكسر الذال والثانية بفتحها وجانس فى البيت بين " نهاك ونهاك " الأولى مفتوحة النون وهى فعل ، نهى بمعنى منع والثانية مضمومة النون ، النهى جمع نهية وهى العقل . وهذا جناس غير تام لاختلاف الكلمتين فى شكل الحرف الأول منهما .

هـ ـ الجناس المصحف: ما تماثل فيه اللفظان فى الخط وتخالفا فى النقط كقوله تعالى : "وَهُم يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يحسِنُونَ صُنعًا "(٢) وكقول أبى نواس :

---

(١) سورة الصافات : ٧٢ .

(٢) " الكهف : ١٠٤ .

مِن بحـــرِ عِلْمكَ أغْتَرِفُ   وبِفَضْلِ عِلْمِكَ أعْــتَرِفُ

د ــ الجناس المقــلوب: ما اختلف فيــه الحروف فى ترتيبها مثل قوله تعالى : " إِنِّى خَشِيتُ أن تَقُول فَرَّقت بَين بَنى إسْرائيل ".(١)

وكقول أبى تمــام:

بِيضُ الصّفائحِ لا سُودُ الصَّحائِفِ   فى مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَــبِ

الجناس فى الآيــة فى الكلمتين "بين و بنى " وأبو تمام جانس بين " الصفائح والصحائف " والجناس فى الحالتين غير تام لاختـــلاف كل من الكلمتين فى ترتيب الحروف .

وهذا النوع الذى تختلف فيه الحروف فى ترتيبها لم يذكره ابن المعتز وأورده أبو هلال فقال : " ومن التجنيس ضرب آخر وهو أن تأتى بكلمتين متجانستى الحروف، إلا أن فى حروفها تقديما وتأخيرا " (٢)

وجعله ابن رشيق من أنواع المضارعة الذى تتقدم فيه الحروف وتتأخر .(٣)

---

(١) سورة طــه : ٩٤ .

(٢) الصناعتين لأبى هلال العسكرى ،عيسى البابى الحلبى وشركاه ، تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٣٤٠.

(٣) العمدة : لابن رشيق ،مطبعة السعادة بمصر ،الطبعة الثالثـــة تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد : ٣٢٥/١.

نقد الجناس المصحف :

وهذا النوع من الجناس مبنى على الخط ، وأن الكلام الجيـــــد والقبيح لايمكن أن يكون الخط مقياسا أساسيا فيه ولذلك فإن ماذهب إليه ابن سنان الخفاجى فى هذا الشأن هو الصحيح يقول : "وهذا أقل طبقات المجانس ، لأنه مبنى على تجانس أشكال الحروف فى الخط وحسن الكلام وقبحه لايستفاد من أشكال حروفه فى الكتابة ، إذ لا علاقة بين صيغة اللفظ فى الحروف وشكله فى الخط ".(١)

مايلحق بالجناس :

يلحق بالجناس شيئان •

أ- جناس الاشتقاق : ويسمى أيضا جناس المشتق وهو ماتوافق فيه اللفظان فى الحروف الأصلية مع الترتيب والاتفاق فى أصل المعنى •(٢)

ومن أمثلته قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ(٣) • والجناس بين" أقم والقيم " وهما مشتقان من قام يقوم • ومثاله قول الله تعالى يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ(٤) "•

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده ، تعليق عبد المتعال الصعيدى : ٢٣٣ •

(٢) فن الجناس لعلى الجندى ، مطبعة الاعتماد بمصـــر • نشر دار الفكر العربى : ١٤٤ •

(٣) سورة الروم : ٤٢

(٤) سورة البقرة : ٢٧٦

ب ـ شبه الاشتقاق : ويسمى جناس المغايرة ويسمى أيضا تجانس الاطلاق ، والجناس المطلق .

وهو أن يتفق اللفظان في جل الحروف أو كلها على وجه يتبادر منه أنهما يرجعان إلى أصل واحد كما في الاشتقاق وليسا في الحقيقة كذلك .[1] ومثاله قوله تعالى : " قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ "[2]، الجناس في قوله " قال والقالين " وقد يتبادر إلى الذهن أنهما من أصل واحد ، ولكن الأول مشتق من القول والثاني من القلى ويعني البغض والترك فبينهما شبه الاشتقاق . ومثاله أيضا قوله : " وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ "[3]

---

(١) فن الجناس لعلي الجندي ، مطبعة الاعتماد بمصر ، نشر دار الفكر العربي : ١٢٣ .

(٢) سورة الشعراء : ١٦٨ .

(٣) سورة الرحمن : ٥٤

السجــــــع

في اللغــة :[١]

تعرض المعاجم اللغوية للسجع وتذكر أصله في اللغة وفـــي الاصطلاح . يقول الفيروزابادي : " السجع هو الكلام المقفى أو موالاة الكلام على روي " وجمعه أسجاع وأساجيع .

وسمي السجع سجعا تشبيها له بسجع الحمام . تقول العــرب سجعت الحمامة إذا دعت وطربت في صوتها . وفي المثل لا آتيك ما سجع الحمام . ويقولون سجعت الناقة إذا مدت حنينها على جهة واحدة . وسجعت القوس كذلك . قال الشاعر يصف قوسا :

وهْيَ إِذَا أَنْبَضْتَ فِيهَا تَسْجَعُ　　　تَرَنُّمَ النَّحْلِ أَبَاً لَا يَهْجَـــعُ

قوله تسجع يعني حنين الوتر لانباضه : كأنها تحن حنينا متشابهـا وكله من الاستواء والاستقامة والاشتباه . تقول سجع يسجع سجعـــا أي استوى واستقام وأشبه بعضه بعضا قال ذو الرمة:

قَطَعْتُ بِهَا أَرْضًا تَرَى وَجْهَ رَكْبِهَا　　　إِذَا مَا عَلَوْهَا مُكْفَأً غَيْرَ سَاجِـــعِ

أي جائرا غير قاصد . ووجه ركبها الوجه الذي يؤمونـــــه .

---

(١) القاموس المحيط ،الصحاح ،لسان العرب ، مختار الصحاح : مــادة سجع .

يقول الشاعر إن السموم قابل هبوبها وجوه الركب فاكفوها عن مهبها اتقاء لحرها .

في الاصطـــــلاح :

ويستمد تعريف السجع في الاصطلاح من المعنى اللغوى نفسه ومما ورد في تعريفه عند الجاحظ قوله : " الأسجاع الكلام المزدوج على غير وزن "[١] ويعرفه ابن سنان الخفاجي بقوله " ويحد السجع بأنـــه تماثل الحروف في مقاطع الفصول "[٢] ويقول القزويني : " هو تواطـــؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحـــد "[٣] ويوضح تعريفه بقولــــه : وهو معنى قول السكاكي : هو في النثر كالقافية من الشعر " . ويذكـر عبد الرحمن الأخضري تعريف القزويني السابق .[٤]

وكل هذا يسوغ ماذهبت إليه من أن المعنى الاصطلاحي مأخوذ من المعنى اللغوي . فالسجع في الكلام مجيء في فقرات قصيرة ذات كلمات مقفاة دون أن يخضع لقافية واحدة أو وزن واحد وفي هذا الاستـــواء

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشـــر تحقيق عبد السلام محمد هارون : ١٧٩/١ .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده تعليق عبد المتعال الصعيدي : ٢٠١ .

(٣) التلخيص في علوم البلاغة ، نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان . شرح عبد الرحمن البرقوقي : ٣٩٧ .

(٤) حلية اللب المصون على الجوهر المكنون ، نسخة مكتوبة باليد بجامعة الرياض تحت الرقم العام ٨٢٥٥٦ : ١٣٧ .

والاستقامة والاشتباه الذى رأيناه فى المعنى اللغوى . ومن هنا كانت التسمية للسجع لاشتباه أواخره وتناسب فواصله .

والسجع من الفنون البلاغية التى عرفها الجاهليون فكانت هناك تلبيات مختلفة وصيحات يهل بها الحجاج فى مزاراتهم الكثيرة القديمة ، وورد عن ذلك : " وهذه التلبيات كانت ولا ريب من الطقوس الدينية القديمة الخاصة بالقبائل ، وهى أبعد فى القدم من الكلام المسجوع لقس بن ساعدة الإيادى وغيره من البلغاء الذين عاشوا قبل الإسلام " .(١)
وأورد الجاحظ أن ضمرة بن ضمرة والأقرع بن حابس وغيرهم كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع .(٢)

وكان هناك نوع من السجع يعرف بسجع الكهان وهذا هو النوع الذى كرهه الرسول صلى الله عليه وسلم . وهناك نصوص حوت جيد السجع ومن ذلك خطبة قس بن ساعدة الإيادى(٣) بسوق عكاظ التى قال فيها :(٤)
"أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر ، وبحار

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : لمحمد ثابت الفندى وآخرين : ١١/٢٩٦ .
(٢) البيان والتبيين للجاحظ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، تحقيق عبد السلام محمد هارون : ١ : ٣٨ .
(٣) قس بن ساعدة الايادى خطيب العرب وشاعرها وحكيمها وحكمها فى عصره يقال أنه أول من علا على شرف وخطب عليه وأول من قال فى كلامه " أما بعد " . وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا . وأدركه رسول الله (ص) وسمع منه كلاما (مهذب الأغانى تصنيف محمد الخضرى الطبعة الثالثة ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١/١٦٣) .
(٤) جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده : ١/٣٨ وأنظر أيضا العقد الفريد لابن عبد ربه دار الكتاب العربى بيروت لبنان : ٢/١٢٨ .

تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة ، وإن فى السمـاء لخبرا ، وإن فى الارض لعبرا ، مابال الناس يذهبون ولا يرجعون . أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه : ان لله دينا هو أرضى له ، وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه ، إنكم لتأتـون من الأمر منكرا . ويروى أن قسا أنشأ بعد ذلك يقول :

فى الذَّاهبين الأولينَ من القُرونِ لنا بَصائرْ
لَمَّا رأيتُ مواردًا للموتِ ليسَ لها مصادرْ
ورأيتُ قومى نحوَها يمضى الأكابرُ والأصاغرْ
لا يرجعُ الماضى إلىّ ولا من الباقينَ غابرْ
أيقنتُ أنى لا محالةَ حيثُ صارَ القومُ صائرْ

ويروى أن هانىء بن قبيصة الشيبانى خطب يحرض قومه يـوم ذى قار فقال : " يامعشر بكر ، هالك معذور ، خير من ناج فرور . إن الحذر لاينجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره . الطعن فى ثغر النحور . أكرم منه فى الأعجاز والظهور . يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد "(١)

وقالت سفانة بنت حاتم الطائى بين يدى رسول الله (ص) :
" يامحمد هلك الوالد ، وغاب الوافد . فان رأيت أن تخلى عنى . فلا تشمت بى أحياء العرب ، فانى بنت سيد قومه . كان يفك العانى ، ويحمى الذمار ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم الطائى . فقال لهـا

---

(١) جمهرة خطب العرب : لاحمد زكى صفوت ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده : ١/٣٧ .

رسول الله (ص): ياجارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك اسلاميا لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق .(١)

وجاء فى القرآن نمط فريد من السجع ، نفض به تلك الأدران التى كانت عالقة به من سجع الكهان ، وأبعده عن التمويه والخداع والغش ، وجاء خاليا من التكلف والصنعة . وواجه بأسلوبه المعجز الذى يتصف بصدق المعنى وجمال الموسيقى كفار قريش ، وأفحم طغاتهم وجبابرتهم ، وسنتحدث عن ذلك إن شاء الله فى موضعه .

أقسام السجع:

يقسم البديعيون السجع إلى أقسام : مطرف ومتوازى ومرصع ومتوازن ومتماثل . ويراعون فى تقسيمهم هذا وجود التقفية والوزن العروضى وعدمه .

السجع المطرّف : أن تختلف الفاصلتان فى الوزن وتتفقا فى حروف السجع نحو قوله تعالى : " مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا "(٢)
ونحو قوله : " أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً وَالجِبَالَ أَوْتَاداً "(٣)

---

(١) جمهرة خطب العرب : لأحمد زكى صفوت ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده : ١/٣٧ .
(٢) سورة نوح : ١٣ و ١٤ .
(٣) " عم : ٦ و٧ .

السجع المتوازى : أن تتفقا وزنا وتقفية ولم يكن مافى الأولى مقابلا لما فى الثانية فى الوزن والتقفية يقول عبد الرحمن الأخضرى : "وهو أن تستوى الفاصلتان فى اللفظ ولم توافق سائر ألفاظ إحداهما ولا جله مايقابلها من أختها فى الوزن والتقفية "(١) ومن أمثلته قوله تعالى : " فِيهَا سُرُرٌ مرفوعةٌ وأكوابٌ موضوعةٌ "(٢) لاختلاف سرر وأكواب وزنا وتقفيـة • وقوله تعالى : " والمُرسَلاتِ عُرفًا فالعاصِفاتِ عَصْفًا ". (٣) لاختلاف المرسلات والعاصفات وزنا وتقفيـة •

السجع المتوازن : أن يتفقا فى الوزن دون التقفية نحو ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ".(٤)

السجع المرصع: أن يتفقا وزنا وتقفية ويكون مافى الأولى مقابلا لما فى الثانية يقول القزوينى : (٥) " وإن كان فى إحدى القرينتين أو أكثره مثل مايقابله من الأخرى فى الوزن والتقفية فترصيع • وذلك نحو قوله تعالى : " إنّ إلينَا إيابَهُمْ ثمّ إنّ علينَا حِسابَهُمْ"(٦) وقوله " إنّ الأبْرارَ

---

(١) حلية اللب المصون على الجوهر المكنون لعبد الرحمن الأخضرى • نسخة مكتوبة باليد بجامعة الرياض : ١٣٨•

(٢) سورة الغاشية : ١٣ و١٤•

(٣) المرسلات: الآيتان الأولى والثانية •

(٤) سورة الغاشية : ١٥ و ١٦ •

(٥) التلخيص للقزوينى نشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان شرح عبدالرحمن البرقوقى : ٣٩٨•

(٦) سورة الغاشية : ٢٥ و ٢٦•

لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ "[١] ونحو قول الحريري : فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه " .

السجع المماثل : أن يتساويا في الوزن دون التقفية وتكون أفراد الأولى مقابلة لما في الثانية فهو بالنسبة الى المرصع كالمتوازن بالنسبة إلى المتوازي نحو " وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ "[٢] فالكتاب والصراط يتوازنان وكذلك المستبين والمستقيم واختلفا في الحرف الأخير .

السجع في الشعر : التشطير :

ذكر السكاكي وغيره من البلاغيين أن السجع مختص بالنثر . ويرى آخرون أن هناك نحو من السجع يسمى التشطير[٣] يكون في النظم وهو جعل شطري البيت سجعة مخالفة لأختها كقول أبي تمام :

تَدْبِيرَ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ   لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَقِبِ

فإن سجع الشطر الأول مبني على الميم والثاني على الباء، فقد أعجب العرب من السجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم .

---

(١) سورة الانفطار : ١٣ و١٤ .

(٢) سورة الصافات : ١١٧ و ١١٨ .

(٣) التلخيص للقزويني ، نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، شرح عبد الرحمن البرقوقي : ٤٠٢ .

رد الأعجاز على الصدور

المعنى في اللغة: (1)

الأعجاز جمع ومفرده عجز بضم الجيم ، مؤخر الشيء يذكر ويؤنث . والصدور جمع واحده صدر ، وصدر كل شيء أوله وصدّر كتابه تصديرا جعل له صدرا .

يقول ابن منظور : العجز : مابعد الظهر ، والجمع أعجاز ، لايكسر على غير ذلك . وفي قول بعض الحكماء : لا تدبّروا أعجاز أمور قد ولت صدورها . يريد بها أواخر الأمور وصدورها ، يقول : إذا فاتك أمر فلا تتبعه نفسك متحسرا على مافات وتعزّ عنه متوكلا على الله عز وجل . قال ابن الأثير : يحرض على تدبّر عواقب الأمور قبل الدخول فيها ولا تتبع عند توليها وفواتها .

وعجز بيت الشعر خلاف صدره . ويقول الجوهري : العجز مؤخر الشيء يؤنث ويذكر وهو للرجل والمرأة جميعا والجمع الأعجاز ، والعجيزة للمرأة خاصة .

ويقول الجوهري عن معنى الصدر : الصدر واحد الصدور وهو مذكر وإنما قال الأعشى :

وَتَشْرَقُ بالقولِ الذِي قَد أذَعْتَهُ كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ القناةِ من الدَّمِ

---

(1) لسان العرب ، الصحاح ، مختار الصحاح ، القاموس المحيط .

وصدر كل شيء أوله ، تقول صدر المجلس وصدر المجلس .
وصدر السهم من وسطه إلى مستدقه وسمي بذلك لأنه متقدم إذا رمى .
ويقول ابن منظور : الصدر أعلى مقدم كل شيء وأوله ، حتى انه ليقولون صدر النهار والليل وصدر الشتاء والصيف وما أشبه ذلك مذكرا .

وصدر القناة في بيت الأعشى المتقدم هو أعلاها . وكل ما واجهك فهو صدر .

المعنى في الاصطلاح :

أول من تحدث عن رد الأعجاز على الصدور هو ابن المعتز ، وهو عنده رد الأعجاز على ما تقدمها [1] . قسمه إلى ثلاثة أقسام :
أولا : ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة من نصفه الأول ويمثل له قول الشاعر :

تَلقَى إذا ما الأمرُ كان عَرَمْرَما ... في جَيشِ رأيٍ لا يُفَلُّ عَرَمرمِ

ثانيا : ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة في نصفه الأول كقوله :

سَريعٌ إلى ابن العَمِّ يشتِمُ عرضَهُ ... وليسَ إلى دَاعي النَّدَى بسريعِ

---

(1) البديع لابن المعتز ، شرح وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكي : ٤٧ .

ثالثا : ومنه مايوافق آخر كلمة فيه بعض مافيه كقول الشاعر :

عَمِيدُ بنى سُلَيْمٍ أَقْصَدَتْهُ ... سِهَامُ الموتِ وهى لَهُ سِهَامُ

تأثر أبو هلال العسكرى بابن المعتز فجاء بتعريفه وساق أمثلة من أمثلته . وأفصح العسكرى عن قيمة التصدير بقوله : فأول ماينبغى أن تعلمه أنك إذا قدمت ألفاظا تقتضى جوابا فالمرضى أن تأتى بتلك الألفاظ فى الجواب ولاتنتقل عنها إلى غيرها مما هو فى معناها كقول الله تعالى : " وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سيئةٌ مثلُها "(١) ولا شك أن المثال الذى جاء به العسكرى هو مايعرف بالمشاكلة .

ويقول عبد الرحمن الأخضرى فى تعريفه : " أن يجعل أحد اللفظين فى أول الفقرة والآخر فى آخرها "(٢) ويمثل له بقوله تعالى : وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أحقُّ أنْ تَخْشَاهُ "(٣) وقول الشاعر :

سريعٌ إلى ابن العمِّ يلطمُ وجهه ... وليسَ إلى داعى النَّدَى بسريعِ

ويعرفه ابن أبى الإصبع بقوله : وهو عبارة عن كلام صدره وعجزه رابطة لفظية غالبا ، أو معنوية نادرا ، تحصل بها الملاءمة والتلاحم بين قسمى كل كلام ".(٤) ثم يذكر أقسام ابن المعتز الثلاثة على أنها

---

(١) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، عيسى البابى الحلبى وشركاه . تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٤٠٠ .
(٢) حلية اللب المصون على الجوهر المكنون ، نسخة مكتوبة باليد بجامعة الرياض : ١٣٧ .
(٣) سورة الأحزاب : ٣٧ .
(٤) بديع القرآن ، طبع ونشر مكتبة نهضة مصر بالفجالة : ٣٦ .

من الضرب الذى رابطته لفظية .[1] وأما النوع الذى رابطته معنوية فيمثل له بقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ".[2] ويقول عن ذلك ابن أبى الأصبع المصرى " فإن معنى صدر الكلام يناقض معنى عجزه ".[3]

وأما أسامة بن منقذ يسميه الترديد ويقول : (وأعلم أن الترديد وهو رد أعجاز البيوت على صدورها ،أو ترد كلمة من النصف الأول فى النصف الثانى ".[4]

وأما التعريف الذى ارتضاه المتأخرون فهو قول القزوينى : " وهو فى النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو الملحقين بهما فى أول فقرة والآخر فى آخره ".[5]

ويعنى القزوينى باللفظين المكررين ،المتفقين فى اللفظ والمعنى ،وبالمتجانسين المتفقين فى اللفظ دون المعنى ،وبالملحقين بالمتجانسين مايشمل الاشتقاق وشبه الاشتقاق فى الجناس .

---

(١) بديع القرآن ، طبع ونشر مكتبة نهضة مصر بالفجالة : ٣٧.
(٢) سورة المائدة: ١٠٥.
(٣) بديع القرآن ،طبع ونشر مكتبة نهضة مصر بالفجالة : ٣٧.
(٤) البديع فى نقد الشعر لأسامة بن منقذ ،مطبعة عيسى البابى الحلبى ، تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوى والدكتور حامد عبد المجيد : ٥١ .
(٥) التلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى ، نشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان شرح عبد الرحمن البرقوقى : ٣٩٢.

ومن أمثلة القزوينى قوله تعالى :"وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه " و " سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل " وقوله تعالى : " استَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا "[1] وقوله تعالى : " قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ من الْقَالِينَ ".[2] وتقسيمه له فى النظم لايخرج عما فعله ابن المعتز كقول الشاعر :

سريعٌ إلى ابن العَمِّ يلطَمُ وجهه ... وليسَ إلى داعى النَّدَى بِسرِيعِ

وقول الشاعر:

تَمَتَّعْ مِن شَمِيمِ عرارِ نجدٍ ... فما بعد العَشِيَّةِ مِن عَرَارِ

وقول الشاعر:

وَمَنْ كَانَ بالبِيضِ الكواعِبِ مُغْرمًا ... فما زِلتُ بالبِيضِ القَوَاضِبِ مُغْرَمَا

تداخل فنون البديع:

من ينظر فى دراسات العلماء للبديع يجد أنهم جعلوه أقساما كثيرة حتى تداخلت هذه الأقسام فى بعضها وتشابهت أمثلتها حيث أنها تكررت فى أكثر من فن من فنون البديع . ونود هنا أن نذكر شيئا يسيرا فى هذا الخلط بين فنون البديع .

---

(١) سورة نوح : آية ١٠ .

(٢) " الشعراء : آية ١٦٨.

الجناس والمشاكلــــة:

ذكرنا أن الجناس عند صاحب الجوهر :"اتفاق الألفاظ واختلاف المعانى"[١] وذكرنا أن المشاكلة لغة المماثلة واصطلاحا ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرا "[٢] وقد مثلنا لكل نوع .

لم ينكر المغربى صلة الجناس بالمشاكلة فهو يرى أن : تسميــــة المشاكلة . سواء أكانت تحقيقيــة أم تقديرية بديعا معنويا بالنظر إلـــى أن لها تعلقا بتلزم الصحبة بين اللفظين . والقصد بالذات الى تحســين المعنى المصاحب بالتعبير عنه بما يشاكل التعبير الآخـــر . ثم يقول ومن ينظر الى أن حاصلها اتيان لفظ مشاكل لآخر مع اختلاف معناهما يبحث بأنها لفظية كالجناس بين اللفظين .[٢]

ويجعل أبوالحسن على بن عيسى الرمانى[٣] أمثلة من المشاكلـة فى باب التجانس الذى يجعله من أنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحـد فى اللغة . وهو عنده على وجهين : مزاوجة ومناسبة . فالمزاوجة تقـع فى الجزاء كقوله تعالى : " فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْــهِ ".[٤]

---

(١) جوهر الكنز لابن الأثير الحلبى . نشر منشأة المعارف بالاسكندريـــة . تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٩٤ .

(٢) فن الجناس [illegible] نشر دار الفكر العربى : ١٠١

~~(٢) التلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى . نشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان . شرح عبد الرحمن البرقوقى : ٣٥٦ .~~

(٣) النكت فى اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) للرمانى . دار المعارف بمصـــر الطبعة الثانية : ٩٩ و ١٠٠ .

(٤) سورة البقـــرة : ١٩٤ .

والمناسبة عنده تدور فى فنون المعانى التى يجمعها أصل ، كقوله تعالى "ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ"(١) .

والرمانى يجعله أمثلة من المشاكلة للجناس بما يعنى بذلك مشاكلة الألفاظ لبعضها من غير اختلاف فى المعنى ، وعلماء البلاغة يجعلون اختلاف المعنى للجناس .

ويورد ابن سنان الخفاجى أيضا أمثلة من المشاكلة للجناس فى قوله عن الجنس : "وما ورد فى القرآن العظيم من هذا الفن قوله تبارك وتعالى : "ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم" وقوله تبارك وتعالى "يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار" وقوله عز وجل يمحق الله الربا ويربى الصدقات" ومن كلام النبى (ص) : عصية عصت الله وغفار غفر الله لها "(٢)

لاشك أن هناك صلة وتشابها بين المشاكلة وما يعرف بجناس الاشتقاق وشبه جناس الاشتقاق ، وهما -كما سبق أن عرفنا- يلحقان بالجناس .

الجناس والمطابقة :

المطابقة فى الكلام -كما سبق أن ذكرنا- هى الجمع بين الشىء وضده .(٣) وخالف قدامة بن جعفر فى ذلك اجماع البلاغيين ، وذهب

---

(١) سورة التوبة : ١٢٧ .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده تعليق عبد المتعال الصعيدى : ٢٣١ .

(٣) الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، عيسى البابى الحلبى وشركاه ، تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٣١٦ .

الى أن المطابق والمجانس داخلان في باب ائتلاف اللفظ والمعنى وعرف المجانس[1] بأن تكون المعاني اشتراكها في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق . ومن أمثلته قول مسكين الدارمي :

وأقطعُ الخَرْقَ بالخَرْقاء لاهيةً ... إذا الكواكبُ كانت في الدُّجى سُرُجا

وقول النعمان بن بشير لمعاوية بن أبي سفيان :

ألمْ تبتدركُم يومَ بدرٍ سيوفُنا ... وليلُك عمّا نابَ قومَك نائمُ

وهذا مايعرف بجناس الاشتقاق وشبهه .

وعرف المطابق بقوله :[2] " فأما المطابق فهو مايشترك في لفظة واحدة بعينها " ويوضح ذلك بقول الأفوه الأودي :

وأقطعُ الهوجلَ مُستأنساً ... بهوجلٍ عيرانةٍ عَنْتَريسْ[3]

فلفظة الهوجل ـ كما علما ـ قد اشتركت في معنيين ، الأول بمعنى الأرض والثاني بمعنى الناقة ، وهذا من الجناس عند قدامة . ولابن رشيق القيرواني حديث في هذا الخلط بين التجنيس والمطابقة سبق أن أشرنا اليه وهو قوله : " ومن ذلك أن يقع في الكلام شيء مما يستعمل للضدين كقولهم " جلل " بمعنى صغير و"جلل" بمعنى عظيم . فان باطنه مطابقة وإن كان ظاهره تجنيسا ، كذلك " الجون" الابيض ، و "الجون" الاسود ،

---

(١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر دار الكتب العلمية بيروت لبنان تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : ١٦٣ .

(٢) نفسه : ١٦٢ .

(٣) العنتريس : الناقة الغليظة الوثيقة ـ حاشية نقد الشعر : ١٦٢ .

وما أشبه ذلك ".(١)

لم يسلم قدامة من معارضة البلاغيين مثل ابن رشيق والآمدى وابن سنان الخفاجى . وينقل لنا ابن سنان معارضة الآمدى والأخفش فيذكر أن الأخفش(٢) سئل عمن يزعم أن الطباق اشتراك المعنيين فى لفظ واحد . فقال : من هو الذى يقول هذا ؟ قيل له : قدامة . فقال هذا هو التجنيس ، ومن زعم أنه طباق فقد ادعى خلافا على الخليل والأصمعى . ثم قال ابن سنان معلقا : " فاتفق الأخفش والآمدى على مخالفة أبى الفرج ".(٣)

ويقول ابن رشيق : " المطابقة عند جميع الناس ، جمعك بين الضدين فى الكلام أو بيت شعر ، إلا قدامة ومن تبعه فإنهم يجعلون اجتماع المعنيين فى لفظة واحدة مكررة طباقا . وسمى قدامة هذا النوع الذى هو المطابقة عندنا : التكافؤ ، وليس بطباق عنده إلا ما قدمت ذكره ، ولم يسم التكافؤ أحد غيره وغير النحاس فى جميع من علمته ".(٤)

---

(١) العمدة لابن رشيق ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الثالثة ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد : ١٢/٢ .

(٢) هو أبو الحسن على بن سليمان الاخفش .

(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده . تعليق عبد المتعال الصعيدى : ٢٣٤ .

(٤) العمدة لابن رشيق ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الثالثة ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد : ٧/٢ .

ويرى ابن رشيق أن هناك من يختلط عليه الطباق فى حالة النفى مثل قول البحترى :

يُقيّضُ لى من حيثُ لا أعلمُ الهوى
ويَسْرِى إلىّ الشوقُ من حيثُ أعلمُ

فيقول : فهذا مجانس فى ظاهره ، وهو فى باطنه مطابق ، لأن قوله : " لا أعلم " كقوله " أجهل " وقد جاء فى القرآن الكريم " هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون " . وقال جرير : " أتصحو أم فؤادك غير صاح " فقوله غير صاح نقيض " أتصحو " لو لا أنه استفهام لم تعلم حقيقة محصوله بعد ، إلا على مذهب من جعل " أم " بمعنى " بل " فكأنه قال لنفسه : بل فؤادك غير صاح ، فناقض الصحو ودخل كلامه فى المطابقة .(١)

من هذا كله نصل إلى أن هناك من يخلط بين الجناس والطباق ويجعل الجناس التام طباقا ، مثل بيت الأفوه الأودى الذى أنشده قدامة على أنه طباق .

رد الأعجاز على الصدور والجناس والمشاكلة :

يعرف القزوينى رد العجز على الصدر فيقول : " وهو فى النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أوالمتجانسين أو الملحق بهما فى أول

---

(١) العمدة لابن رشيق ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الثالثة ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد : ٢/٧ .

الفقرة . والآخر فى آخرها "(١) ومثل لذلك بعدة أمثلة .

ويخرج من تعريفه وأمثلته أن ذلك يشمل فنونا أخرى من البديع . فالمشاكلة تظهر فى قوله تعالى " وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ "(٢) والجناس فى مثاله : سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل . فسائل الأولى من السؤال والثانيــة من السيلان . وجناس الاشتقاق فى قوله تعالى : " اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا "(٣) وشبه الاشتقاق مثاله قوله تعالى : " قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ".(٤)

---

(١) التلخيص للقزوينى نشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان شرح عبد الرحمن البرقوقى : ٣٩٣ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٧.

(٣) " نوح : ١٠ .

(٤) " الشعراء : ١٦٨.

الباب الثاني

فنون البديع في القرآن

أثره ونصاعته

الفصـــــل الأول

المحسنـــــات المعنـــــوية

١ـ الطبـــاق

فكرة التضاد ، ميدان فسيح ، بعيد غوره ، عجيب حسنـــه ، به يظهر الضد ضده ، ويقرب معانيه للأفهام ويجعله أكثـــــر وضوحا ولصوقا .

لقد استعمل القرآن هذا الأسلوب فى درجة رفيعة لاتضارعهـــا درجة أخرى لشاعر أو كاتب أو غيرهما . وإن المتدبر لأسلوبه يجـــد أن المعنى يجلو المعنى واللفظ يتعلق باللفظ فى غير تكلف أو تعســـف . وتجول آيات الطباق فى هذا المجال لالتنميق الكلام وزخرفته ، بل تـــرد فى استعمال يرتضيه العرق اللغوى لبيئة العرب فى أصوات اللغـــة وصيغها ومفرداتها وجملها . وترسم بذلك معالم الطريق يستهدى بهـــا السائرون . ومن ذلك تلك المعانى العقدية التى تفرده سبحانه وتعالـى بالألوهية والكمال . فأى هدف يرجى من أسلوب الطباق أن يحققه بعـــد ذلك ؟! وأما الأداء فهو محكم تتجلى فيـــه روعة البلاغـــة والبيان المعجز .

ولم يكن أمراً إلا أن أبين ما اختص به أسلوب الطباق مـــــن ايضاح للفكرة وجمال فى الأداء وقوة فى التأثير واصابة للمعنى .

ايضاح الفكرة : تقع الفكرة فى الطباق فى أسلوب القرآن موقعها وتنـــزل

منزلها فانظر إلى قوله تعالى : " قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ "(١)

الآية تتجلى فيها مظاهر الربوبية وعمق القدرة الإلهية • إنها العقيدة التى أقام الإسلام عليها بناءه محولا مفاهيم الجاهلية وموازينها المتصدعة البالية إلى مفاهيم وموازين تتحكم فيها العقيدة السليمة •

فى الآية طباق فى مواضع : " تؤتى وتنزع " و " تعز وتذل" و " الليل والنهار" و "الحى والميت " ولم يرد الطباق فى ألفاظ لا علاقة لها بما حولها • بل جاء بأفكار واضحة • تحمل معانى ثرة غنية لا تكلف فيها ولا إقحام فى ألفاظها ، وفى أحلى عبارات لها وقع فى النفس أسمى من كل عبارات تشرحها وأعلى من كل بيان يجليها •

ورد الطباق لأسباب تقتضيها المعانى ، الله سبحانه وتعالى يؤتى الملك من يشاء ، يملكه ويسلطه على غيره ، وينزع الملك ممن يشاء وهو سبحانه المتصرف فى شئون خلقه يعطى وينزع عن حكمة ومصلحة وخير • يقول الطبرى : " تعز من تشاء باعطائه الملك والسلطان وبسط

---

(١) سورة آل عمران : ٢٦ و ٢٧ •

القدرة له ، وتذل من تشاء بسلبك ملكه وتسليط عدوه عليه ".[١]
وهكذا تقرر الآية حقيقة تصدق على جميع الخلق ،الإيتاء والنزع
والعز والذل ، ذلك كله بيد الله وهو وحده القادر عليه والمتصرف
فى الأكوان .

جمعت الآية الكريمة بين الضدين لبيان قدرة الله فى أوسع
معانيها ، فقضت بأن الله يقدر على الأمرين معا " يؤتى وينزع"
ويعز ويذل ، ويعاقب بين الليل والنهار ، ويتصرف فى الحى والميت
فيخرج كل واحد منهما من الآخر ، ومنذ البدء قررت الآية ملكية
الله وهيمنته على كل شىء " قل اللهم مالك الملك " وهذا ملك
عام وشامل ، وأما الملكان الآخران " تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع
الملك ممن تشاء " خاصان فى ملك الله ، فهو لايعجز عن شىء ،
وقد يستطيع غيره أن يعز ولكنه يعجز عن الإذلال وبهذا يكون
ناقصا فى قدرته غير شامل فى سلطانه ، والله وحده هو القادر
على كل ذلك يقول الزمخشرى : " من مقدرته على تلك الأفعال العظيمة
المحيرة للأفهام ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده
فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب
ويعزهم ".[٢] وهو هنا يشير إلى ماذكره فى سبب نزول الآية من أن
المسلمين قد وعدوا بفتح بلاد الفرس .

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن للطبرى ، مصطفى البابى الحلبى وشركاه ،
الطبعة الثالثة : ٣/ ٢٢٢ .

(٢) الكشاف للزمخشرى طباعة باكستانية طهران ١/ ٤٢٢.

ويقول الطبرى : فهو يعطى من يشاء بغير حساب لأنه لايخاف دخول النقص فى خزائنه ، ولا الفناء على مابيده ، "(١)

هذه اللوحة المتناسقة التى تصور القدرة الإلهية التى تضفى لآلئها صورة مافيها من البراعة والإعجاز البلاغى ، جمعت من الخصائص الفنية التى تعجز عن مثلها قدرة البشر ، لابد أنك قد لاحظت الملاءمة بين اللفظ والمعنى فى قوله : يولج الليل فى النهار" ، إتقان فى اللفظ وحسن اختيار ، وإبداع فى المعنى فى أحسن صورة ، جزالة فى اللفظ وأسلوب سلس معجز ، حوت الآية استعارة عجيبة وهى إدخال شىء فى شىء آخر ، يقال يولج أى يدخل ، وولج فلان منزله أى دخله ، فهو يلجه ولجا وولوجا ولجة وأولجه أنا أى أدخلته ، ولفظ الإيلاج فى الآية أبلغ لأنه يفيد إدخال كل من الليل والنهار فى الآخر فى ممازجة لطيفة .

وفى قوله تعالى " تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل " بجانب الطباق مايعرف فى علم البديع برد العجز على الصدر ، وجاء التكرار فى الجمل للتفخيم والتعظيم كقوله تعالى " تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء " وورد الإيجاز بالحذف فى قوله تعالى " تؤتى الملك من تشاء ... الخ ، أى من تشاء أن تؤتيه ، ومن تشاء أن تنزعه ، ومثل ذلك يقال فى تعز وتذل .

---

(١) جامع البيان للطبرى ، مصطفى البابى الحلبى وشركاه الطبعة الثالثة : ٣/٢٢٧ .

ان من يفهم معانى الطباق فى الآيـة ويدرك أسلوبـه ومراميه يتبين له مافيه من الإعجاز ، فان هذه الأضـداد المتناسقة المتكاملة التى تبرزها الآية فى أكمل صورة وأسمى معنى لاتدع مجالا لأحد "أن يدعى أنه هو الذى يصنع فى هذا شيئا ، ولايزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير ، وإنما هى حركة خفية هائلة تديرها يد القادر المبدع اللطيف الخبير"(١)

وتتميز الآيات بمخاطبتها للعقل والقلب معا ، توجه العقل ليلتفت إلى القدرة الإلهية الرائعة ، وتستحوذ القلوب والافئدة بهذه الصور التى تبدو من خلال الحوادث الرهيبة المتعاقبة ، تصور الآية حركة دائبة ملك يرتفع وآخر يهوى ، وطول فى الليل والنهار وقصر ، واخراج للحى من الميت وللميت من الحى ، كل ذلك ينتظمه سلك واحد فيه من أسرار الاعجاز القرآنى مافيه ، .

ويظهر تجلى الربوبية أيضا فى قوله تعالى : " لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ ومَا فِى الأَرْضِ وإِن تُبْدُوا مَافِى أَنفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ "(٢)

ومما لاشك فيه أن معرفة الله سبحانه وتعالى أصل فى كل شىء ، الله هو المالك لما فى السموات والأرض والمطلع على مافيهن ، وهو يعلم مافى القلوب ماتعلنه وماتضمره ، يصور ذلك الطباق فى قوله " تبدو وتخفوه " وفى ذلك تحذير من عقاب الله وعذابه ، يقول تعالى إن أظهرتم

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب ، دار الشروق ، الطبعة الشرعية الخامسة : ٣/١٧٠ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٤ .

مافى أنفسكم من السوء أو أضمرتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه ، يعفو عمن يشاء ، ويعاقب من يشاء ، وهو القادر على كل شيء .

ويتكرر المعنى فى قوله تعالى : " قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَافِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَافِى السَّمَوَاتِ ومَافِى الأرْضِ واللَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ".(١)

ورد فى تفسير الآية: "إن أخفيتم مافى قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لاتخفى عليه خافية ".(٢)

الآيتان تبينان أن الله عالم بجميع الأمور وعلمه محيط بكل شىء ، فلا يغيب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا يخفى عليه سر أو علن ، يعلم كل حادث فى السموات والأرض . وبيان ذلك فى الآية الثانية قوله تعالى : "يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وماعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَو أَنَّ بينَهَا وبينَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ واللَّهُ رءوفٌ بالعِبادِ ".(٣)

وفى قوله تعالى : " والله على كل شىء قدير " بيان لقدرته تعالى على العقوبة والانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره .

---

(١) سورة آل عمران : آية ٢٩ .

(٢) صفوة التفاسير : للصابونى ، دار القرآن الكريم بيروت : ١٩٦/١ .

(٣) سورة آل عمران : آية ٣٠ .

هكذا يأتى الطباق فى الآيتين مقترنا بتحذير من الله تعالى لئلا نكون فى غفلة من أمرنا • كل انسان ينال جزاءه حاضرا لايغيب ان خيرا فخير وان شرا فشر • وان كان عمله حسنا فرح به وسر منه ، وان كان سيئا تمنى أن يكون بينه وبين عمله أمدا بعيدا •

ويأتى بعد ذلك ليبين قيمة أسلوب الطباق ومايرمى اليه من معان فى نهاية الابداع وقوة التأثير •

أنت أمام مشهد يرفع الاستار عن حقائق يوم القيامة فى تعبير شائق حى مؤثر ، يبين فيه منهج الله فى التربية القرآنية • ويتركز المنهج فى عبادة الله وحده والنهى عن عبادة غيره • ان قضية الألوهية والعبودية هى قضية الانسان الأولى والأخيرة • لذا كانت وصية الله الخالدة لعباده والتى حملها رسله اليهم فى قوله تعالى : " يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ " .(١)

ولما كانت العقيدة مسألة أساسية للانسان يحاسب عليها ، جاءت التربية فى القرآن تطالب الانسان بأن تكون علاقته بربه دائمة وفى كل لحظة من لحظات حياته فيعرف الله حق المعرفة ويسعى الى طلب رضاه واجتناب سخطه ويستقيم على صراطه المستقيم ويؤمن أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان • وان مايخفى ومايبدى يعلمه الله فان أمهله فلن يهمله وانما يؤخره الى الآخرة دار القرار ولهذا ينبغى عليه أن يترقب ذلك اللقاء

---

(١) سورة الاعراف : الآيات ٥٩ و ٦٥ و ٧٣ و ٨٥ •

لينال الخير الذى يضفى جو البهجة والسرور على نفســـه . ولايجعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمــه فيتلاشى من عمله الإبداع ويصـــلأ شريط حياته بالنقاط السوداء .

ويندرج تحت هذا المعنى قوله تعالى : " وَأَعْلَمُ مَاتُبْدُونَ ومَاكُنْتُمْ تَكْتُمُونَ "(١) وهذا معنى توخاه القرآن ليقلل به من أسباب النفـــاق لتعيش النفوس فى طمأنينة وسكينة وتقيم منها حارسا وقيما عليها . وتخشــى الله فى سرها وعلنها يقول رشيد رضا " والذى يبدونه هو مايظهـــــر أثره فى نفوسهم وأما مايكتمونه فهو مايوجد فى غرائزهم وتنطوى عليـــه طباعهم "(٢) الطباق هنا يزيد التعبير قوة ووضوحا بجمعه بين الضدين (الابداء والكتمان) . وهو هنا يحيط بالمعنى من جميع الوجوه ويوصـــد الباب أمام المنافق فى تعبير موجز فى النفس تستشعر به مراقبة الله .

وهكذا يستخدم القرآن أسلوب الطباق مبينا مبدأ أساسيا فـــى العقيدة الإسلامية يقول تعالى : فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ "(٣) يدعــو إلى الايمان بالله وطاعته . ويوجه كلامه لعباده للتأمل فى عظمـــة الله وقدرته . وبهذا تربط الآية بين الفكر والقلب والوجدان بتأثيرهـــا القوى النفاذ . فالله لاتخفى عليه خافية فى السموات والأرض . وهو يطلع على مافى الغيب . وبهذا يكون الطباق قد جاء بالمعنى المراد كاملا ووضحه .

---

(١) سورة البقرة : آيــة ٣٣ .

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا . دار المنار بمصر الطبعة الرابعة: ١/٢٦٤.

(٣) سورة البقرة (المائدة) : من الآيــة ٤٤.

ويبلغ القرآن أيضا قمة التأثير ونهاية الإبداع حينما يصـــور فى أسلوب الطباق حال الكفار والمنافقين المنحرفين عن طريق الاستقامة والسداد . إن أعمالهم لاتقوم على الإيمان مادامت ضمائرهم غير صالحة . فحرى بهؤلاء أن يخاطبهم الله خطاب استنكار . تأمل هذه الآيـــة الكريمـــة ، يقول تعالى : " أَوَلَايَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مايُسِرُّونَ وَمَـــا يُعْلِنُونَ ".(١)

طابق الآيـــة الكريمـــة بين قوله : " يسرون ويعلنون " فترسم بذلك طورا من أطوار البشرية ابان حيرتها بين الهداية الجديدة وبين التقاليد القديمة لأنها تبدأ بقوله تعالى : " وإِذَا لَقُوا الذِين آمنُـوا قَالُوا آمَنَّا وإِذَا خَلَا بعضُهمْ إلى بعضٍ قَالُوا أتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فتحَ اللَّـــهُ عليكمْ ليُحَاجُّوكمْ بِهِ عندَ ربكمْ أفَلَا تَعْقِلُونَ ".(٢)

يقول الزمخشرى والصابونى : إذا اجتمع المنافقون بأصحاب محمـــد قال المنافقون من اليهود آمنا بأنكم على الحق وأن محمدا هو الرســـول المبشر به وإذا انفردوا واختلى بعضهم إلى بعض قالوا عاتبين عليهـــم أتخبرون أصحاب محمد بما بين الله لكم فى التوراة من صفة محمد عليـــه السلام لتكون الحجة للمؤمنين عليكم فى الآخرة فى ترك اتباع محمد مـــع العلم بصدقه فيرد عليهم موبخا " أو لا يعلمون أن الله يعلم مايســـرون ومايعلنون ".(٣)

---

(١) ســورة البقرة : آية ٧٧ .

(٢) " " " ٧٦ .

(٣) الكشاف . للزمخشرى طباعة باكستانية طهران : ٢٩١/١ .

هذا حال المنافقين دائما مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء لايظهرون حقيقتهم ولذا وبخهم الله سبحانه وتعالى وانكر عليهم هـــذا التلون والنفاق،وبين لهم أن الله عالم بما يظهرون ومايسرون •

وفى موضع آخر نرى مدرسة القرآن ينصب اهتمامها على السلـــوك الأخلاقى لتهذيب المسلم وتكسبه المعارف والمعلومات لتنمية المجتمـــع الإسلامى على الحق وأسلوب العدل ليقول تعالى : " وَيَسْأَلُونَكَ عَـــنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " •(١)

وهذه صورة أخرى من صور الطباق فى " المصلح والمفسد " جـــاء فى الذروة العليا فى الإعجاز الذى بلغ المنتهى • فالمصلح هو من يأتـــى بالإصلاح عملا والمفسد هو من يأتى بالإفساد فعلا • وكلاهما ظاهـــر حاله • والمعنى كما يقول الفراء : " الله يعلم أيهم يفسد وأيهم يصلح "(٢)

أيقظ الله القلوب بذكر علمه واطلاعه على العمل،لتتذكر جزاءه عليه فتراقبه فيما خفى وظهر من أعمالها ،لعلها تأمن مزالق الشهـوة والهوى • أن النفس كثيرة الطمع ، تحدث صاحبها بأكل مال اليتيم • ولا عاصم لها من ذلك إلا مراقبة الله تعالى وتقواه • ولم يكل الله أمـــر اليتامى إلى القرابة وعاطفة الأخوة وإنما أحاطها بسياج متين ، فهو يعلـم ماتضمر القلوب من قصد الإصلاح لهم أو الإفساد ، فيأمرهم بمراقبتـــه فى أعمالهم ونياتهم وهو سيحاسب على مثقال من الذرة مما يعملونـه •

---

(١) ســـورة البقرة : من الآيـــة ٢٢٠ •

(٢) معانى القرآن للفراء ،عالم الكتب بيروت الطبعة الثانيــة:١/ ٢٥ •

الأداء : تتوجه المعاني في كتاب الله إلى استعمال اللغة بكيفية يرتضيها العرف اللغوي الخاص بالبيئة العربية في مفرداتها وجملها وأصواتها وصيغها • وأود أن أسوق أمثلة توضح ما أقول وتؤيد ما ذهبت إليه من أن أسلوب التضاد في الطباق يؤدى معاني لاتتم بغيره •

فإذا ألقينا نظرة إلى قوله تعالى : " لَهَا مَاكَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ "(١) نجد الطباق الحقيقي وطرفاه " لها وعليها " وهما حرفان •

المطابقة بين " اللام وعلى " تفيد أن في اللام معنى المنفعة وفي على معنى المضرة • الله سبحانه وتعالى لاينتفع بعمل الخير ولا يتضرر بعمل الشر، بل كل يعود إلى صاحبه • يقول الدسوقي : " لأن " اللام " تشعر بالملكية المؤذنة بالانتفاع " وعلى " تشعر بالعلو المشعر بالتحمل أو الثقل المؤذن بالتضرر فصار تقابلهما أي " اللام وعلى " كتقابل النفع والضرر وهما ضدان فكأنه قيل لها ماكسبت من الطاعات فلا ينتفع بطاعتها غيرها وعليها عقاب ما اكتسبته من المعاصي فلا يتضرر بمعصيتها غيرها "•(٢)

والضمير في " لها " و " عليها " يعود للنفس التي سبقت في قوله : " لايكلف الله نفسا الا وسعها " • والكلام على حذف مضاف هو " ثواب " في الأولى و " عقاب " في الثانية • وما الأولى تدل على الخير والثانية تدل على الشر فكأنه قيل : " ولها ثواب ماكسبت من الخير وعليها عقاب ما اكتسبت من الشر •

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦•

(٢) حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص) ، عيسى البابي الحلبي وأولاده بمصر : ٢٨٨/٤ •

وفى " كسبت " و"اكتسبت " طباق معنوى ، خص الله فيه الخير بالكسب والشر بالاكتساب ، لأن كسب فى الخير واكتسب فى الشر قال سيبويه كسب أصاب واكتسب تصرف واجتهد .[1] وحكى الأخفش عن ابن جنى تخصيص كسب للخير واكتسب للشر .[2] ويذكر ابن جنى علة ذلك فيقول : " معنى كسب دون معنى اكتسب لما فيه من الزيادة ، وذلك أن كسب الحسنة ، بالاضافة إلى اكتساب السيئة ، أمر يسير ومستصغر ، وذلك لقوله عز اسمه : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، أفلا ترى أن الحسنة تصغر باضافتها إلى جزائها ، ضعف الواحد إلى العشرة ، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها لم تحتقر إلى الجزاء عنها ، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة ، فإذا كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه إلى هذه الغاية ، عظّم قدرها وفخّم لفظ العبارة عنها ، فقال : " لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " فزيد فى لفظ فعل السيئة ، وانتقص من لفظ فعل الحسنة كما ذكرنا ".[3]

هذه نظرة قصد منها ابن جنى أن يميط اللثام عما فى اللفظين من اللطائف والأسرار . ويلاحظ أنه لايمكن زيادة حروف "اكتسب" على "كسب" سببا لاستعمالها فى الشر . والرأى الذى يستأهل أن يركن إليه هو ما قاله أبو يعقوب المغربى : " وعبّر بالاكتساب فى جانب الشر لأن الافتعال يؤذن بالتعمل والتكلف بالتطلب والنفس فى طلب المعصية

---

(١) لسان العرب مادة كسب .

(٢) معجم متن اللغة مادة كسب

(٣) لسان العرب مادة كسب .

المقتضية للشر لاتخلو من شهوة فلعلها فى المعصية تعمل وتطلب "[١]
وبمثل هذا يقول أبو السعود فى تفسيره [٢] .

فى ذلك اشارة إلى ماجبلت عليه النفوس من النزوع نحو السوء
من العمل يقول تعالى : "إن النفس لأمارة بالسوء" وانها فى تحصيل
السوء أعمل وأجد ولذلك جعلت مكتسبة فيه . ولما لم تكن مثل ذلـــك
فى جانب الخير استعمل الصيغة المجردة من الاعتمال ، فوصفت بما لا دلالة
له فى الاعتمال .

فمن لطف الله سبحانه وتعالى أن قال : "لايكلف الله نفســـا
إلا وسعها " وأعقب ذلك بقوله "لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت" أى أن
" كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ"[٣] ينفعها ماكسبت من خير ويضرهـــا
ما اكتسبت من شر ولا يؤخذ بذنبها غيرها . فالآية مرغبة وزاجـــرة
فى آن واحـــد . ترغب فى كسب المنافع والمحافظة عليها ، وتحذر من الاخلال
بما كلفت به . واقتصار المضرة على فاعلها من أشد الزواجر عن مباشرته .

ولنقف بعد ذلك وقفة أمام قوله تعالى : "وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ
بِالمَعْرُوفِ "[٤] لنرى روائع الجمال البيانى لأسلوب الطبــاق .

---

(١) مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص لأبن يعقوب المغربى ، عيسى البابى
الحلبى وأولاده بمصر : ٢٨٩/٤ .
(٢) تفسير أبى السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٤٢٨/١ .
(٣) سورة المدثر : آية ٣٨ .
(٤) " البقرة : آية ٢٣٨ .

الطباق حقيقي طرفاه حرفان كالآيـة السابقة ومثله قول مجنون ليلى :

عَلى أنَّنِي راضٍ بأنْ أحْمِلَ الهَوى وأخْلُصَ مِنهُ لا عَلَيَّ ولا لِيَا

الشاهد في " عليّ "/مع اللام في قوله " ليا " • وعلى الأولى بمعنى مع، الثانية
والمعنى أنه تحمل مايوجب مدحه ،ولكنه يرضى بأن يخلص منه ،وليس عليه ذم ولا له مدح •

جاءت المقابلة في الآية في أسلوب لطيف محكم في عباراته في دقة في التركيب وإيجاز نزلت كل كلماته منازلها بحيث لو أزيلت من موضعها واستبدلت بغيرها لما تهيأ هذا الكمال البلاغي ، ولما أصبنا هذه الطريقة الصحيحة من طرق الأداء وفي التعبير مايعرف بالاحتباك ، فقد حذف من الأول بقرينة الثاني ومن الثاني بقرينة الأول • والمعنى : لهن على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق •

وبهذا تحدد الآيـة العادلة في الحقوق بين الرجل والمرأة ،وتقضي بالمساواة بينهما إلا في أمر واحد عبر عنه القرآن بقوله : " وللرِّجالِ عليهِنَّ دَرَجَةٌ " (١) • الحقوق متبادلة متكافئة • ولاتكون الحياة سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه ومن ثم أثر عن ابن عباس أنه قال : إني لأتزين لامرأتي كما تتزين هي لي لهذه الآية •

وإذا جعلت الآية لكل من الرجل والمرأة حقوقا يؤديها للآخر ،فهذا

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨ •

(٢) " المائدة : من الآية ٢ •

لايمنع أن يساعد كل منهما الآخر فى عمله حين الضرورية ويرشد إلى ذلك قوله : "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ". (١)

اصـــابة المعنى :

لايعنى الإتيان ببعض الامثلة كدليل على إصابة المعنى المتعين فى القرآن ،أن الأمر قاصر على مايرد من آيات ،بل القرآن كله معـــان دقيقة . وله أسلوب لايفصح إلا عن المعنى المراد . والبحث عن أسرار الجمال فى القرآن ومعرفة أدائه لمعانيه يزيد من الإحساس بروعتـــه ووقوعـه فى النفس. وهذا أساس قوى يرسخ العقيدة فى النفـــس ويمكنها ،ويولد الإيمان ويزيد فى إقوائه فى أعماق النفس البشرية .

وأسلوب الطباق فى القرآن صفحات مشرقة وضاءة ترتفع بالبديع الـى ميدان البلاغة ولا يجعلها تختص بعلمى المعانى والبيان كما يرى السكاكى اذ يقول : "واذ تقرر أن البلاغـة بمرجعيها وأن الفصاحة بنوعيهـــا مما يكسو الكلام حلة التزيين ،ويرقيه أعلى درجات التحسين فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا مايصار اليها لقصد تحسين الكلام . فلا علينا أن نشير الـى الأعرف منها ،وهى قسمان : قسم يرجع الى المعنى ،وقسم يرجع الـــى اللفظ ". (٢)

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٢ .

(٢) مفتاح العلوم للسكاكى ،مصطفى البابى الحلبى وأولاده ،الطبعة الاولى : ٢٢٠ .

هذا النص ــ فيما يبدو لى ــ كان سببا أساسيا فى جعل البديع بمعزل عن البلاغة . أنظر إلى كلماته "وإذ تقرر أن البلاغة بمرجعيها" ويعنى بذلك المعانى والبيان ، ثم أنظر إلى قوله "فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها". وهذا التعبير يعنى أنه لاغضاضة من أن يتحدث أو يشير إلى بعضها ، فهى ليست من الأهمية بمكان . ولما جاء بدر الدين ابن مالك جعل البلاغة فى ثلاثة علوم هى المعانى والبيان والبديع وعرف البديع بقوله : "معرفة توابع البلاغة من طرق الفصاحة"(١) وقال فى موضع آخر "هو معرفة توابع الفصاحة".(٢) وبهذا نجد أن البديع لايعد من صميم البلاغة . ولكن مادام قد ثبت لدينا أن البديع فى القرآن جاء لغرض وغاية فى أسلوب معجز فحسبنا ذلك دليلا وبرهانا أنه فى موضع ومنزلة من البلاغة ليست دون منزلة المعانى والبيان .

وبالتأمل فى أمثلة الطباق فى القرآن كقوله تعالى : "وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا"(٣) نرى أن الطباق تستقر معانيه فى القلب ونفس ألفاظه كالمصابيح . وهيهات هيهات لمعارضة فى الأرض أن تزيد على ماجاء به القرآن . لاسبيل إلى إيجاد أمر ثالث يضاف إلى الخوف والطمع .

إنه مشهد كونى رائع ، فى كلمات تمتاز بحيويتها وجمالها وإيقاعها ودلالتها ، وتعبر عن نفس الإنسان وما فيها من انفعال وتفكير ، فى معان تجرى الأمر كله لله وحده مخاطبة القلب البشرى الغافل عن الخطاب الكونى . وهذا سر من أسرار الإعجاز فى القرآن باق إلى الأبد .

---

(١) المصباح لبدر الدين بن مالك الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية : ٤٠.

(٢) نفسه : ٧٥ .

(٣) سورة الروم : ٢٤

وذكر هنا أيضا من محكم التنزيل قوله تعالى : فى وصف المؤمنين " أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ "(١) وهذا مما يلحق بالطباق .
يقول التفتازانى : إن الجمع فيه بين معنيين يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق مثل السببية واللزوم .(٢)

ومعنى ذلك أنه من المعلوم أن الرحمة لا تقابل الشدة وإنما يقابلها الفظاظة ، والشدة يقابلها اللين . ولكن السر فى جمال النظم يكمن فى العدول عن لفظ اللين المقابل للشدة ، ليتم تأليف الكلام فى سبك جيد بليغ يحيط بالمعنى من جميع الوجوه . فالرحمة فى المعاملة راجعة إلى القلب فى أساسها . ولا تنبعث من الطبع الشديد والخلق الصعب . ولذا كان لفظ اللين لا يقوم مقامها ولا يستوفى معانيها استيفاء . ولأجل ذلك قوبل فى الآية بين معنيين هما الشدة والرحمة . والتعلق بينهما تعلق السببية ، أى أن الرحمة مسببة عن اللين المقابل للشدة ".(٣)

جاء التعبير ـ كما نرى ـ يتلاءم مع طبيعة المؤمنين فى كلمات حسية صورت جانبا عاطفيا فى كلمات خارجة عن الصناعة اللفظية فى طريقة أدائها وطريقة التعبير بها . وجاءت الألفاظ مؤتلفة متمكنة من المعنى فى أسلوب لا ينازعه أسلوب آخر .

---

(١) سورة الفتح : من الآية ٢٩ .
(٢) مختصر التفتازانى (ضمن شروح التلخيص) ، عيسى البابى الحلبى وأولاده بمصر : ٤/٢٩٤ .
(٣) ملخص من كلام شراح التلخيص ، عيسى البابى الحلبى وأولاده بمصر: ٤/٢٩٤ .

ومن هذا النوع قوله تعالى : "وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "(١) . ذكر الليل والنهار وهما ضدان ثم قابلهما بضدين وهما الحركة والسكون على الترتيب . فان ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادة للسكون والعدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل لأن الحركة ضربان حركة لمصلحة وحركة لمفسدة والمراد الأولى لا الثانية (٢) . يقول الزركشى " فعدل عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل لكون الحركة تكون للمصلحة دون المفسدة ". (٣)

وانفرد التعبير بـ " ابتغاء الفضل " بالقاء ضوء ساطع على حركة الانسان ذات الصلة الشديدة بالله دون غيرها ، لتكون حركته فى ظلال من الإيمان . واستدعى هذا الأمر المعين العدول عن لفظ الحركة ليعطى المشهد قيمته التصويرية الفنية التى تتحقق بالحركة المعدول عنها مع إضفاء صفة المنفعة على التعبير .

ومن الطباق الخفى قوله تعالى : "مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ".(٤) طابقت الآية بين أغرقوا وأدخلوا نارا . فهو كما ذكرنا من

---

(١) سورة القصص : آية ٧٣ .

(٢) الإيضاح (ضمن شروح التلخيص) للقزوينى ، عيسى البابى الحلبى وأولاده بمصر : ٢٩٧/٤ .

(٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر الطبعة الثانية تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم : ٣/ ٤٥٦ .

(٤) سورة نوح : آية ٢٥ .

الطباق الخفى لما يشعر به الإغراق من الماء المشتمل على البرودة غالبا ويشعر به إدخال النار فى حرارة النار • يقول أبو تمام :

مَهَا الوَحْشِ إلاّ أنَّ هَاتَا أوانِسٌ   قَنَا الخَطِّ إلاّ أنَّ تِلْكَ ذَوَابِـــلُ

لما فى هاتا من القرب وتلك من البعد •

وجمعت الآية بين معنيين يتعلق أحدهما بما يقابل الآخـــر تعلق لزوم/ تعبير أبى يعقوب المغربى : " لأن إدخال النار يستلزم الإحـــراق المقابل للإغراق لاستلزام أحدهما توقد النار والآخر إطفاءها ".(١)

التأثـــير النفسى :

لقد اجتمع للقرآن من الخصائص مالم يجتمع لكتاب غيره ولن يجتمع ذلك لكتاب بعده • ومن هذه الخصائص تأثيره البليغ فى النفوس التى شرح الله صدرها للإسلام قال تعالى : " الله نزل أحسن الحديـــث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلـــين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله • ذلك هدى الله يهدى به مـــن يشاء • وَمَن يضْلِل اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ "(٢) وقال تعالى : " إنّمَا المُؤمِنُونَ الذين إذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلتْ قلوبُهُمْ وإذَا تُلِيتْ عليهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُـــمْ إيمانًا وعلى رَبِّهِمْ يَتَوكّلُونَ ".(٣)

---

(١) مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) لأبى يعقوب المغربى • عيسى البابى الحلبى وأولاده بمصر : ٢٩٥/٤ •

(٢) سورة الزمـــر : ٢٣ •

(٣) سورة الأنفال : ٢ •

هذه آيات يومن فيها القرآن صنيعه فى النفوس • فالقــرآن ينفرد بتناسقه الإيقاعى ، وللنغم فيه سحر وجمال جذاب تتجــاوب أصداوءه فى أعماق النفس شديدة التأثير • ومن خلال هذا التنغيم الموءثر يرسم القرآن لوحات كاملة فى أفكار منسجمة لتوءدى أغراضــا وأهدافا تتجلى فيها الحكمة الإلهية للمتدبر لمعانى القرآن وأساليبـه وأود هنا أن أدلى بدلوى فى محاولة لكشف الغطاء عن حقيقــة هذا النوع من الجمال فى أسلوب الطباق ، وأن أميط اللثام عمــا ينطوى عليه من اللطائف والأسرار وذلك فى آيات قليلة اكتفى بالاستعانة بها فى ذلك •

إذا تأملت قوله تعالى : " فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْــهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْــرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ "(١) نجد فى الآية ما يعرف بطباق السلب فى قولـه يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " • وبهذا الطباق تقرر الآيــة حكما من الأحكام الشرعية ولا تقف فيه موقفا جامدات متعنتا ، منفرا للنفوس ، وإنما اقتضت حكمة الله تعالى أن يجمع إلى الحكم الشرعى ما تتآلف بــه القلوب ويسكن عواطفها فتشعر بالطمأنينة وتعيش هادئة مستريحة شاكــرة لله تعالى ما أسبغه عليها من نعم حيث أباح لها فى حالة المرض والسفر الفطر فى شهر رمضان على أن تقضى أيام الافطار بعد الشفــاء من المرض أو بعد انتهاء مدة السفر • وهذا مثل رائع من الأمثلة الدالة

---

(١) سورة البقرة : من الآيـــة ١٨٥ •

على مرونة الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان . فلا عسر ولا إرهاق ، ولا حرج ولا تضييق ولا جمود يقول تعالى : " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ "(١) وليس أدل على سماحة الإسلام ومراعاته لقدرة الإنسان وطاقته من قوله تعالى : " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا "(٢) .

ومثال آخر وهو قوله تعالى : " وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ".(٣)

طابقت الآية بين قوله "أموات" و "أحياء" وورد التعبير بإيجاز الحذف . أى لا تقولوا هم أموات بل أحياء .

وفى دقة التعبير ودلالته تلمس الدلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى . تخاطب الآية المؤمنين وتذكر لهم فضل الشهادة فى سبيل الدعوة إلى الحق والدفاع عنه . وفى ذلك تحريك للنفوس وترغيب للشهادة فى سبيل الله . فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ولكننا لا نشعر بحياتهم إذ ليست فى عالم الحس الذى يدرك بالمشاعر . وإننا لا نعرف حقيقتها ولا حقيقة الرزق الذى يكون فيها . فذلك كله فى عالم الغيب الذى نؤمن به ونفوض الأمر فيه لله وحده .

---

(١) سورة الحج : من آية ٧٨ .

(٢) " البقرة : من آية ٢٨٦ .

(٣) " البقرة : ١٥٥ .

٢ـ المقابلــــة

إذا أردنا مزيدا من التعمق فى دراسة إعجاز البديع فـى القرآن بعد دراستنا للطباق ، فلابد أن نواصل البحث فى المقابلـة ، فهى تتلاقى مع الطباق ، وهى فى الوقت نفسه امتداد لصوره ، وبلاغتها تأتى من أنها سبب من أسباب وفاء المعنى وتمام الغـرض ، وإن موضوعاتها فى القرآن تثير فينا الإحساس بالجمال .

التناسـق والترابـط:

انفرد القرآن بتناسق كلماته وانسجام معانيه ، ولايستخدم تعبيرا فيه غرابة أو نشوز عن المعنى ، وفى أسلوب المقابلة يحتفـظ القرآن بتناسقه الفنى وارتقائه فوق غيره من الأساليب ، يقول اللـه تعالى : " الذِى جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِراشًا والسَّماءَ بِناءً وأنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقًا لكم فَلا تَجْعَلُوا للَّهِ أنْدادًا وأنـْتُمْ تَعْلَمُونَ ".(١)

المقابلة فى قوله تعالى : " الأرض فراشا والسماء بناء " وفـى ذلك تركيبان يمتاز كل منهما بوحدته الإيقاعية ، وأنت إذا تدبـرت التركيبين لاتلبث أن يأخذ بلبك هذا التساوق فى النظم والتناسق فـى التأليف ، إن طريقة القرآن فى عرض المعانى بجعل الأرض فراشا والسماء بناء من أهم مظاهر الترابط والتناسق بين معنى المقابلة .

---

(١) سورة البقرة : ٢٢ .

لقد جعل الله الأرض فراشا ومهادا وجعلها على وجه ينتفع بها الخلق فى نومهم وتقلبهم كما يتقلب الإنسان على فراشه وبساطه . قال البيضاوى : " صارت مهيأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط وذلك لايستدعى كونها مسطحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لايأبى الافتراش عليها ".[1] وفى هذا رأى صريح للبيضاوى يدل على معرفته لكروية الأرض .

ثم أتبع الله سبحانه وتعالى جعل الأرض فراشا بنعمة جعل السماء بناء كالقبة المضروبة أو كالسقف للبيت . ونشأ عن ذلك كله علاقة وارتباط بين المعنيين .

تقول فرش الشئ يفرشه فراشا أى بسطه ، وأصل البناء وضع شئ على شئ آخر بحيث يتكون من ذلك شئ بصورة خاصة . وهو مصدر سمى به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء أو طرافا . ومن ذلك جاءت صورة متماسكة للأرض المستقرة الهادئة الصالحة للاقامة بها مع السماء البناء التماسك بسنة الجاذبية حتى لاتقع على الأرض ولا يصطدم بعضها ببعض إلى اليوم الموعود . إنها صورة اجتمعت لها خصائص الجمال الفنى فى هذا التناسق التصويرى البديع فى السماء المرفوعة ، والأرض المسطحة وفى كل ذلك تتجلى قدرة الخالق المبدع ، ويبين لنا أثر التركيب اللفظى على المعنى وتوضيحه .

---

(١) تفسير البيضاوى : مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت لبنان : ١/١٠٨ .

وتلتقي صورة المقابلة مع صورة أخرى فيزداد المعنى سموا وارتقاء حين نشاهد الماء ينزل مدرارا من هذا البناء المتماسك على ذلك الفراش المبسوط فيخرج به ثمرات مختلفا ألوانها وأشكالها فيقول عز وجل "وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون". يقول ابن كثير : " والمراد به السحاب هيهنا في وقته عند احتياجهم اليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ماهو مشاهد رزقا لهم ولأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن ".(١)

وتورد آية أخرى صاعدنا على رؤية التماسك والترابط بين معنى المقابلة ، ولنا بعد ذلك أن نقيس كل آية ورد فيها هذا اللون من ألوان البديع : "يقول تعالى: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "(٢)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمران لاينفصلان . إن اجتماع الأمرين حتم في نفس الداعية إلى الله ، ولايمكن لداعية اسلامي أن يلتزم أحدهما ويترك الآخر . ولأجل ذلك لزم أن يقترنا في الآية الكريمة لتقوم طائفة من المؤمنين للدعوة إلى الله للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ، إذ أن الخير المدعو إليه لايعدو أن يكون أمرا بالمعروف أو نهيا عن المنكر .

---

(١) تفسير ابن كثير ، دار إحياء التراث العربي بيروت: ٥٧/١ وتيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ، الطبعة الثانية بيروت: ٣٢/١ .

(٢) سورة آل عمران: آية ١٠٤ .

والمعروف ما أمر به الشرع ويستحسنه العقل السليم والمنكر مانهى عنه الشرع واستقبحه العقل السليم .[١] وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية في الإسلام ولذلك ختم الله تعالى الآية بقوله : " وأولئك هم المفلحون " فقد خصهم الله بالفلاح دون غيرهم . ويروى أن النبي (ص) سئل وهو على المنبر من خير الناس ؟ قال : آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم.[٢] وعنه عليه الصلاة والسلام : " من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه "[٣] وعن علي رضي الله عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له .[٤]

وهذا يشير إلى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويبين أن الإسلام يحرص عليهما وينزلهما أفضل المنازل وفي ذلك يقول الله تعالى " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " فأمة محمد خير الأمم ، وبينت الآية السبب في وجه الخيرية وهو القيام بواجب الدعوة إلى الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

(١) صفوة التفاسير : للصابوني ، دار القرآن الكريم بيروت : ١/ ٢٢٧ .

(٢) الكشاف: ١/ ٤٥٢

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

وملخص هذا الكلام أن القرآن يرسم المقابلة رسما دقيقا بحيث تتآلف أجزاؤها فى دقة متناسقة . وهذا التناسق يجعل الفكرة منسجمة انسجاما أبديـــا .

التر‍ت‍ي‍ـــب:

ذكرنا أن ابن رشيق يرى أن المقابلة الصحيحة ينبغى أن يراعى فيها الترتيب ، فيعطى أول الكلام مايليق به أولا وآخره مايليق به آخـــرا . ويجب ألا نغفل هذا الشرط الذى اشترطه ابن رشيق لأنه يقوم على طريقة من طرق الأداء تساعد على ترتيب الأفكار فى الذهن ترتيبا معقـــولا .

فإذا ذهبت تتبين ذلك فى القرآن الكريم رأيته يسلك ســـلك الترتيب الذى يجعل الجمع بين الأفكار ميسورا . أنظر إلى قوله تعالى : " كُتِبَ عليكم القِتالُ وَهُو كُرهٌ لكُم وعَسَى أنْ تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكُـــم وعَسَى أن تُحِبُّوا شيئاً وهُو شرٌّ لكُم واللَّهُ يَعْلَمُ وأنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ".(١)

يقابل القرآن بين الكراهية والحب وبين الخير والشر . ويجرى ذلك فى ترتيب ونسق يتعلق فيه الكلام بما قبله . فالنفوس قد تكـــره شيئا وفيه كل النفع وقد تحب شيئا وفيه كل الخطر والضرر. "فالقتـــال ـ وإن كرهتموه ـ فهو خير لأن فيه إما الظفر والغنيمـــة أو الشهادة والأجر . ولعل فى تركه ـ وإن أحببتموه ـ شرا لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر . والله يعلم عواقب الأمور وأدرى بما فيه صلاحكم فى دنياكم وآخرتكم فبادروا إلى مايأمركم به ".(٢)

---

(١) سورة البقرة : آيـــة ٢١٦ .

(٢) صفوة التفاسير : للصابونى ، دار القرآن الكريم بيروت : ١٣٧/١ .

ويقول تعالى : " إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ".(١) وهنا أيضا ترتيب يؤيد ما ذهب إليه ابن رشيق وجاءت المقابلة فيه رائعة وبديعة . فقد قوبلت الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح لتصوير موقفين من المواقف النفسية التي يقفها أعداء الله حيال أحبائه . إنهم يفرطون في معاداتهم فيحسدونهم على كل خير يأتيهم مهما كان الخير بسيطا قليلا ويفرحون لما يلم بهم من الشدائد والمصائب وإن عظمت . وفي وصف الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة جاء في حاشية الكشاف : " يمكن أن يقال : المس أقل تمكنا من الإصابة ، وكأنه أقل درجاتها فكأن الكلام والله أعلم : إن تصبكم الحسنة أدنى اصابة تسؤهم ويحسدونكم عليها ، وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحدّ الذي يرثي الشامت عنده منها فهم لا يرثون لكم ولا ينفكون عن حسدهم ولا في هذه الحالة بل يفرحون ويسرون والله أعلم ".(٢)

واقتضت رحمة الله سبحانه وتعالى أن يرد التعبير واصفا الضر بالمس في مقابلة أخرى حيث يقول : " وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ".(٣)

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٢٠ .

(٢) حاشية الشريف الحسيني الجرجاني (هامش الكشاف) طباعة باكستانية طهران : ٤٥٦/١ .

(٣) سورة يونس : ١٠٧ .

وجاء التعبير بالمس هنا مبينا رحمة الله الواسعة بنبيه ومشيرا إلى أن الضرر وإن خف فلا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى • ثم يجئ الطرف الثانى لتكتمل المقابلة ، فالله يصيب بفضله من يشاء من عباده ولا راد لفضله •

وحينما نعرض للترتيب فى المقابلة فى أسلوب القرآن نرى أن ذلك يحقق قوة فى المعنى وانسجاما • ونشأ عن ذلك أنغام موسيقية منبثقة من ذلك الكلام المتوازن •

وفاء المعنى وتمام الغرض :

أسلوب المقابلة فى جملته يساعد فى إيضاح الفكرة وإصابة المعنى ، ولا يستحق أن يوصف بالجودة مالم يستوف المعنى المطلوب ويعين الغرض المراد بيانه • وإن المتدبر لآيات القرآن يجد المقابلة ترد استجابة لقوة المعنى دون تكلف أو تعمل • يقول تعالى: "إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"(١) •

وردت المقابلة فى الآية لغاية سامية وهدف نبيل • والمعنى إن أراد الله نصركم فلا يمكن لأحد أن يغلبكم وإن أراد خذلانكم وترك معونتكم فلا ناصر لكم • ومهما وقع لكم من النصر كيوم بدر ، أو من الخذلان كيوم أحد فبمشيئة الله سبحانه وتعالى.وإن قوله تعالى " فمن ذا الذى ينصركم من بعده " تضمن من المنافع والمحاسن مالا

(١) سورة آل عمران : ١٦٠ .

يحققه التعبير " فلا ناصر لكم من بعده " أولها أنـه سبحانه وتعالى نبه الأذهان — بهذا الاستفهام — إلى أن الأمر جميعه لله وحده ، بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان ولذا وجب أن يلجأ المؤمنون إليه وأن يعتمدوا عليه يقول الزمخشري: "فهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه " .(١) وثانيها أنه سبحانه وتعالى يجيء بتعبير يمس شغاف القلوب ويحرك الوجدان ويلفت العقول ويدعوها للتفكير والفهم السديد ، لتسد مافيها من ثغرات وفجوات وتزيح عن طريقها كل شبهة تحول دون نسبة النصر والخذلان إلى الله وقدرته . ثالثها أنه سبحانه وتعالى يحذر من المعصية ومايستوجب العقوبة بالخذلان رابعها أنه يرغب في عمل الطاعات والتوكل على الله خامسها أن الآية رسمت منهجا أخلاقيا ، ومن يتدبرها يتبين له أنها أشارت إلى كمال قدرة الله سبحانه وتعالى وقضت بأن يختص وحده بالعبادة .

ويقول تعالى: " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ "(٢) جاءت المقابلة في قوله " فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة " صورة الإبعاد عن النار وإدخال الجنة في صورة بارعة مليئة بالحركة . وأنت تعرف أن الزحزحة تعني التنحية والإبعاد وتكرير الزح وهو الجذب بعجلة . فلو أبدلت هذا التعبير بقولك "فمن أبعد عن النار"

---

(١) الكشاف: للزمخشري ، طباعة باكستانية طهران: ٤/٤٧٥ .

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥.

فانك لن تجد تلك الروعة وذلك الجمال الذى تحدثه الحركة المذكورة وما يصاحبها من صوت، فلا شك أن القرآن جاء بتعبير نابض بالحياة ثم ذكر المولى عز وجل أن من نحى عن النار وأدخل الجنة "فقد فاز" بالنعيم السرمدى وأما ذلك الذى تعلق بأهداب الدنيا وركن إليها يقول له الله سبحانه وتعالى: "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور وفى ذلك يقول ابن كثير "الآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة ".(١)

ولابد لنا من ذكر الأمثلة ليزداد الأمر وضوحا . يقول تعالى: " فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ".(٢) جاءت المقابلة بصيغة الأمر ويراد به الخبر فنالت الحسن والشرف من هذا الاتفاق من معنييها اللذين أوجزت فيهما حياة الذين يقترفون المعاصى فى الدنيا بأنهم سيضحكون قليلا فى هذه الحياة وسيبكون كثيرا فى الآخرة يقول ابن عباس: " الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا ". وهذا معنى يبهر النفس وتحضرها عند قراءته مهابة تحيط بها من أقطارها .

ومن المقابلة التى حوت حسنا قوله تعالى: " مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ".(٣) وأول ما ينبغى ملاحظته

---

(١) تيسير العلى القدير لاختصار ابن كثير لمحمد نسيب الرفاعى ، الطبعة الثانية بيروت: ١/٣٤٣ .

(٢) سورة التوبة : آية ٨٢.

(٣) " هود : آية ٢٤.

هنا أن الآية لم تجمع بين الأعمى والبصير وبين الأصم والسميع لتكون المقابلة بين كل لفظ وضده . ومنا ينشأ سؤال هام هل جاءت المقابلة وفق ترتيب خاص وعلاقة وارتباط بين المعنيين ؟ وهذا مبدأ على جانب من الأهمية من ناحية الوضوح والبيان ، وقد ركز عليه القرآن الكريم تركيزا كبيرا . نجد التوازن في جميع تعابيره بتحقيق ذلك الترتيب وتلك العلاقة بين الأفكار . وخلاصة القول أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر انفتاح البصر أعقبه بانفتاح السمع .[1] ومثال ذلك ماقاله أبو الطيب في مدح سيف الدولة :

وَقَفْتَ وَمافِى المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ	كَأَنَّكَ فِى جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً	وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

ويروى أن سيف الدولة قال لأبى الطيب: لم لا ركبت نصف البيت الثانى على الأول وعكسه فقلت:

وقفت ومافى الموت شك لواقف	ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة	كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقال له المتنبي:[2] أيها الأمير، البزاز يعرف جملة الثوب والقزاز يعرف تفصيله . وتفصيل هذين البيتين أنى لما ذكرت الموت فى صدر البيت الأول أعقبته بذكر الردى فى آخره ليكون ذلك أحسن مقابلة .

---

(١) جوهر الكنز لابن الأثير الحلبى . نشر منشأة المعارف بالاسكندرية . تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٨٥ .

(٢) نفسه : ٨٦ .

وانتقد هذا الكلام صاحب جوهر الكنز فقال: " هذا كلام ليس بجيد ، وذلك لأن الردى هو الموت فما فى ذلك مقابلة . وإنما الصواب أن يقال ، لما ذكرت الوقوف فى صدر البيت الأول قابلته بالمنام ولما ذكرت وجه الجريح المنهزم وهو عبوس حزين قابلته بوجهك الوضاح وثغرك الباسم لتتم المقابلة ".(١)

قصدت بذلك أن أبين أننا إذا كنا قد استحسنا الترتيب ومراعاة العلاقة بين المعنيين فى أسلوب المقابلة ، فإننا بقليل من التأمل يمكننا أن نلاحظ وجودها فى الآية السابقة . فهى تمتاز بطابع أسلوبى قد لا يبادر إلى الذهن فهمه من أول وهلة . ولكنه نمط فريد فى التنسيق والتأليف بين أجزاء الكلام .

---

(١) جوهر الكنز لابن الأثير الحلبى . نشر منشأة المعارف بالاسكندرية ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام : ٨٦ و ٨٧ .

٣ ـ المشاكلة

ونود الآن أن نسير في رحلة نتنسم فيها عبير الآيات ونرتع في ربوعها . وحسبنا أن نلم منها بلمحات مضيئة تلقي بعض الضوء على طريقة القرآن وأسلوبه في المشاكلة . إنها طريقة فريدة ترتبط فيها الألفاظ والمعاني في توازن يرضي العقل بحكم المعاني ويشبع النفس بجميل المباني .

أنظر في آيات المشاكلة في القرآن لترى كيف يحقق القرآن مايريد من المعاني من خلال الألفاظ المكررة . يقول تعالى : وإِذَا لَقُوا الذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمنا وإِذَا خَلَوْا إِلى شَيَاطِينِهِمْ قَالوا إنا معكم إنما نَحْنُ مُستَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَستهزِئُ بِهِمْ وَيمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ ".(١)

اللفظ المشاكل به في الآية : "يستهزئ" ولكن لا يجوز على الله الاستهزاء في الحقيقة . لأنه صفة قبيحة مذمومة ، ولا تصح إلا على من تليق به الأفعال . ويستحيل على الله سبحانه وتعالى ذلك . المقصود أن الله يجازي هؤلاء المنافقين على استهزائهم. يقول القاضي عبد الجبار : " وإنما أراد أنه يعاقبهم على ماوقع منهم من الاستهزاء بالرسول (ص) ، لأنه قد ثبت في اللغة أنه قد يجري اسم الشيء على ماهو جزاء له ، كما يجري اسم الجزاء على الفعل، ولذلك قالوا الجزاء بالجزاء ، ولذلك قال عز وجل : " وَجَزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُهَا "(٢) فقد سمى جزاء السيئة سيئة ليشاكل بها لفظ السيئة السابق وإن كان مايفعله تعالى ليس سيئة .(٣)

---

(١) سورة البقرة : ١٤ و ١٥ .
(٢) " الشورى : آية ٤٠ .
(٣) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ، دار التراث القاهرة : ٥٦/١ و ٥٧ .

إن أمواج بحر معاني القرآن المتلاطم متجانسة هما لطبيعة الموضوع . فعندما تتدبر الآية الكريمة تهمن لك طريقة القرآن العجيبة في الرد على نفاق المنافقين في أسلوبه المعجز . وتتجلى حكمته في إعادة الكلمات وفق حكمة بديعة وطريقة رائعة ينقلها إلى مرحلة أخرى فقوله تعالى : " الله يستهزئ بهم " أي ينتقم منهم ويعاقبهم ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم "فسمى العقوبة باسم الذنب".[1] وهذا مذهب من مذاهب العرب في كلامها . وأسلوب من أساليبها . يقول القرطبي " وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له في معناه ".[2]

تقول العرب في كلامها الجزاء بالجزاء والأول ليس بجزاء وإنما جاء على سبيل المشاكلة ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم :[3]

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَينَا   فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

القرآن الكريم في الآية السابقة يتهكم على الكفار ويحقر من شأنهم ويصغرهم ويزري بهم ، ويذكر الزمخشري أن هذا المعنى جزل وفخم ويخرج ■■ زيادة على ذلك بفائدتين فيقول : " وفيه أن الله عز وجل يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء ،

---

(١) تفسير القرطبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الثالثة : ٢٠٧/١ .

(٢) نفسه .

(٣) عمرو بن كلثوم من جشم بن حبيب بن عمرو بن تغلب وأمه ليلى بنت مهلهل أخي كليب . قصته مع عمرو بن هند مشهورة . وهو شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات العشر (مهذب الأغاني تصنيف محمد الخضري الطبعة الثالثة مطبعة الاستقامة بالقاهرة : ٢٠٧/١) .

ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل . وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاما للمؤمنين ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله ". (١)

لا شك أن طريقة القرآن لا مثيل لها على الاطلاق ، فإذا كان الكفار قد قالوا : إنا معكم مستهزئون " فالقرآن يقول " الله يستهزئ بهم" ولم يقل " مستهزئ بهم " لأن " يستهزئ " يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت — قاله الزمخشري.(٢)

وردت آيات كثيرة تسير على هذا النمط كقوله تعالى : "تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ" (٣) جاء قوله تعالى : تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك " على سبيل المشاكلة وهو من فصيح الكلام . يقول ابن كثير في معنى الآية : وقيل تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك ، وقيل تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه ، وقيل تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد ".(٤) ويقول الشريف المرتضى : أي تعلم غيبي وما عندي ولا أعلم غيبك ".(٥)

أطلقت النفس في الآية على ذات الله لوقوعها في صحبة " نفسي" المراد بها سيدنا عيسى عليه السلام . وقد حسن هذا الكلام لأنه جاء مشاكلا لبعضه يقول الشريف المرتضى . وإنما حسن أن يقول عن نبيه

---

(١) الكشاف للزمخشري ، طباعة باكستانية طهران : ١/١٨٧ .

(٢) نفسه .

(٣) سورة المائدة: ١١٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ، دار احياء التراث العربي بيروت : ٢/١٩٥ .

(٥) أمالي المرتضى ، طباعة دار الكتاب العربي بيروت لبنان : ١/٢٢٦ .

ولا أعلم مافى نفسك من حيث تقدم قوله " تعلم مافى نفسى " ليزدوج الكلام ولهذا لا يحسن إبتداء أن يقول : " أنا لا أعلم مافى نفس الله تعالى ، وإن حسن على الوجه الأول ".(١)

ومما جاء على سبيل المشاكلة قوله تعالى : " فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ "(٢) ظاهر الآية أمر بالفساد والاعتداء ، ولكنه معاذ الله أن يكون هذا هو المراد ، إن الله سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده الفساد فى الأرض، وقد هاجم القرآن فى كثير من آياته الفساد والمفسدين، ودعا إلى الرحمة فى المعاملة، وقد بعث الرسول (ص) ليتمم مكارم الأخلاق، ومدحه الله سبحانه وتعالى بقوله " وإنك لعلى خلق عظيم ، فلا يستقيم عقلا بعد ذلك أن نحكم على الآية بالظاهر ، فالمقصود من قوله " فاعتدوا عليه " المجازاة والانتصاف فى المعتدى فأجرى اسم الاعتداء على جزاء الاعتداء ، والقصاص كما يقول القرطبى - لا يكون اعتداء لأنه حق وجب.(٣) والاعتداء قبيح فلا يجوز أن يأمر به الله وإنما أجرى اسمه على مايقابله من الجزاء .

مثال الآية السابقة قوله تعالى : " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ "(٤) يقول فى ذلك القاضى عبد الجبار : وهو مجاز لأن مايفعله العبد لا يكون عقابا فى الحقيقة(٥)

---

(١) أمالى المرتضى ، طباعة دار الكتاب العربى ببيروت لبنان : ١/٣٢٦ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٤ .

(٣) تفسير القرطبى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وشركاه الطبعة الثالثة : ١/٢٠٨ .

(٤) سورة النحل : ١٢٦ .

(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن : للقاضى عبد الجبار طبع المطبعة الجمالية بمصر : ٢٠٠ .

أى أنه أطلق العقاب وأراد به الجزاء كقوله تعالى : " وجزاء سيئة سيئة مثلها " فإن سيئة الأولى إثم وذنب وسيئة الثانية جزاء وعقاب . " فالمراد به الجزاء على السيئة وذلك مشهور فى اللغة . ولذلك قال تعالى بعده : فمن عفا وأصلح فأجره على الله . والمراد بذلك : من عفا عن السيئة ولم يقابل بمثلها ولا كافأ عليها . ولذلك قال بعده : "ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل " فبين أنه إذا انتصر وقد ظلم فلا سبيل عليه . ولو كان مافعله سيئة لما صح ذلك ".(١)

هناك آيات أخرى جاءت على طريقة المشاكلة . يجئ اللفظ فيها ليفيد معنى آخر لا ينافى الحقيقة الثابتة التى تنزه الله سبحانه عن كل مايتوهمه المتوهمون من الشوائب . يقول تعالى " وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً "(٢) فلا يصح المكر على الله فهو صفة مذمومة والمراد إنزال العقاب بهم وهم لا يشعرون ومثاله قوله تعالى : " وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ "(٣) فسمى عقاب الله لهم مكرا على طريقة المشاكلة — أى مشاكلة مكر الكفار . الله سبحانه وتعالى بهذا الأسلوب يروع الكفار ويشتد فى تعنيفهم وتخويفهم وأنهم سينالون جزاءهم فى غاية من الشدة يقول الرمانى : " أى جازاهم على مكرهم فاستعير للجزاء على المكر اسم

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن : للقاضى عبد الجبار ، طبع المطبعة الجمالية بمصر : ٣١٤ و ٣١٥ .

(٢) سورة الرعد : آية ٤٢ .

(٣) سورة الانفال : آية ٣٠ .

المكر لتحقيق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم "(١)

في قصة سيدنا صالح مع ثمود يقول الله تعالى: "وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"(٢) فأراد الله سبحانه وتعالى أن ينجي نبيه صالحا من قومه الذين عزموا على قتله، من حيث لا يشعرون فناسب أن يجئ التعبير مشاكلا لما عزموا عليه وهو المكر، والمراد أن الله سبحانه وتعالى أنزل العقاب عليهم، ولذلك أعقب الآية بقوله تعالى: "فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ".(٣)

ويقول تعالى "قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ"(٤) أراد الله أنهم قابلوا نعمة بالكفر، ويبين ذلك صدر الآية: "وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا" ثم أعقب ذلك بآية المكر، فهم قد أنعم الله عليهم بعد مس الضر بهم فقابلوا نعمه بالكفر والتكذيب فقال تعالى "قل الله أسرع مكرا" وأراد أسرع عقابا فأجرى اسم المكر على العقاب توسعا حيث أنه وقع عليهم وهم لا يشعرون يقول القاضي عبد الجبار: "يدل على أنه أراد بما تقدم

---

(١) النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) للرماني دار المعارف بمصر الطبعة الثانية : ٩٩.

(٢) سورة النمل : آية ٥٠.

(٣) " النمل : الآيات ٥١ _ ٥٣.

(٤) " يونس : من الآية ٢١.

العقوبة ، لأنه ذكر عقيبه مايدل على أن جميع مكرهم ومعاصيهم مكتوب معروف لكي لا يجازوا عليه إلا بمثله ، ولو كان الله تعالى يمكر في الحقيقة ، ويفعل الظلم والقبيح لم يكن لهذا القول معنى ".(١)

وذكر الله مايدل على أنه يصرف عن الإيمان فقال تعالى : " ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ "(٢) .

إن الآية ليس فيها مايدل على أنه صرفهم عن الإيمان أو غيره من الأفعال ويقول القاضي عبد الجبار : " فلا يجوز إلا أن يحمل على أن المراد به ، فلما انصرفوا عاقبهم الله على انصرافهم ، فسمى العقوبة عليه باسمه ، كما قال : " وجزاء سيئة سيئة مثلها " وقالت العرب : الجزاء بالجزاء ، والأول ليس بجزاء ، إلى غير ذلك من الشواهد في الشعر وغيره ". (٣)

يجعل الرماني هذه الآية من التجانس ولكنه يخرجها مخرج المشاكلة فيقول : " فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير ، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء ، أما هم فذهبوا عن الذكر ، وأما قلوبهم فذهبت عنها الخير ".(٤) يقول ابن القيم : فأخبر سبحانه عن فعلهم ، وهو الانصراف ، وعن فعله فيهم ، وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره ، لأنهم ليسوا أهلا لها ".(٥) ويقول الزمخشري : صرف الله قلوبهم دعاء عليهم بالخذلان وبصرف

---

(١) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ، دار التراث القاهرة : ٣٥٨/١ .

(٢) سورة التوبة : آية ١٢٧ .

(٣) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار دار التراث القاهرة : ٣٤٩/١ و ٣٥٠ .

(٤) النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) للرماني ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية : ١٠٠ .

(٥) التفسير القيم لابن القيم ، لجنة احياء التراث العربي بيروت لبنان : ٣٠٢ .

قلوبهم مما فى قلوب أهل الإيمان من الانشراح ".(١) يقول القرطبى:
أخبر سبحانه وتعالى فى هذه الآية أنه صارف القلوب ومصرفها
وقالبها ومقلبها ، ردا على القدرية فى اعتقادهم أن قلوب الخلق
بأيديهم وجوارحهم بحكمهم ، يتصرفون بمشيئتهم ويحكمون بإراداتهم
واختيارهم .(٢)

نصل مما سبق إلى أن صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله
تعالى . والمعنى أنهم انصرفوا عن الطاعة والتوبة فعاقبهم الله على
انصرافهم بصرف آخر غير الصرف الأول ـ أى أنه لما انصرفت قلوبهم
بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن . جازاهم الله عن ذلك صرفا
آخر ، وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره ، فأطلق بذلك الصرف
على العقاب على طريقة المشاكلة فى الكلام كما فى قوله تعالى : "فَلَمَّا
زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ "(٣) فجازاهم عن زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة
غير الزيغ الأول يقول القاضى عبد الجبار : " وذلك أن الله تعالى وصفهم
بالزيغ ، وأضاف ذلك إليهم فى الحقيقة وبين أن عند ذلك تزيغ قلوبهم ، فالمراد
به أنه يعاقبهم على ذلك ".(٤)

---

(١) الكشاف للزمخشرى ، طباعة باكستانية طهران : ٢٢٢/٢ .

(٢) تفسير القرطبى ، مصطفى البابى الحلبى وشركاه الطبعة الثالثة : ٣٠٠/٨ .

(٣) سورة الصف : من الآية ٥ .

(٤) متشابه القرآن للقاضى عبد الجبار دار التراث القاهرة : ٦٥٢/٢ .

ونظير ما تقدم قوله تعالى: "ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ "(١) فلا يجوز أن يسمى فعله بهم تعالى سوءا لقبح ذلك ولكنه أجرى هذا اللفظ على ما هو جزاء عليه كقوله "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا" وذكره كثير في اللغة . وإلا فما يفعله تعالى لا يكون إلا عدلا وحكمة . وذلك لا يوصف بهذا الوصف . ولذلك لا يحسن وصف الله تعالى بأنه مسيء "(٢) ويمكن أن يقال أيضا أن النسيان لا يجوز على الله تعالى في قوله : " فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ " (٣) والمراد عاقبناكم على ترككم .

فيما يتعلق بنصر المؤمنين يقول الله تعالى : "إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ "(٤) إن النصر هنا لا يحتمل أن يكون نصرا دنيويا بل يحتمل أن يكون في الآخرة لأن ذلك نصرة لهم، إن تنصروا الله يجازيكم على النصرة. ويحتمل أن يريد أن الغلبة لكم على كل حال وإن غلبتم في الظاهر لأن المغلوب إذا كان مستحقا للثواب فهو المنصور والغالب إذا كان من أهل العقاب فهو مخذول غير منصور ."(٥)

---

(١) سورة الروم : ١٠ .

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن ، المطبعة الجمالية بمصر : ٢٧٦ .

(٣) سورة السجدة : آية ١٤ .

(٤) سورة محمد : آية ١١ .

(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن ، المطبعة الجمالية بمصر : ٣٢٥ .

٤ ـ الالتفات

الالتفات فن من فنون البلاغة ، لا يسير الكلام فيه على منوال واحد ، بل تتنوع فيه الأساليب وفق تنوع المواضيع . وجاء منه في القرآن حظ وافر ، نحا فيه منحى طريقته في التأليف والتعبير من حيث سلامة اللفظ وصحة المعنى واستقامة الغرض والأسلوب .

وأهم فوائد الالتفات أنه أفضل ما يجدد نشاط السامع ، ويوقظه للإصغاء للكلام ، ويذهب عن النفس الملل ويبعد عنها الضجر والسأم ، فإن النفوس جبلت على حب الانتقال من أسلوب لآخر وعدم استساغة جريانه على نمط واحد . يقول السيوطي : " وله فوائد منها تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد "[١]

هذه هي الفائدة العامة التي يمتد أثرها لتطالعنا في كل آية من آيات الالتفات ، وهناك نكت ولطائف يختص بها أسلوب الالتفات في القرآن .

من التكلم إلى الخطاب : فيه حث للسامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه وأعطاه فضل عناية تخصص بالمواجهة[٢] ومثاله قوله

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ، طبع ونشر دار الفكر العربي ، تحقيق/ علي محمد البجاوي : ١/٣٧٧ .

(٢) نفسه .

تعالى : "وَمَالِىَ لا أَعبُدُ الذِى فَطَرَنِى وإليهِ تُرجَعُونَ"(١) وأصلــه أرجع فالتفت من التكلم إلى الخطاب، ونكتته أنه بعد أن أخرج كلامه فى معرض النصح لنفسه، وهو يريد نصح قومه، ثم التفت إليهم مذكــرا ومخوفا فقال "وإليه ترجعون" يقول الصابونى "تلطف فى الإرشاد لهـم كأنه ينصح نفسه ، ويختار لهم مايختار لنفسه ، وفيه تقريع على ترك عبادة خالقهم والمعنى أى شئ يمنعنى من أن أعبد خالق الذى أبدع خلقى "(٢) وبذلك يكون قد جاء بفائدة عظيمة فى كونه أن الكلام قد شمله معهم فى وجوب عبادة من إليه الرجوع .

من التكلم الى الغيبة :

يقول السيوطى : " ووجهه أن يفهم السامع أن هذا نمــط المتكلم وقصده من السامع حضر أو غاب وأنه ليس فى كلامه ممــن يتلون ويبدى فى الغيبة خلاف مايبديه فى الحضور . (٣) ومثاله قولــه تعالى : "إِنَّا فَتَحنَا لكَ فَتحاً مُبِيناً لِيَغفِرَ لكَ اللَّهُ ماتقدَّمَ من ذنبِـكَ وما تأخَّرَ ..." .(٤) وفيه التفات الأصل فيه " لنغفر لك" وفيــه تشريف لرسول الله (ص) وهو أكمل الخلق على الإطلاق . وقوله تعالـــى " إنا أعطيناك الكوثر . فَصَلِّ لِرِبكَ وانحَر "(٥) والأصل فيه " فصل لنـا"

---

(١) سورة يس : آيــة ٢٢ .

(٢) صفوة التفاسير : للصابونى دار القرآن الكريم بيروت: ١٢/ ٤٨ .

(٣) الإتقان للسيوطى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده الطبعة الثالثة : ٢/ ٨٥ .

(٤) سورة الفتح : ١ و ٢ .

(٥) " الكوثر : ١ و ٢ .

في التفت من التكلم إلى الغيبة وفي ذلك تكريم للرسول (ص) إذ قال له الله سبحانه وتعالى: صل لربك وحده ، يأمر بالتوحيد والإخلاص في عبادته . والمقام مقام تربية فناسب أن يأتي الكلام على هذا النمط .

من الخطاب إلى الغيبة : فيه عدول عن مخاطبة المستمع بلفت نظره وذهنه إلى غيره ، بهدف قياس نفسه على ما ينبغي الالتفات إليه ومثاله قوله تعالى: " لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ "(١) الأصل في الالتفات أن يقال " ظننتم " وعدل عن ذلك للتوبيخ والإشعار بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين وعلى الذين خاضوا في حديث الإفك أن يقيسوا الكلام على أنفسهم .

من الغيبة إلى التكلم : ونكتته أن يجذب انتباه السامع بعد الحديث عن الغيبة إلى أمر هام يختص بالمتكلم وحده . يقول تعالى : " وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ".(٢)

الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله : أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه " وهنا بيان لكمال قدرة الله وحكمته في سوق الرياح المبشرة بنزول المطر ، تحرك السحاب إلى بلد قاحل . ويقول تعالى : " وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ "(٣)

---

(١) سورة النور : آية ١١ .

(٢) " فاطر : ٩ .

(٣) " فصلت: من الآية ١٢ .

الالتفات في قوله " زينا السماء الدنيا " بعد أن تكلم بضمير الغيبة ، فأبان حكمته بتزيين السماء القريبة بالكواكب.

من الغيبة إلى الخطاب: العدول من الغيبة إلى الخطاب ليشد إليه انتباه المخاطب ليتلقى أمرا هاما ومفيدا ، ومثاله قوله تعالى :
" عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إِنَّ هَذا كَانَ لكُمْ جَزاءً وكَانَ سَعْيُكمْ مَشكورًا ".[1] الالتفات في قوله " إن هذا كان لكم " والأصل كان لهم " فالتفت فيه من الغيبة إلى الخطاب مبينا أن دخولهم الجنة ومشاهدتهم نعيمها كان مقابل أعمالهم الصالحة في الدنيا ففيه حث على الإقبال على مايقرب إلى الله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَدًا . لقد جِئْتمْ شَيئًا إِدًّا " [2] والأصل فيه " جاءوا " فالتفت اليهم وخاطبهم لأنهم جاءوا بقول منكر قبيح شنيع وهم اليهود والنصارى الذين زعموا أن الملائكة بنات الله . تعالى الله عما يصفون .

ومن الامثلة أيضا قوله تعالى : إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ فَلَهُمْ أجرٌ غيرُ ممنونٍ . فَمَا يكذبُكَ بعدُ بالدِّينِ "[3] الالتفات هنا من الغيبة الى الخطاب بقصد التوبيخ والعتاب اذ يخاطب الله سبحانه وتعالى الانسان فما بالك تكذب بيوم الدين بعد وضوح الدلائل والبراهين ؟

---

(١) سورة الانسان : ٢١ و ٢٢ .
(٢) " مريم : ٨٨ و ٨٩ .
(٣) " التين : ٦ و ٧ .

من الخطاب الى التكلم : يذكر السيوطي أن هذا الضرب من ضروب الالتفات لم يقع منه شيء في القرآن الكريم . وأما من مثل له بقول الله تعالى : فاقض ما أنت قاض إلى قوله إنا آمنا بربنا [١] فقد اعترض عليه السيوطي بقوله (وهذا المثال لا يصح لأن شرط الالتفات أن يكون المراد به واحدا "[٢]

محاسن الالتفات وأسراره : الالتفات له أسرار وحكم تجمعها تلك الضروب الآتية الذكر . ومن جلال القرآن وعظمته أن تتنوع ضروب الكلام فيه فيجئ نظمه معجزا بحيث لا يشذ فيه لفظ أو ينبو معنى واحد . ونود هنا أن نذكر ما يوفقنا الله اليه من هذه المحاسن والأسرار وما تشتمل عليه من معان .

التفخيم والتعظيم : من محاسن الالتفات وأسراره وحكمه آيات تبين عظمة الله وجلاله ومنها ماوقع في سورة الفاتحة من قوله تعالى : "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ".[٢] فقد جاء فيه التفات من الغيبة الى الخطاب ولو جرى الكلام مجراه السابق لقال " إياه نعبد " .

وفي تقديم المفعول " إياك " إفادة القصر ، أي لا نعبد سواك كما في قوله تعالى "وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ "[٣] وقد خصت الآية الله وحده بالعبادة يقول السيوطي : فإن العبد إذا ذكر الله تعالى وحده ثم ذكر صفاته التي كل صفة منها تبعث على شدة الإقبال ، وآخرها مالك يوم الدين

---

(١) الإتقان للسيوطي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده الطبعة الثالثة : ٨٥/٢ .

(٢) الفاتحة : ٥ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٤٠ .

المفيد أنه مالك الأمر كله في يوم الجزاء ، يجد من نفسه حاملاً لا يقدر على دفعه على خطاب من هذه صفاته بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات ".(١)

فمما يختص به الالتفات من الأسرار والمحاسن اللطيفة في هذا الموضوع أنه سبحانه وتعالى لما اختص نفسه بالحمد والثناء وما يلزم غاية الخضوع له والاستعانة به ، استحق أن يخاطب بقوله " إياك نعبد وإياك نستعين " ليكون الخطاب أول على تعظيم الله ، وليجد العبد فرصته إلى مناجاة ربه بتخصيص العبادة له ، والاستعانة به . يقول الصابوني في معنى الآية: " نخصك يا الله بالعبادة ، ونخصك بطلب الإعانة ، فلا نعبد أحداً سواك ، لك وحدك نذل ونخضع ونستكين ونخشع ، وإياك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك ، فإنك المستحق لكل اجلال وتعظيم ولا يملك القدرة على عوننا أحد سواك ".(٢)

ويورد السيوطي أنه : " لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه الصفات العظيمة من كونه رباً للعالمين ورحماناً ورحيماً ومالكاً ليوم الدين تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بأن يكون معبوداً دون غيره مستعاناً به فخوطب بذلك لتمييزه بالصفات المذكورة تعظيماً لشأنه حتى كأنه قيل إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا غيرك ".(٣)

---

(١) الإتقان للسيوطي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده الطبعة الثالثة : ٨٦/٢ .
(٢) صفوة التفاسير للصابوني ، دار القرآن الكريم بيروت : ٢٥/١ .
(٣) الإتقان : ٨٦/٢ .

قيل إن الاستعانة قرنت بالعبادة لتجمع بين كل مايتقرب به العباد إلى ربهم وبين مايطلبونه ويحتاجون إليه من جهته • وقدمت العبادة على الاستعانة لأنه تقديم للوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة اليها •

لقد جمع الالتفات كل هذه الحكم الجليلة وغيرها مما يقرب إلى الله عز وجل • وفى ذلك كله تعليم للعباد وبيان للأسلوب الذى ينبغى عليهم اتخاذه فى مخاطبة الله سبحانه وتعالى •

ويقول تعالى : " إِنَّ الذِين لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا وَرَضُوا بالحَياةِ الدُّنيا واطْمَأنُّوا بِها والذِين عن آياتِنا غافِلُونَ • أولئكَ مأواهُمُ النَّار بما كانوا يَكسِبونَ "(١) ففى قوله : "لا يرجون لقاءنا " التفات مع الإضافة إلى ضمير الجلالة • بجعل لقاء العذاب والثواب لقاء لله تفخيما لهما • ومعنى قوله "لا يرجون لقاءنا " أنهم لايخافون عقابا ولا يرجون ثوابا • فالرجاء يكون بمعنى الخوف تقول العرب: فلان لا يرجو فلانا أى لا يخافه • يقول أبو ذؤيب الهذلى:

إذَا لَسَعَتهُ النَّحل لَم يرجُ لَسْعَها ۞ وخَالَفها فِى بيتِ نوبٍ عَواسِلِ (٢)

قيل يرجون بمعنى يطمعون • وقال بعض العلماء : لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد كقوله تعالى : "مالكم لا ترجون لله وقارا " وقال بعضهم بل يقع بمعناه فى كل موضع دل عليه المعنى • (٣)

---

(١) سورة يونس : الآيتان ٧ و ٨ •

(٢) النوب النحل لأنها ترعى ثم تنوب إلى موضعها • عواسل وهى التى تعمل العسل والشمع (حاشية القرطبى ٣١١/٨)•

(٣) تفسير القرطبى، مصطفى البابى الحلبى وشركاه الطبعة الثالثة : ٣١٢/٨ •

والآيـة تحدد مصيرهم يوم القيامة ، فهم رضوا بالدنيا عوضـــا عن الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا بها واطمأنوا إليها فماذا يكون مصيرهم ؟ " أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون " . فجاء الكلام على صورة تعظيم شأن الآخرة حتى تتحفز النفوس وتهب من رقدتها وتعمل لما بعد المـــوت. تبرز الآيـة الغفلة وعدم الاهتمام عند هؤلاء الذين لا يتوقعون لقاء الله ولا يخطر على بالهم فهم فى غيهم سادرون .

وخلاصة القول إن إضافة اللقاء إلى ضمير الجلالة فيــه من تهويل الأمر ما لا يخفى ، وهو أدعى للتخويف وأبلغ فى التصويـــر حيث يجعل الإنسان أمام الله إما بالرجوع إليه بالبعث أو لقاء الحساب فلا فكاك ولا مهرب. وجاء الالتفات ملائماً للحالة والموقف.

ومن الالتفات ما يظهر فيه الاسم الجليل لالقاء الروعة والمهابـــة فى القلب يقول تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِـــن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ".(١) الالتفات هنا من ضمير المتكلم الى الغيبة باظهار الاسم الجليل، والاصل فيه " نلعنهم " . يقول الألوسى : " والالتفات الى الغيبة باظهار اســـم الـــذات لتربية المهابة والاشعار بأن مبدأ صدور اللعن صفة الجلال المغايرة لمـــا هو مبدأ الانزال والتبيين من صفة الجمال ".(٢)

تتكلم الآية عن أحبار اليهود الذين يكتمون ما أنزل الله اليهـــم فى التوراة من أخبار نبينا محمد (ص) ، وهؤلاء يبعدهم الله ويطردهم من رحمته وتلعنهم الملائكة ويلعنهم اللاعنون من المؤمنين .

---

(١) سورة البقرة : آيـة ١٥٩ .

(٢) روح المعانى للألوسى ، احياء التراث العربى بيروت: ٢/ ٢٧.

ومن الآيات التي ضمت الالتفات بإظهار اسم الجلالة قوله تعالى: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ". (١)
الالتفات المذكور في قوله تعالى "أن الله سميع عليم" لإظهار المهابة والروعة . إنه ينبهنا إلى مراقبة الله سبحانه وتعالى عند الاعتذار عما أمر به تعالى من القتال. فهو سميع ـ كما يقول الألوسي: "لما يقوله المتخلف عن الجهاد من تنفير الغير عنه . ومايقوله السابق إليه من ترغيب فيه ، عليم بما يضمره هذا وذاك من الأغراض والبواعث فيجازي كلا حسب عمله ونيته ". (٢)

فلما كان الجهاد ذروة سنام الدين، وكان من أشق التكاليف على النفس ، أمر الله به ، ثم أورد الاسم الجليل في صيغة الالتفات ليعلم المسلمون أنه سبحانه وتعالى عليم بما يأتيه مرضى القلوب وضعفاء الإيمان من الحيل والمراوغة وانتحال الأعاذير للفرار من الحروب. فإذا علمنا هذا ، وحاسبنا أنفسنا ، عرفنا أن منتحل الأعذار من أجل التخلف مخادع لربه ولنفسه وللمؤمنين . والقرآن يسد بذلك أمام هذا النوع كل أبواب الاعتذار وعلل الخوف.

ومما يظهر فيه الاسم الجليل أيضا قوله تعالى: "كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ". (٣) بالآية التفات من الغيبة إلى الحاضر . والأصل

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٤٤ .

(٢) روح المعاني للألوسي، إحياء التراث العربي بيروت: ١٦٢/٢ .

(٣) سورة آل عمران : آية ١١ .

" فأخذناهم " . وفى الالتفات إظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة . فهؤلاء كفار قريش قد عارضوا الرسول (ص) وناصبوه ومن معه من المؤمنين العداء فضرب الله لهم مثلا بحال المعاندين من آل فرعون ومن سبقهم من الأمم ، كذبوا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم وأهلكهم بكفرهم ومعاصيهم . والمراد بقوله "بذنوبهم " أى بسببها أو ملتبسين بها غير تائبين . وتكون الذنوب على الأول التكذيب بالآيات المتعددة وجئ بالسببية تأكيدا لما تفيده الفاء . وعلى الثانى سائر الذنوب وفى ذلك إشارة إلى أن لهم ذنوبا أخر . (١)

ويقول تعالى : " إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ". (٢) قوله تعالى " وليعلم الله " من باب الالتفات ، لأنه جاء بعد لفظ نداولها ، ففيه من الحاضر إلى الغيبة . والسر فى هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد فى سبيل الله .

فى الآية تسلية منه سبحانه وتعالى لرسوله وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية لقلوبهم . فما أصابهم من قتل وجرح وما لحقهم من ألم قد أصاب ولحق المشركين مثله . وجاء هنا الالتفات للغيبة بإسناده إلى الاسم الجليل لتربية المهابة فى النفوس وتعظيم شأن الجهاد يقول الزمخشرى : " ليسليهم عما جرى عليهم وليبصرهم أن العبد يسوءه ما يجرى عليه من المصائب ولا يشعر أن لله فى ذلك من المصالح ما هو غافل عنه ". (٣)

---

(١) روح المعانى للألوسى ، إحياء التراث العربى بيروت: ٣/٩٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠ .

(٣) الكشاف: ١/٤٦٦ .

والأيام دول يوم لك ويوم عليك ويوم تساء فيه ويوم تسر كما يقول الشاعر :

فيومًا علينا ويومًا لنا ويومًا نُساءُ ويوما نُسَرُّ

فالله يصرف الأيام بين الناس يقول الألوسى : " فتديل لهؤلاء مرة ولهؤلاء أخرى كما وقع ذلك يوم بدر ويوم أحد ". [1] وكان ذلك امتحانا يمتحنهم ويعاملهم من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم فيرى من يصبر على الشدائد فيتميز المؤمن من المنافق .

<u>أهداف وغايات متعددة :</u>

للالتفات فوائد متعددة ونكت ولطائف كثيرة . ونود هنا أن نعرض للقدر يسير من ذلك وباستقرائه يمكننا أن نتبين أن كل آية منه تتضمن ضربا من الإعجاز الذى أعجز أرباب البيان من العرب عن معارضته .

يقول تعالى : " وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ " [2]

قوله تعالى " سأريكم دار الفاسقين " الأصل فيه أن يقال " سأريهم " ولكن التعبير جاء على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب بهدف اتباع منهج الصالحين والسير على طريقهم . الآية الكريمة

---

(١) روح المعانى للألوسى . إحياء التراث العربى بيروت : ٤/ ٦٨ .
(٢) سورة الأعراف: ١٤٥ .

ووضح عاقبة الذين فسقوا عن أمر الله وجحدوا آياته ، فعجل الله لهم الخزي في الدنيا مع ما أعد لهم من العذاب يوم القيامـــــــة .
وفي ذلك تحذير من اتباع طريقهم وسلوك منهجهم .

روى قتادة أن الآيــة توكيد لأمـر القوم بالأخذ بالأحســن وبحث عليه على نهج الوعيد والترهيب ، وروى أن ابن الكلبي قــال : المراد بدار الفاسقين منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا ، ومــن الحسن وعطاء أن المراد بها جهنم .(١)

وخلاصـة القول أن الالتفات في الآيــة حسن موقعه لقصـــد المبالغة في الحث على سلوك منهج الصالحين ، وحقق غايــة تتمثل فيها العبرة والموعظة في رؤية منازل الفاسقين خاوية على عروشها ، ولـــزم بذلك ألا يحدث أي تهاون في امتثال أوامر الله حتى لا يحل ما حل بهـم من عـذاب .

والحق الذي لا مراء فيه ويجب الاطمئنان إليه أن لكل التفات هدفاً وغاية ومن ذلك الاهتمام بالأمر والاعتناء به كما في قوله تعالى : " وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ... "(٢) في قوله تعالى : " فأخرجنا به " التفات عن الغيبة والأصل أن يقول " وأخرج به " . لكن الالتفات جاء على هذه الصورة اعتناء بشأن المخرج

---

(١) روح المعاني ، إحياء التراث العربي بيروت: ٦٠/٩ .
(٢) سورة الأنعام : من الآيـة ٩٩ .

والإشارة إلى أن نعمه عظيمة . فالله سبحانه وتعالى أنزل المطر من السحاب فأخرج به كل ماينبت من الحبوب والفواكه والثمار وغيرها قال الطبري: "أخرجنا به ماينبت به كل شئ وينمو عليه ويصلح ".[1]

وقوله تعالى: "وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ..."[2] فيه التفات من الغيبة إلى المتكلم في قوله : " وبعثنا منهم " والأصل في التعبير " وبعث" ولكن جاء بالالتفات اعتناء بشأنه واهتماما به . لقد أمر الله موسى عليه السلام أن يأخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيبا ، والنقيب كبير القوم القائم بأمورهم[3] وذلك لكي يكون كل نقيب كفيلا على قومه بالوفاء بما امروا به توثقة عليهم يقول الزمخشري: "لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالمسير إلى أريحاء أرض الشام ، وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ، وقال لهم : انى كتبتها لكم دارا وقرارا فأخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإني ناصركم ، وأمر موسى عليه السلام بأن يأخذ من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بني إسرائيل وتكفل لهم به النقباء وسار بهم ، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة ، فهابوا ورجعوا وحدثهم قومهم وقد نهاهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم ، فنكثوا الميثاق إلا كالب ابن يوقنا من سبط يهوذا ويوشع بن نون من سبط إفراييم ابن يوسف وكانا من النقباء ".[4]

---

(١) جامع البيان للطبري ، مصطفى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الثالثة : ٢٩٢/٧.

(٢) سورة المائدة : من الآية ١٢ .

(٣) صفوة التفاسير للصابوني ، دار القرآن الكريم بيروت: ٣/ ١١ .

(٤) الكشاف للزمخشري ، طباعة باكستانية طهران : ٥٩٩/١.

وهناك آيات أخرى جاءت على سبيل الالتفات يجدر بنا أن نتعرض لبعضها لما لها من تأثير عميق فى النفوس وفيها دلائل واضحة تدل على الحكمة الالهية والابداع فى معالجة النفوس . فمنها ما يجيء على سبيل التوبيخ والتأنيب كقوله تعالى : " والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون "(١) قوله " أفلا تعقلون " فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة فى التوبيخ والتأنيب .

وفى الآية خطاب لأولئك الذين أخذ عليهم الميثاق من بنى إسرائيل وقد استحوذ الطمع عليهم فأفسد عليهم أمرهم . وجاء بالاستفهام للانكار ، أى أفلا يزجرون ويخافون من عقاب الله ؟ ولو فعلوا ذلك لما استبدلوا الأدنى المؤدى الى العذاب بالنعيم المقيم . فالالتفات ظاهر جلى فى شدة توبيخه وتأنيبه لمن يرجح عرض الدنيا وحطامها الفانى ونعيمها الزائل على نعيم الآخرة الدائم .

وقوله تعالى : " هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُم فِى البَرِّ والبَحْرِ حَتى إذا كنتُمْ فى الفُلكِ وجَرينَ بِهِم بِريحٍ طَيبةٍ وفَرِحُوا بِها جَاءتها رِيحٌ عاصِفٌ وجاءَهُمُ الموجُ مِن كلِّ مكانٍ وظَنوا أنهُم أُحيطَ بِهِم دَعَوا اللَّهَ مُخلِصينَ لَهُ الدِّينَ لئنْ أنجيتَنا مِن هذهِ لنكونَنَّ مِن الشاكِرِينَ " .(٢)

فى قوله تعالى : " وجرين بهم " التفات من الخطاب إلى الغيبة وجاء زيادة فى التقبيح والتشنيع على الكفار لعدم شكر النعمة . وإن

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٦٩ .

(٢) " يونس : آية ٢٢ .

شكر الله على نعمه وآلائه من أسمى الأعمال وأجلها . وهو البلسم الشافي من أدواء البطر والتكبر . فالكافر يختر بما يتقلب فيه من نعماء . ولا يقبل على ربه بالصدق والايمان ، ولا يسعى لرضائه والتعلق به . وإذا ما تبدل الحال وأصابه الضر أشفق على نفسه وأناب إلى ربه متبتلا عليه بالدعاء والتضرع بعد أن كان معرضا .

ومنها مايجئ على سبيل التحقير كقوله تعالى: " ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ . هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ". (١)

أوردت آيات متعددة لكي يكون الالتفات واضحا بعد تتبع السياق، وهو في قوله تعالى: " هذا نزلهم يوم الدين " والأصل فيه " هذا نزلكم " فالتفت عن خطابهم تحقيرا لشأنهم وتهكما بهم . والنزل في الاصل مايهيأ للضيف أول قدومه من التحف والكرامة فتسمية الزقوم نزلا تهكم بهم ". (٢)

ولعله قد أصبح واضحا الآن بعد هذا العرض اليسير أن الالتفات في القرآن يرد لأسرار وحكم تتجلى فيها قدرة الله وعظمته ، وأنه يجئ وفق نظام وفي عمق على بالحكم مزينا بالغايات .

---

(١) سورة الواقعة : ٥١ _ ٥٦ .

(٢) تفسير جزء والذاريات للصابوني، مكتبة الغزالي بدمشق ومؤسسة مناهل العرفان بيروت: ١٠٥ .

٥ ـ اللف والنشر

توطئة للحديث عن هذا الفن من فنون البديع يجدر بنا أن نذكر أنه يضم ألوانا من العناصر التركيبية التى يلزم أن يرتبط بعضها ببعض أوثق ارتباط حتى يكون مظهرا من مظاهر القوة والجمال فى التعبير. ومع أن ظاهره يوحى بالتقسيم إلا أن الكلام فيه يمضى أن يسلك طريقة تلبسه ثوبا واحدا ينتهى إلى غايته من حسن التأليف وتمام المعنى .

إن الوصول إلى هذه الحقائق وإلى مزيد من المعرفة يستدعى النظر إليه فى القرآن الكريم حيث الدقة فى اختيار الكلمات والأساليب وانسجامها وتنسيقها وحسن ترتيبها .

يقول تعالى: "ومن رحمته جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ".(١) الآية ـ كما علمت ذكرت متعددا على جهة التفصيل ثم ذكرت مالكل من آحاده ماهو له من غير تعيين واحد منها لآخر لأن السامع يرد إلى كل مايليق به . تعرض الآية إلى كمال رحمة الله بالعباد . ومن مظاهر رحمته خلق الليل والنهار يتعاقبان للرزق نهارا وللراحة من عناء الحياة وهمومها ليلا يقول الطبرى: "فجعل الليل ظلاما لتسكنوا فيه وتهدءوا وتستقروا لراحة أبدانكم فيه من تعب التصرف الذى تتصرفون نهارا لمعايشكم ".(٢)

---

(١) سورة القصص : ٧٣ .

(٢) جامع البيان ، مصطفى البابى الحلبى وشركاه الطبعة الثالثة : ٢٠/١٠٤ .

فمجئ التعبير عن طريق اللف والنشر لبيان الحكمة من تعاقب الليل والنهار وفي ذلك ثلاثة أغراض يذكرها الزمخشري فيقول: "لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضل الله في الآخرة وهو النهار ولإرادة شكركم "(١) فورود الكلام ملفوفا يشتمل على هذا السر الغرض تطلع النفس إلى معرفته ، ثم القول لينتهي إلى الفائدة والنعمة الجليلة . وهكذا تتجلى روعة البيان فلو حذف من الكلام جزء لذهب بكثير من روعته وحسنه فلابد إذن من أن يرتبط ببعضه ليكون التعبير عن لون واحد من الزمن . فلو كان كذلك ، فإن الإنسان سيفقد إما السكنى والراحة في ظلام الليل أو الضوء من أجل العمل في وضح النهار . ثم ختمت الآية بقوله "ولعلكم تشكرون" أي لتشكروه على إنعامه عليكم بذلك . وينبغي أن تفرده بالشكر وتخلص له الحمد لأنه الواحد الذي لم يشركه غيره في هذه النعم .

ويقول تعالى: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا "(٢) بالآية لف ونشر مرتب في "فتقعد ملوما محسورا " فاللوم راجع إلى البخل و "محسورا " راجع إلى الإسراف من غير تعيين واحد منهما على الآخر . وفي ذلك دعوة إلى التوسط في الأمور ، ونبذ لموقفين متناقضين وهما البخل والإسراف. مثلت الآية البخيل بمن حبس يده عن الإنفاق وشدها إلى عنقه ، والمسرف بمن بسط يده وتوسع في الإنفاق توسعا مفرطا بحيث لا يبقى لنفسه شيئا في يده ثم ردت إلى كل مايليق به من غير تعيين واحد منهما على الآخر ثقة بالسامع .

---

(١) الكشاف للزمخشري، طباعة بالكستانية طهران: ٣/١٨٩.
(٢) سورة الاسراء : ٢٩ .

ومن اللف والنشر قوله تعالى : " وَمَاكَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ • فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ "(١) جمع أتباع الرسل ، الذين ورد ذكرهم قبل ذلك ، في دعائهم ■ لقاء العدو بين أسباب الفوز في الدنيا والآخرة وأجاب الله دعواهم وقدم ثواب الدنيا مع كونه متأخر في في الدعاء لأن المقام مقام قتال والنفوس تتطلع الى النصر ثم أعقبه بثواب الآخرة وخصه بالحسن دون ثواب الدنيا لما له من فضل ومزية يقول أبو السعود : " وحسن ثواب الآخرة وهو الجنة والنعيم المخلد وتخصيص وصف الحسن به للإيذان بفضله ومزيته وأنه المعتد به عنده تعالى "(٢) وبهذا التعبير جمعت الآية بين جزاء الدنيا وجزاء الآخرة وأظهرت فضل جزاء الآخرة •

ويقول تعالى " يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ • وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "(٣) جاء التعبير بأسلوب اللف والنشر على نمط التفصيل غير المرتب على عكس ترتيب اللف ــ فيوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالايمان والطاعة وتسود وجوه الكافرين بالمعاصي ثم جاء التفصيل لأحوال الفريقين فقدم حال الذين اسودت وجوههم لتوبيخهم وتعنيفهم لأنهم كفروا مع وضوح الآيات والدلائل • وأما السعداء الذين

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٧ و ١٤٨ •

(٢) تفسير أبي السعود :

(٣) آل عمران : ١٠٦ و ١٠٧ •

ابيضت وجوههم بما لهم من صالح الأعمال فقد كان من المناسب أن يستفتح بهم الكلام وأن يختصه بهم لما يحققه موقفهم من الانشراح للنفوس .

ونختم ما تقدم فنقول إن قيمة اللف والنشر الفنية تبدو واضحة فى تقوية المعنى وتوضيحه حين يرد الكلام إلى مايليق به . ويجرى ذلك فى تنسيق يتجلى فيه جمال التعبير ويظهر فيه الربط بين أجزاء الكلام .

٦ـ التورية

لعل أبرز مايلاحظ فى أسلوب التورية قلة وروده فى القرآن الكريم . فهناك آيات توهم بمشابهة الخالق للحوادث ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ونذكر هذه الآيات الاستواء واليد لله سبحانه وتعالى . وقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يتحفظون فى الخوض فى مثل هذه المسائل اتقاء لأنفسهم من المزالق ، وكانوا يفهمونها كما وردت دون تأويل . ولكن المتأخرين من العلماء كانوا يؤولون مثل هذه الايات . ومثال ذلك قوله تعالى : " هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ".(١)

فقوله "استوى إلى السماء" جاء على أسلوب يوهم بالمشابهة للحوادث . ولكنا إذا تبصرنا فى الأمر نجد أن الاستواء له معنيان معنى قريب غير مراد وهو الجلوس ومعنى بعيد مراد وهو الاقتدار والاستيلاء . وبهذا يخرج الكلام عن المشابهة . وهذا هو أسلوب التورية الذى يراد به المعنى البعيد والقرينة خفية لأنها استحالة الاستقرار عليه سبحانه وتعالى . التورية هنا تورية مجردة ، لم يرد فيها مايلائم المعنى القريب.

يقول الفراء " الاستواء فى كلام العرب على جهتين : إحداهما أن يستوى الرجل وينتهى شبابه ، أو يستوى عن اعوجاج ، فهذان وجهان .

---

(١) سورة البقرة : ٢٩ .

ووجه والثالث أن تقول : كان مقبلا على فلان ثم استوى عليّ يشاتمني وإليّ سواء ، على معنى أقبل إليّ وعليّ ، فهذا معنى قوله : "ثُـــــم استوى إلى السماء " والله أعلم "[١] ويقول الزملكاني : " الاستواء لغة هو العلو والاستقرار ".[٢]

المعنى البعيد هو المراد به ينزه الله سبحانه وتعالـى من أن يكون جسما يحتاج إلى مكان . والاستواء قد يراد به الانتصاب جالسا أو راكبا أو قائما تقول : استوى فلان على ظهر دابته أي استقـر وتقول : استوى الشئ بمعنى اعتدل[٣] وهذا لا يليق بمقام الألوهيـــــة وإنما يصح في الأجسام لأنها تحتاج إلى مكان .

كما أن الاستقرار والجلوس يلزم به خلق السماء قبل الاستـــواء ليمكن الانتقال إليها . فتعالى الله سبحانه وتعالى عن ذلك . يقـــول القاضي عبد الجبار "ويبين ذلك أنه لو أريد به الاستواء على المكـــان لوجب أن تكون السماء مخلوقة من قبل هذا الاستواء ، ليصح أن يستـــوى عليها وينتقل إليها ، والآيــة تدل على خلافــه ".[٤]

---

(١) معاني القرآن للفراء ، طباعة عالم الكتب بيروت الطبعة الثانية : ١/ ٢٥ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت: ٢/ ٢١١ .

(٣) مختار الصحاح مادة سوى

(٤) متشابه القرآن ، دار التراث القاهرة : ٧٤ .

ثم تبرز لنا الحاجة إلى المكان بعد ذلك ، والله سبحانه وتعالى لا يجوز في حقه ذلك ليقول عبد الجبار : " إن كان الأمر كما ظننتم فيجب أن يكون تعالى محتاجا إلى مكان، لأنه كان على الأرض ثم استوى إلى السماء وانتقل اليها وهذا يوجب حاجته إلى المكان ... بل يجب أن يكون تعالى محدثا ، لأن من جاز عليه الانتقال والمجيء والذهاب فلابد أن يكون جسما مؤلفا ".(١)

ونخرج من كلام عبد القاهر (الجبار) أن الآية جاءت على المعنى البعيد وهو الاستيلاء والاقتدار وهذا هو الذى عناه الأخطل في قوله :(٢)

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

أراد أن بشر بن مروان أخا الخليفة عبد الملك قد استولى على العراق واقتدر عليها وعلا ، ولا يعقل أن يكون قصده الجلوس بهذا المدح ، ولو أراد مكانا معينا لذكره باسمه لأن كل العراق لا يكون مكانا لاستوائه . لأجل ذلك كله كان المعنى الأول هو الصحيح .

هناك نقطة أخرى تظهر بجلاء في الآية الكريمة وهى أن الاستواء جاء معدى بإلى وهذا لا يكون إلا إذا كان المراد به الاستيلاء والاقتدار .

---

(١) متشابه القرآن ، دار التراث القاهرة : ٧٤ .

(٢) تاج العروس للزبيدى منشورات دار مكتبة الحياة بيروت مادة سود .

أما إذا كان المراد به الاستقرار فلا يتعدى بإلى وهذا ما أشار إليه معجم متن اللغة في قوله استوى : اعتدل ، بلغ أشده ، وإلى السماء صعد ، أو عمد ، أو قصد أو أقبل عليها ، واستولى وظهر • ويقال استوى على وإلى بمعنى أي أقبل واستولى على الدابة استقر ".(١)

وبناء على ذلك يكون الاستواء في الآية بمعنى القصد أي أن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض ومافيها للانتفاع بخيراتها ثم وجه إرادته إلى السماء فجعلهن سبع سموات محكمة البناء وذلك يدل على قدرته الباهرة •

هكذا جاء تأويل تلك الآية للرد على من يتوهم المشابهة • ونبسط القول في ذلك بهدف الكشف حتى يكون الأمر أكثر وضوحا • فقد تكرر مايوهم الاستقرار أيضا في قوله تعالى : " إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ".(٢)

ترد الآية مؤدية المعنى الذي يوهم بمشابهته تعالى للحوادث غير أن معنى استوى لايعني الاستقرار الذي يوحي بالجسمية ويرد عبد الجبار على المشبهة بقوله : " فإن قالوا : لو أراد الاستيلاء لم يجز أن يدخل فيه " ثم " لأنها تدخل على الاستقبال ، وذلك لايصح إلا في ماذكرناه

---

(١) متن اللغة لأحمد رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان مادة قور •

(٢) سورة يونس : ٣ •

من الاستواء دون الاقتدار . قيل له : إن "ثم" وإن وليها ذكر الاستواء فإنما دخلت على التدبير المذكور . والله تعالى يدبر الأمر في المستقبل ، وهذا كقوله "حتى نعلم المجاهدين منكم ".(١) فدخلت حتى في الظاهر على العلم وأريد بها الدخول في الجهاد الذى يقع مستقبلا ، والكلام على ذلك ـ لأن الفصيح إذا قال : ثم استقر زيد في الدار يدبر أحوالها . فالمراد بذلك أن تدبيره وقع وهو بهذه الصفة ، ولذلك يقال هذا القول وإن كان حصوله في الدار متقدما "(٢)

ففي رأي/عبد القاضي الجبار أن "ثم" دخلت على التدبير المذكور وليس المقصود منها بيان التراخي في الاستقرار ، فلا يصح اطلاقا أن ينسب ذلك لله العلي القدير . ومثال ما دخلت عليه "ثم" من الاستواء قوله تعالى : " اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ".(٣)

لفظة "ثم" وإن اقتضت الاستقبال فإنها في هذا المكان ـ كما يقول عبد الجبار ـ داخلة على تسخير الشمس والقمر وتدبير الأمر دون الاستواء فكأنه قال : ثم سخر الشمس والقمر يدبر الأمر يفصل الآيات

---

(١) سورة محمد : ٣١ .

(٢) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ، دار التراث القاهرة : ٣٥١ و٣٥٢ .

(٣) سورة الرعد : ٢ .

وهو مستو على العرش بأنه لايجوز أن يكون مقتدرا عليه بعد أن لم يكن كذلك ، لأن هذا المعنى لايصح في صفاته ذاته .[١]

إن مثل هذا التأويل الذى يرسله عبد الجبار وأمثاله ، للرد على من يظن أن الآية تدل على مشابهته تعالى للحوادث ، وهم يسعون بذلك إلى سد الطريق أمام رواج آراء الطاعنين فى القرآن ، ولذلك فهم يريدون ممن يقرأ قوله تعالى "الرحمن على العرش استوى "[٢] وأن يفهم أن المراد بذلك استولى واقتدر عليه ، والذى ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى أنه سبحانه مستو على عرشه بغير حد ولا كيف.[٣]

والاستواء بمعنى الاستيلاء والغلبة له مثيل فى لغة العرب قال الشاعر :

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

ونخلص من ذلك إلى أن الآية الكريمة أطلقت الاستواء وأريد منه الاستيلاء والاقتدار والغلبة وهى المعنى البعيد ولم يرد المعنى القريب وهو الجلوس والاستقرار حتى ينزه الإله عن مشابهته للحوادث .

وقد يرد لفظ اليد فى القرآن أيضا يوهم بالمشابهة كقوله تعالى " والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ "[٤] والايد هنا بمعنى القوة

---

(١) متشابه القرآن للقاضى عبد الجبار ، دار التراث القاهرة : ٤٠٢ .

(٢) سورة طه : ٥ .

(٣) فتح القدير للشوكانى ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان : ٣٥٧/٣ .

(٤) سورة الذاريات : ٤٧

والقدرة وقد خرجت عن المعنى الأصلي وهو الجارحة يقول الزمخشري : "والأيد والآد القوة ، وقد آد يئيد وهو أيد ".(١)

يقول القاضي عبد الجبار : " ولو لا ذلك لوجب إثبات أيد كثيرة له ، تعالى الله عن ذلك ".(٢) وبهذا يكون المراد هو المعنى البعيد لليد وهو القوة كما ذكرنا . وفي الآية ذكر مايناسب المعنى القريب وهو "بنيناها" وهذا مايعرف بالتورية المرشحة .

ولما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي ينسب إليها مايعمله الإنسان فيقال هذا ماعملته يداك . يقال ذلك ولو لم يستوجب الأمر مباشرة العمل باليد . وعلى ذلك ورد قوله عز وجل : "وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ".(٣) يريد القوة في طاعة الله . والأبصار واحدها بصر ،ويراد به البصيرة والفقه في الدين ومعرفة أسراره يقول المراغي : (واذكر صبر عبادنا الذين شرفناهم بطاعتنا ، وقويناهم على العمل لما يرضينا ،وآتيناهم البصيرة في الدين والفقه في أسراره والعمل النافع فيه).(٤)

---

(١) الكشاف للزمخشري ، طباعة باكستانية طهران : ٤/٢٠ .

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار المطبعة الجمالية بمصر: ٣٢٣.

(٣) سورة ص : ٤٥ .

(٤) تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الرابعة : ٢٣/١٢٧ .

يقول الزمخشري : " يريد ذوى الأعمال والفكر كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولايجاهدون فى الله ولايفكرون أفكار ذوى الديانات ولا يستبصرون فى حكم الزمنى الذين لايقدرون على أعمال جوارحهم والمسلوبى العقول الذين لا استبصار بهم . وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولامن المستبصرين فى دين الله وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما ".(١)

تجيء اليد بمعنى القوة والقدرة أيضا فى قوله تعالى : " أَوَ لَمْ يروا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ".(٢)
يقول الزمخشري : " وعمل الأيدى استعارة من عمل من يعملون بالأيدى".(٣)

الآية السابقة تشير إلى قدرة الله سبحانه وتعالى . لقد أودع بعظيم قدرته وإرادته وحكمته فى الأنعام من بدائع الفطرة والحكمة مالايقدر عليه إلا هو . فالإبل والبقر والغنم سخرها الله للناس يصرفونها كما يشاءون ، فهى ذليلة منقادة إليهم بقدرته تعالى . إن الصغير من الولائد يستطيع بقدرة الله أن ينيخ البازل الكبير ويسوقه ويصرفه كيف يشاء كما يقول العباس بن مرداس :

وتضربه الوليدة بالهراوى ... فلا غير لديه ولا نكير

وبهذه الآية نختم أمثلتنا عن التورية فى القرآن ونخلص إلى أنها وسيلة إلى تفهيم المعانى الدقيقة الخفية . فالمعنى القريب يكون ساترا للبعيد ، والبعيد خلفه . وإن رفع الستار عن المعنى المقصود تحت الستر مما يؤثر فى النفس ويهز العواطف ويجلب الفرح .

---

(١) الكشاف للزمخشري ، طباعة باكستانية طهران : ٣٧٧/٣ .
(٢) سورة يس : ٧١ .
(٣) الكشاف للزمخشري ، طباعة باكستانية طهران : ٣ / ٣٣٠ .

الفصل الثاني

المحسنات اللفظية

١ـ الجناس

ذكرت عند حديثي عن الجناس ـ في الفصل الثاني من الباب الأول أنه فن من فنون البديع تكلفه شعراء في العصر العباسي ، واجروا ألسنتهم عليه ، وأجهدوا أنفسهم في طلبه واستخراجه من ألفاظ العربية ، فأبعدوه عن الأصالة وأسلموه إلى التكلفة والصنعة .

واتخذ شعراء آخرون مذهب الطبع لهم منهجا واحتذوا فيه طريق الأوائل من الشعراء الذى تتوافر فيه العناية بإجادة الألفاظ وإجادة المعنى، فتتدفق ألفاظهم عذبة رشيقة في عبارات سلسة جزلة . وكان الجناس يأتي في أشعارهم عفو الخاطر دون قصد أو تكلف أو إجهاد نفس في طلبه .

إذا تجاوزنا هؤلاء الشعراء جميعهم إلى القرآن الكريم ، نجد الجناس ينساب فيه وقد ضرب بسهم وافر من الوضوح والبيان في أسلوب حى قوى ، ومعانى ربانية تسلمك إلى الحق الواضح الذى يشعرك بمعانى العبودية ويضفى عليك ثوب الخضوع لله أمام جلال هذا الإحكام الفذ في التصوير والتعبير .

الأصالة : أسلوب الجناس في القرآن يتخذ مسارا يتصف بالأصالة التى تكتسى فيها المعانى ألفاظا تزينها في التئام تام ، وصياغة تسرى فيهما القوة الإلـٰهية ، وليس في طوق البشر الإتيان بصياغة تضارعها .

اقرأ معى قول الله تبارك وتعالى فى شأن التقوى : "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ".(١) يرد الخطاب فى الآية حاملا أسلوب جناس الاشتقاق بجانب الالتفات باظهار الاسم الجليل . وليس القصد من الجناس تزيينا للكلام أو تحلية له ، وإنما هو الأمر الواقع الذى تؤدى فيه الألفاظ والمعانى فى وضوح وبيان ينسكب انسكابا فى قلوب المؤمنين .

إن تقوى الله من أجل الأعمال وأعظمها ، والله لايخفى عليه شىء مما تأتى وتذر . لأجل هذا يأتى الجناس مرغبا ومرهبا . يرغب فى حقوق الله واتباع أوامره ، ويرهب ويحذر من عقابه بالخوف منه ومراقبته وعدم مخالفته . والمراد أن تكون التقوى حقيقة واقعة فى تصرفات الإنسان وميوله ، يبذل قصارى جهده فى علاج نفسه وإزالة العقبات التى تعوق مسيرته فى درب الله لتصبح التقوى متمثلة فى تصرفاته وأحكامه . وجاءت الألفاظ هنا متناسبة مع بعضها ومنسجمة ومؤتلفة لتحقيق عمل جليل وهدف سام يقول على الجندى : " ومما لاشك فيه أن التوافق فى الزى والهندام واقتران الأشباه والنظائر بعضها ببعض تميل إليه النفوس بالفطرة وتأنس به وتغتبط ، ويطمئن إليه الذوق ويسكن ، لأنه نظام وانسجام وائتلاف وهى أشياء مركوز حبها فى الغرائز لخلعها على النفوس راحة وبشاشة وهدوءً وقراراً ".(٢)

---

(١) سورة البقرة : ٢٣١ .

(٢) فن الجناس لعلى الجندى ، مطبعة الاعتماد بمصر ، نشر دار الفكر العربى ٢٩ .

ويسلك القرآن نفس المنهج فى آية من الآيات التى يسرد فيها القتال ، وقد سبق لنا التعرض إليها عند الحديث عن الالتفات . وهى قوله تعالى : "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ".(١) يحث ذلك على الجهاد فى سبيل الله يقول القاضى عبدالجبار : "المراد أنه سميع لقول القائل عليم بفعله ، رغب بذلك فى الجهاد والقيام به كما يجب".(٢) وهنا تظهر أصالة التعبير فيما يحقق من هدف سام فى خلو من التكلف والصنعة . والمعانى فيه تتسم بالوضوح والبيان الذى يهيمن على قلب المؤمن ويسيطر على وجدانه .

الآية تأمر بالقتال فى سبيل الله ، والقتال شىء مكروه للنفوس كما قال تعالى : "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ".(٣) والمكروه للنفوس قد تكون له نتائج سارة ويكون فيه خير كثير .

ولما كانت هناك نفوس تؤثر الدعة والراحة فإن جناس الاشتقاق فى قوله تعالى "واعلموا أن الله سميع عليم" يخاطب هذه النفوس الضعيفة التى قصرت همتها وركنت إلى زينة الحياة الدنيا وأصغت إلى

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٤ .

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار ، المطبعة الجمالية بمصر : ٤٥ .

(٣) سورة البقرة : ٢١٦ .

وسوسة الشيطان لتهب من رقدتها وتستيقظ متخلية عن شهواتهـــــا ونزواتها وتلبى نداء الله إلى الجهاد فلا تتخلف عن القتال أو تفر منه • ويخاطب فى الوقت نفســه القلوب المؤمنة لتتلقى أوامــــــر الله بمزيد من القبول والارتياح ، وتسعى إلى القتال راغبة فيه ومحببة إليه غيرها من النفوس •

وتقتضى طبيعة الموقف أن يلفت أنظارهم إلى " أن الله سميع عليم " • فإذا علم المجاهد فى سبيل الله وتيقن أن الله سميع لما يقوله عليم بما تكنه القلوب طابت نفسه وآمن أن التخلف عن القتال لاينجيه من الموت • فالله يريده قويا فى عقيدته ولايتسرب إلى قلبه الضعف والخور ، فهنــاك أعداء الله الذين يريدون إضعاف شأن المسلمين فى الحروب ويسعون لبث روح التخاذل وإثارة الفتن بين صفوفهم •

فإذا كانت الآية السابقة تحث على الجهاد بالبدن ، فإن القرآن لايهمل أهمية الجهاد بالمال وأثره فى رفع شأن الإسلام والمسلمـــــين • وهنا تتحقق الأصالة فى أسمى معانيها حين يربط القرآن أسلوبى الجهاد أوثق رباط ويقرنهما مع بعضهما • ولم يكن القرآن مسبوقا إلى هذا المنهج الحكيم • يقول تعالى بعد الآية السابقة مباشرة :" مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ••• " •(١)

فيضاعفه

التعبير فى الآية بجناس الاشتقاق أيضا فى قوله " أضعافا ~~مضاعفة~~ " • وجاء نتيجة لما قبله ، وفيه حث لطيف على النفقــة وترغـيب فيها ، يهـز

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٥ •

القلوب المؤمنة ويجعلها تلين وتندفع إلى البذل والعطاء . والله لايضيع حقها ، فإنه يعدها بمضاعفة العطاء اضعافا مضاعفة من غير تحديد .

وليس أشق على النفس وأعسر عليها من أن تجود بالمال وتبذله في أي وجه من الوجوه مالم تجد المقابل يقول تعالى : " وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا "(١) والنفوس قد يصيبها هذا المرض النفسي ويطغى عليها . والقرآن الكريم بدقائق إشاراته وخفى عباراته يلتفت إلى مالايلتفت إليه غيره ويخاطب النفس الإنسانية مرشداً وهاديا ومحببا في صورة الاستفهام المستعمل للإكبار والاستعظام دون صيغة الأمر والإلزام فيقول " من ذا الذي " ويجعل بذل الأموال في سبيل الله بمثابة القرض وهو الغني عن العالمين . والتعبير بالقرض يزيل عقبة كأداء في سبيل الإنفاق ، ويبعث الطمأنينة والثقة في النفوس إذ أنه يقتضي أن القرض لايضيع وأن خيره يعود أضعافا مضاعفة لمن أقرض . ولايخفى مافي التعبير من قوة التوجيه الذي تتألف به القلوب وتقيم في حصن من الأمان حين يعود النفع للمقرضين وحدهم أضعافا مضاعفة . ويعضد ذلك قوله تعالى : " وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ " .(٢)

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يبذلون الغالي والنفيس في سبيل نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله . فقد روى أنه لما نزلت هذه الآية (من ذا الذي ... الخ جاء أبو الدحداح الأنصاري الى رسول الله (ص)

---

(١) سورة الفجر : ٢٠ .

(٢) " البقرة : ٢٧٢ .

فقال : يارسول الله : وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ؟ قال : أرنى يدك يارسول الله ، فناوله يده قـــال : فإنى قد أقرضت ربى حائطى أى بستانى — فكان فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها — فجاء أبو الدحداح فناداها : يـــا أم الدحداح قالت: لبيك . قال : أخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل . وفى رواية قالت : ربح بيعك يا أبا الدحداح وخرجت منه مع عيالها "(١)

هذه هى التربية الإسلامية الحقة التى تربى فيها أصحاب محمد (ص) . القرآن عندهم ممارسة عملية . ولاشك أن أسلوب القرآن يحفز النفوس لذلك . فأنت ترى الآية تثير الانفعال فى النفس وتعالج مافيهـــا من مرض فتبدأ بقوله " من ذا الذى " ثم تعقبه بإقراض الله سبحانـه وتعالى وفى ذلك حث للنفوس يجعلوا تقبل البذل عن رضا . ثم تصل الآية بعد ذلك إلى قمة الإرضاء للنفوس بقوله تعالى : "أضعافا مضاعفة" كثيرة وهذا الأسلوب أشد إقناعا وموقعه يحسن فى النفس ويتمكن منها .

وفى أسلوب جناس آخر يعرض القرآن للانفاق فى سبيل اللـــه . ويحيطه بجو من الرعاية والاهتمام ، يعلم به المؤمنون ويلهم لهم الطريق السوى الذى يبعدهم عن عبث العابثين وضلال المضلين . يقول عز وجـل : " وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ".(٢)

---

(١) صفوة التفاسير : ١٦٠/١ للصابونى ، دار القرآن الكريم بيروت . المجلد الأول : ١٦٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٠ .

جاء التعبير بتنكير النفقة والنذر هكذا مطلقا من غير قيد ليشمل كل نفقة ونذر ، وليشمل القليل والكثير ، وماورد سرا أو علانية ، وماكان في سبيل الله بالتزام الطاعة وماكان في سبيل الشيطان بالانحدار نحو الضلال . وهذا أسلوب يتميز بالايجاز والاختصار غير المخل في الكلام . وتؤدى فيه دقائق المعاني التي يتحقق بها الاعجاز البياني .

ومجيء جناس الاشتقاق بهذه الصورة يحرك القلوب المتيقظة والضمائر الحية لتعى وتدرك أن الله يعلم خفايا الأمور وبواطن الأشياء . يعلم مايراد من النفقة والنذر ، ويجازي على كل إن خيرا فخير وإن شرا فشر . فالبشر مختلفون في تصرفاتهم فمنهم من يميل إلى الخير ومنهم من يميل إلى الشر .

ثم أعقب أسلوب الجناس قوله تعالى : " فإن الله يعلمه " جملة فيها وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، وأكد مافيها من الوعيد بقوله (وماللظالمين من أنصار " ينصرونهم يوم القيامة ويدفعون عنهم عقاب الله .

ولاشك أنك قد رأيت/ مافي أسلوب الجناس من الأصالة . وتظهر هذه الأصالة جلية في كونه معبرا عن المبادىء والمفاهيم التي تمد أصيلة ومن صميم الإسلام وليس لزخرفه وتنميق الكلام . كما أنها تظهر فيما رأيته في هذا المنهج القرآني من التناسق والترابط بين المعنى واللفظ ، وما يشتملان عليه من جمال في الصياغة وروعة في الأداء . وهذا كله يبطل مااستقر في الأذهان لذى بعضهم من أن الجناس محسن لفظي

لاعلاقة له بالمعنى • وعلى العكس من ذلك فقد رأيت كيف أن الألفاظ والمعانى تتضافر فى هز النفوس المؤمنة والقلوب الحية لتستجيب لنداء الله •

إحكام التراكيب وتناسبها :

للقرآن الكريم مزايا فى نظمه وتأليف كلامه أعجزت فصحاء العرب وبلغاءهم • ومع أنه لم يخرج عن معهودهم فى لغتهم فقد جاء بالوجه المعجز فى بناء تراكيبه وارتباط كلامه ببعضه • الألفاظ تحيط بالمعنى فإذا أبدلتها بغيرها نجم عن ذلك تبدل فى المعنى يفسد الكلام ويذهب برونقه فتتدنى البلاغة •

وإذا تأملت بعض آيات الجناس فى القرآن الكريم تجدها تستهدف غاية فتبلغها فى إيجاز وعمق ،وفى بناء محكم وتركيب متناسب • يقول تعالى : " وجنى الجنتين دان ".[1] لابد أن يسأل القارئ نفسه عن الحكمة فى إخراج التعبير بهذه الصورة ،فما علاقة لفظة جنى ببقية الكلام؟!

التعبير الجناسى " وجنى الجنتين " بلغ مستوى من الجودة لانظير له • هناك اتساق ونظام ملتئم فى تأليف الكلام وصياغته • إن لفظة "جنى" تعنى مايجتنى من الشجر[2] وبمعنى آخر فهى اسم أو صفة مشبهة بمعنى المجنى[3]•

---

(١) سورة الرحمن : من الآية ٥٤ •

(٢) الصحاح مادة جنى •

(٣) روح المعانى للألوسى ،احياء التراث العربى بيروت لبنان :: ٢٧/ ١١٨ •

ولم يقل " ثمر الجنتين " لأن الثمر لا دلالة فيه للالتقاط ولكن الجنى يدل على الثمرة التي تجنى وتؤخذ . ولهذا كانت أوقع من غيرها يقول عبد القاهر : " وهل يقع في وهم ـ وإن جهد ـ أن تتفاضل الكلمتان المفردتان . من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم . بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية . أو أن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن ، ومما يكد اللسان أبعد ". (١)

ان لفظة "جنى" كما رأيت تستهدف غاية لا تحققها لفظة غيرها ، وهي في كلام لا بريق فيه ولا سحر . ألفاظه تطلبها معانيه في تركيب محكم . ثم يكتمل بعد ذلك المعنى بكلمة " دان" . ولا يخفى ما فيها من دلالة معنوية وعذوبة موسيقية تتلقفها الأسماع لما فيها من حروف متآلفة متآخية مع الجناس ، بالإضافة إلى ما تفيده من أن المجتنى قريب المتناول . وذكر المفسرون بأنه "قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع"(٢) ويؤيد ذلك قوله تعالى : "فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ"(٣) ويقول أبو عبيدة : ما يجتنى قريبا لا يعنى الجاني (٤).

وفي أول سورة الهمزة يقول تعالى : " وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ".(٥)

---

(١) دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني دار المعرفة بيروت : ٣٦ .

(٢) الكشاف للزمخشري طباعة باكستنية طهران : ٤/ ٤٩ .

(٣) الحاقة : ٢١ و ٢٢ .

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى نشر مكتبة الخانجي بمصر : ٢/ ٢٤٥ .

(٥) سورة الهمزة : الآية الأولى .

قيل نزلت الآية في الأخنس بن شريق ، وكانت عادته الغيبة والوقيعة وقيل في أمية بن خلف وقيل في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله (ص) وغضه منه • ويجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما •

يقال همز رأسه ، وهمز الدابة : بمعنى غمزها • وهمزه دفعه وضربه • قال رؤبة :(١)

ومن همزنا عزه تبركعا
على استه روبعة أو روبعا

وقيل لأعرابي : أتهمز الفأرة ؟ فقال السنور يهمزها(٢)
والهمز والمهماز حديدة تكون في مؤخر خف الرائض قال الشماخ :

أقام الثقاف والطريدة درأها كما قومت ضغن الشموس المهامز

واللمز : الطعن • وروى عن مجاهد الهمزة الطعان في الناس واللمزة الطعان في الانساب • وشاع استعمال الكلمتين في الكسر من أعراض الناس والغض منهم واغتيابهم والطعن فيهم •(٣) ويدل بناء

---

(١) لسان العرب مادة همز •
(٢) الصحاح مادة همز •
(٣) روح المعاني للألوسي ، إحياء التراث العربي بيروت لبنان : ٢٢٩/٣٠ •

فعله – بضم الفاء وفتح العين – على الاعتياد والكثرة مثل ضحكة ولعنة يطلقان على المكثر المتعود . قال زياد الأعجم :(١)

إذا لقيتك عن شحط تكاشرني وإذا تغيبت كنت الهامز اللمزة

وبناء على هذه المعاني نجد أن الآية تصور شخصا لئيمـــا يعيب الناس بلسانه وحركاته ولايقيم للأخلاق والكرامـة وزنا . وليس أدل على من باشر هذا الفعل القبيح وأنكى له وأزجر له من إطلاق لفظ الهمزة اللمزة عليه .

ودل الاستعمال على أن الصفتين راسختين متمكنتين منه . ولو استعرضت القاموس العربي لن تجد للذي يخلف الناس من ورائهــــم ويأكل لحومهم لفظا أكثر دلالة من هذين اللفظين . وهما في الحقيقة لب الكلام وزبدته واستحق صاحبهما النار التي تحطم مايلقى فيهـــــا .

النغمـــة الموسيقيـــــة:

للجناس نغمة موسيقية تنبعث من كلماته التي يجمعها الإلف والتآخي . وتتجلى فيها الحكمة الإلهية حيث تتوافر لديها كل مقومات الجمال الفـــني . ولا يفقد التعبير دلالته المعنوية من أجل الإيقاع .

---

(١) هو زياد بن سلمى ويقال زياد بن عمرو بن عامر من عبد القيــس . كانت فيه لكنة فلذلك يقال له الاعجم (الشعر والشعراء لابن قتيبــة نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت لبنان : ٣٤٣/١ .

لنتمعن فى قوله تعالى : "وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ "(١) لنرى ان كان جرس الألفاظ وريتها هو أساس كل شىء • الجناس الناقص : " لا تظلمون ولا تظلمون " يتلاقى فيه اللفظان فى وجه من أوجه التناسب الموسيقى بين الألفاظ ، ولكن النغمة الموسيقية ليست جديرة وحدها بالوقوف عندها فهى تأتى ملازمة للمعانى • ويرى على الجندى أن الجناس ينبغى أن يحقق بعد استكمال جمال اللفظ وصواب المعنى — نوعا من الجرس الرخيم والموسيقية الشاجية تكون فاتنة محمودة لا يضام لها واحد من اللفظ والمعنى ". (٢)

فالآية من أروع الأمثلة ذات العلاج النفسى ، وتتجلى فيها أسرار البيان المعجز الذى يعلو على غيره من الكلام فى دقة لا تبلغها دقة فى التعبير • ومعناها : إن تبتم من المعاملات الربوية فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون أحدا بأخذ الربا ولا تظلمون ببخسكم رؤوس أموالكم • فعلى صاحب المال أن يقتصر على رأس ماله •

إذن جاء الجناس ليحقق مبدأ من مبادىء العدالة فى الأرض لينصف به الدائن والمدين على حد سواء • إن العدالة الحقة تقتضى المشاركة وتبادل المشاعر فى المعاملات ، فلا يظلم أحد أحدا • فقوله تعالى : " لا تظلمون ولا تظلمون " بالنسبة للدائن يتمثل فى اقتناعه بأخذ رأس ماله وكبح جماح نفسه عن الميل للظلم وبالنسبة للمدين يتمثل فى عدم إثقال كاهله بأعباء الدين •

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٩ •

(٢) فن الجناس لعلى الجندى ، مطبعة الاعتماد بمصر ، نشر دار الفكر العربى : ٥٥ •

ولعل فى تقديم الظلم من جانب الدائن مايشعر بالتتابع المنطقى الذى يجتازه التعبير ليجفف به منبع الظلم الذى يتركز فى قلب الدائن . يوجهه القرآن أولا — وقبل المدين — ليكون يقظ الضمير ، يراعى ظروف الناس وأحوالهم . ثم يطمئن القرآن نفس الدائن بقوله " لا تظلمون — بضم التاء — فيحيط بالمعنى من جميع الوجوه . وهذا هو المنهاج القويم المتكامل ، يربط الألفاظ والمعانى فى صياغة متماسكة محكمة فى هذا الرصيد من العبارات التى يحدث إيقاعا وتناسبا موسيقيا بين الكلمتين .

وينقل أسلوب الجناس صورة صادقة للموت والبعث يوم القيامة فى صور وموجات موسيقية فيقول تعالى : " وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ".[1] والنغمة الموسيقية هنا تمس شغاف القلب فى حزن عميق حيث تنقل أهوال الاحتضار الذى هو نهاية الدنيا وبداية الآخرة وتربطه بالحساب والجزاء .

والتفاف الساق بالساق يعنى الموت . فالساقان أصبحا لايقويان على حمل صاحبهما بعد أن كان بهما جوالا . والمساق مصدر ميمى يعنى أنه يساق إلى الله وحكمه . ولفظا الساق والمساق ترجعان إلى أصل لغوى واحد . ولكل منهما معنى خاصا يتميز به عن الآخر . وفى الوقت نفسه يتميز التعبير بهما بدقة واتساق بين المعانى المتعاقبة وألفاظها مما يجعل بناء مترابطا ووحدة متماسكة .

---

(١) سورة القيامة : الآيتان ٢٩ و ٣٠ .

والآية فى مضمونها تصور عجز الإنسان عجزا كاملا أمام القـــوة الإلهية ، فالموت حقيقة من الحقائق تصوره الآيــة بصورة حسية مشاهدة تطالعك بعدها صورة مابعد الموت لتصور لنا الهيمنــة والقدرة الإلهية فى استسلام المرء واستكانتــه • فالأمر يومئذ لله يساق إليه العبــد ولا مفر من حســاب الله •

وعلى ضوء ماوضحت آنفا نجد سحرالبيان فى هذه الموسيقــى الداخلية التى تحدثها السمات المتعاقبة فى إيقاع بديع وتآلـــــف فى العبارات وسياق الألفاظ • وهذا التخصيص بتقديم " إلى ربـــك يومئذ " بجانب أنه يقصر المساق على الله وحده ولا أحد ســواه فإنه يجعل للتعبير جرسا أكثر انسجاما وأعذب وقعا فى النفس وإمتاعا للأسماع بتأخير لفظ " المساق " معه مما ساعد فى توزيع الأنغام الموسيقية فى أسلوب من النظم الرائع •

ولم ترد لفظة المساق إلا لأنها أشد ملاءمة حيث وقعت فأصابت موضعها وانسجمت مع ماقبلها • ولأجل ذلك كله جاء التعبير القرآنى أجمع للمعنى وأوضح للبيان • وأعذب فى الموسيقى • لا خلل ولا اضطراب فيـــه •

ومثل ذلك يقال فى قوله تعالى "إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ "(١) والسياق فى الآية حديث

---

(١) سورة الانعام : ٧٩ •

لسيدنا إبراهيم عليه السلام بين قومه أنه لايحب عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال كالشمس والقمر وغيرهما وفيه حث لقومه للابتعاد عن العقائد الزائفة • والمراد من توجيه الوجه قصده سبحانه بالعبادة والطاعة • فجاء الجناس فى مكانه فى قوله :"وجهت وجهى " • وبالإضافة إلى مايحدثه من إيقاع فإن كل كلمة أخذت مكانها من النظم حيث يطلبها المعنى يقول الألوسى : " من كان مطيعا لغيره منقادا لأمره فإنه يتوجه بوجهه إليه فجعل توجه الوجه إليه كناية عن الطاعة ".(١)

وشبيه بذلك قوله تعالى :" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِينِ الْقَيِّمِ ". (٢) يقول الطبرى : " فوجه وجهك يامحمد نحو الوجه الذى وجهك إليه ربك " للدين القيم " لطاعة ربك والملة المستقيمة التى لا اعوجاج فيها عن الحق ".(٣)

وأول مايقابلنا فى هذه الآية أنها تعرض الطاعة والعبودية بنفس أسلوب الآية السابقة • ومع أن الجناس قد اختلف فى ألفاظه فإن المعانى لاتختلف • يعرضها الله مرة أخرى فى أسلوب بليغ • فالتعبير

---

(١) روح المعانى : للألوسى إحياء التراث العربى بيروت لبنان :٢٠٣/٧ •

(٢) سورة الروم : ٤٣ •

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن للطبرى • مصطفى البابى الحلبى وشركاه الطبعة الثالثة : ٥١/٢١•

بلفظ أقم بمعنى قولك قام الأمر : اعتدل ، وقام الحق: ظهر واستقر ، والقيم : القويم المستقيم ، وأقام الصلاة : أداها كاملة ، وأقام دين الله أو كتاب الله أظهره وعمل به ".(١)

ومثال ماذكر أيضا فيما يتعلق فيه الروعة الموسيقية ودلالة المعانى الحقيقية قوله تعالى : " ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الا عباد الله المخلصين ". (٢)

ولايخفى مافى الجناس " منذرين والمنذرين " من الإيقاع الموسيقى بينهما ومن بقية ألفاظ الآية الكريمة ، ولايخفى أيضا ماتصوره الآية من الهول للذين لم يلتفتوا للإنذار فأهلكوا إهلاكا فظيعا ، واستثنى منهم المخلصون يقول الخازن "أى الموحدين نجوا من العذاب والمعنى أنظر كيف أهلكنا المنذرين إلا عباد الله المخلصين ".(٣)

إن هذا القليل من صور الجناس الذى عرضت له يثبت أنه جاء على نظم القرآن ، وحوى الحسن من جميع الوجوه ، فجمع إلى جمال اللفظ وإشراق العبارة تلاحم المعنى واتساقه وائتلاف الأنغام الموسيقية ، ومن هنا نجد أن الجناس لايأتى فى القرآن لمراعاة الأنغام وحدها وليس الهدف منه الجناس لذاته ، إنه يرد فى أسلوب محكم فى ألفاظ

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم ، الهيئة العامة للتأليف والنشر الطبعة الثانية : مادة قام .

(٢) سورة الصافات : آية ٧٢ و ٧٣ .

(٣) تفسير الخازن وتفسير البغوى بهامشه ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان : ٦/ ٢٤ .

جزلة ،حية قوية تؤثر فى النفس وتهز أعماقها . وتظهر قوتها وحيويتها عندما نراها ترد فى أحسن صورة وأجمل تعبير غير مقحمة ولا متكلفة فإذا كانت الفطرة السليمة والتعبير الصادق ،والأسلوب الجزل يفسر من كلمة يتحقق بها الجناس على نهج الشعراء المحدثين أمثال أبى تمام ومن سلك نهجه . فإن القرآن يترفع عن البهرج والزيف والتضليل فى الكلام . وسبحان الله أن يحدث ذلك فى كلام أحكم الحاكمين . أنظر إلى قوله تعالى : " أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ ".(١)

لو استبدلت لفظة "تذرون " بلفظة " تدعون" بفتح التاء والدال لحصل الجناس فى الآية لأن تدعون فى معنى تذرون . ولكن المعنى سيخسر كثيرا عند تحقيق الجناس. وهذا ما دعا إلى العدول عنه ليكون المعنى قويا بتركه .

يقول الرازى : " فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكلفات(٢) بل لأجل قوة المعنى وجزالة الألفاظ ".(٣) وقريب من هذا قول الشيخ كمال الدين الزملكانى : " التجنيس تحسين ، وإنما يستعمل فى مقام الوعد والإحسان ،وهذا مقام تهويل ،والقصد فيه المعنى ، فلم يكن لمراعاة اللفظ فائدة ".(٤)

---

(١) سورة الصافات : ١٢٥ .

(٢) يعنى بالتكلفات مراعاة الجناس وغيره من ألوان البديع .

(٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ،عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الثانية تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم : ٤٥٢/٣ .

(٤) نفسه : ٤٥٤/٣ .

ذكر بعضهم أن الالتباس قد يقع على القارئ بين "أتدعون" ـ بسكون الدال ـ و "تدعون" بفتحها ، فيجعلهما بمعنى واحد تصحيفا منه فيقرأ "وتدعون" بسكون الدال بدل فتحها ، ولا سيما أن خط المصحف كان لا ضبط فيه ولا نقط .(١)

وهناك من يرى أن مراعاة اللفظ لا فائدة فيه وإنما القصد للمعنى . ويمكن أن يرد عليه بأن الألفاظ والمعاني في القرآن متلازمة مع بعضها . ومن يعقد موازنة في ذلك يجد أن القرآن له طريقة فريدة وعميقة في استعمال ألفاظه ومعانيه .

إن خير من أجاب على هذا الأمر هو الجويني(٢) الذي قال "يذر" أخص من "يدع" وذلك لأن الأول بمعنى ترك الشيء اعتناء ، بشهادة الاشتقاق ، نحو الإيداع ، فانه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها ، ولهذا يختار لها من هو مؤتمن عليها ، ومن ذلك الدعة بمعنى الراحة . وأما "تذر" فمعناها الترك مطلقا ، والترك مع الإعراض والرفض الكلي ، ولا شك أن السياق إنما يناسب هذا دون الأول ، فأريد هنا تشنيع حالهم في الإعراض عن ربهم ، وأنهم بلغوا الغاية في الإعراض .(٣)

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر الطبعة الثانية تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم : ٣/٤٥٢ و ٤٥٣ .

(٢) هكذا ذكره الزركشي دون تعريف (كتاب البرهان في علوم القرآن ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر الطبعة الثانية تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم : ٣/٤٥٣) .

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، الطبعة الثانية تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم : ٣/٤٥٣ .

ومثال ذلك يقال فى قوله تعالى " وما أنت بمؤمن لنا ولــــو كنا صادقين " (١) فعدل عن " ولو كنا مؤمنين " مع أنه يؤدى معـنى الأول مع زيادة رعاية التجنيس ، ويجيب على ذلك الزركشى بقولــه " والجواب أن فى " مؤمن لنا " فى المعنى ماليس فى مصدق ، وذلك أنك إذا قلـت " مصدق لى " فمعناه قال لى : صدقت ، وأما " مؤمن " فمعناه مع التصديق إعـطاء الأمن ، ومقصودهم التصديق وزيادة ، وهو طلب الأمن فلهذا عدل إليه ". (٢)

---

(١) سورة يوسف : آيـة ١٧ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم : ٣/٤٥٤ .

٢ ـ السجع

تمهيد :

يمتاز القرآن بأنغام موسيقية تنبعث من خلال ألفاظه وتعابيره تنتظم في اللفظة المفردة وفي الآية وفي السورة بأكملها . ويعتبر السجع أحد الفنون البلاغية التي تنبعث فيها الأنغام الموسيقية بصورة أكثر وضوحا مما في غيره . وهو في القرآن يصور لوحات فنية كاملة يقول الدكتور صبحي الصالح : "أرأيت لونا أزهى من نضرة الوجوه السعيدة الناظرة إلى الله ، ولونا أشد قتمة من سواد الوجوه الشقية الكالحة الباسرة في قوله تعالى "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ"(١) لقد استقلت في لوحة السعداء لفظة ناضرة بتصوير أزهى لون وأبهاه ، كما استقلت في لوحة الأشقياء لفظة باسرة برسم أمقت لون وأنكاه ".(٢)

فالسجع فن يتمكن من النفس ويحسن موقعه منها إذا كان خاليا من التكلف والصنعة . ولا يكاد يخلو منه كلام بليغ لحسنه وجمال رونقه يقول أبو هلال العسكري : "لا يحسن منثور الكلام حتى يكون مزدوجا ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلا عما تزاوج في الفواصل منه ".(٣)

---

(١) سورة القيامة : ٢٢ ـ ٢٥ .

(٢) مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح دار العلم للملايين : ٣٣٥ .

(٣) الصناعتين لأبي هلال العسكري عيسى البابي الحلبي وشركاه تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٢٦٦ .

والسمع يلتذ للنوع الجيد من السجع لما فيه من نبرات ووقفات موسيقية بين أجزاء القول، والائتلاف بين أجزاء القول ييسر ويسهل مهمة الحفظ . قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي : لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ، قال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ولكني أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد ، وبقلة التفلت وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره ".(١)

وينبغي أن يتوخى في السجع الاعتدال ودلالة الألفاظ على المعاني . ولكي تتم الإبانة على المعاني ويسهل الإفهام والحفظ ينبغي أن تتسق أجزاء السجع وتنتظم على نحو ما يأتي :

أولاً : اختيار الألفاظ الجيدة التي تدل على المعاني وتمكن من فهمها بحيث يكون اللفظ تابعا للمعنى لا المعنى تابعا له .

وفي ذلك حكى الجاحظ عن بشر بن المعتمر أنه قال في وصيته في البلاغة : إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ، ولا صائرة الى مستقرها ، ولا حالة في مركزها ، بل وجدتها قلقة في مكانها ، نافرة عن موضعها ، فلا تكرهها على القرار في غير موطنها ، فإنك إذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وإذا

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . تحقيق عبد السلام محمد هارون : ٢٨٧/١ .

أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا فيها ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، وأزرى عليك من أنت فوقه ".(١)

ثانيا : أن تكون الألفاظ المنتقاة لذيذة فى السمع ، يراعى فيها وحدة النغم والجرس الموسيقى دون أن يختل المعنى . إذ أنه ليس من البلاغة أن يهمل المعنى ويهتم بتحسين اللفظ وحده .

ثالثا : أن تكون كل فاصلة دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها أو مؤكدة لمعنى الأولى وألا تكون تكرارا لا فائدة فيه . ففى التكرار نوع من مستقبح لا يزيد الكلام بهجة ولا يمنح فائدة وإنما يدل على نضوب المعرفة وجدب الفكر . وفيه نوع يخلع على الكلام رونقا وجمالا وزيادة فى الفائدة بما يحمل من معانى وأخيلة وعواطف جديدة ويضفى عليه أنغاما محببة لذيذة .

رابعا : ألا تكون المعانى مبهمة مشككة تقبل الشئ وضده .

خامسا : تنسق الفواصل وفق المعانى بحيث لا تنقضى الفواصل قبل انقضاء المعنى ، فالسامع يتشوق إلى النهاية فلا يكون لذيذا فى السمع أن يضطر للوقوف للفاصلة بسبب معنى أطول منها . وإن انتهاء المعنى بانتهاء السجعة له وقع فى النفس وبه يتم الاقتناع بالمعنى ويلتذ السمع بالنبرات والوقفات بين أجزاء القول .

---

(١) سر الفصاحة ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده تعليق عبد المتعال الصعيدى : ٢٠٢ .

ومما يتميز به السجع في القرآن أنه جاء جامعا لكل هـذه المزايا فجاءت فواصله متوازنة ، ونظمه بعيد عن كل تكلف وصنعة وألفاظه بريئة من التعقيد وأسلوبه يؤدى غرضه كاملا في غير نقص • وسنحاول – بإذن الله وتوفيقه – الوقوف على بعض أسرار الجمال في سجع القرآن •

موقف الإسلام من السجع:

لمناقشة هذه القضية لابد من التعرض لموضوعين أساسيين هما لب الأمر كله وبهما يتحدد موقف الإسلام من السجع • وأول هذين الموضوعين هو سجع الكهان وكراهية الرسول (ص) له• وثانيهما يدور حول السجع والفاصلة •

أ– سجع الكهان: لقد كره الرسول (ص) سجع الكهان وإن كراهيته كانت قاصرة عليه وحده فقد ورد أنه قضى في جنين امرأة ضربتها الأخرى فسقط ميتا بغرة (١) على عاقلة الضاربة (٢) • قال رجل منهم : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل ، ومثل دمه يطل ؟ (٣) قال صلى الله عليه وسلم : إياك وسجع الكهان •(٤)

---

(١) الغرة : العبد أو الأمة ، الصحاح مادة غرر •

(٢) عاقلة الرجل : عصبته ، وهم القرابة من الأب الذين يعطون دية من قتله خطأ •

(٣) أُطِلَّ دَمُهُ ، وَطَلَّهُ الله وأَطَلَّهُ : أهدره "الصحاح مادة طلل" •

(٤) لسان العرب مادة سجع والصناعتين ، عيسى البابي الحلبي وشركاه تحقيق على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٢٦٧ •

لقد أنكر الرسول (ص) ذلك من الرجل لأنه حاول تقليد الكهان . يقول أبو هلال العسكري: "ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعا لقال : أسجعا ؟ ثم سكت ."[1] ويقول الأزهري صاحب كتاب التهذيب أنه صلى الله عليه وسلم كره السجع في الكلام والدعاء لمشاكلته كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنونه . فأما فواصل الكلام المنظوم الذي لا يشاكل المسجع فهو مباح في الخطب والرسائل"[2] وقال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن ، لما كان عليه بأس ، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق فتشادق في الكلام .[3]

يخلص الجاحظ إلى أن النهي والتحريم لم يستهدفا أسلوب السجع وطريقته بصورة مطلقة ، وإنما وقع النهي لأن السجع كان قبيل الإسلام وسيلة الكهان ، ولغة الجاهلية ومعتقداتها الوثنية . فالخوف من أن يظهر تأثير الجاهلية قائما في الإسلام ، وهو في بداية عهده ، عن طريق التأثر بجمالية السجع والاحتفال به ، كان السبب في النهي والتحريم . وفي رأي الجاحظ أنه مادامت العلة الأساسية في النهي قد زالت مع مرور الزمن فإن النهي يجب أن يزول .[4]

---

(١) الصناعتين نفس الطباعة السابقة : ٢٦٧ .

(٢) لسان العرب مادة سجع .

(٣) البيان والتبيين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر تحقيق عبد السلام محمد هارون : ١/ ٢٨٧ .

(٤) نفسه .

إن الرسول (ص) لم ينه عن مطلق السجع فالقرآن الكريم ضرب المثل الأعلى فى الآيات المسجوعة . ولسنا فى حاجة إلى إزالة النهى عن سجع الكهان لما يشتمل عليه من أشياء منافية للدين وللسجع السليم. والذى ينظر فى سجع الكهان يجد أنه ثقيل لما يتصف به من قبح الصفات.

أولا : التكلف فى سجع الكهان ظاهر مما يجعله ثقيلا تنفر منه الطباع السليمة كقول الكاهن " والأرض والسماء ، والعقاب الصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر بنى العشراء ، للمجد والسناء ".[1] ومثل هذا السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف. وإذا سلم السجع من جنس هذا النوع من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن مستقبحا وليس هناك أحسن منه .

ثانيا : المعنى فى سجع الكهان يتبع اللفظ ، أى أن السجع يقصد لذاته ثم يحال المعنى عليه .

ثالثا : يعمد الكهان عادة إلى الغموض فى العبارة فى كثير من أحكامهم لكى يحتمل الكلام كثيرا من المعانى المتوقعة . يأتون بالكلام المشكل الذى يوهم الشئ وضده وتقليل السامع لاحتماله لأكثر من معنى مثال ما عرض " لرجل من الكهان مع بعض الملوك، فإنه قال : إذا عبرت النهر الفلانى ، أتلفت رياسة عظيمة فظن ذلك أنها رياسة بعض أعدائه . فلما عبر النهر ظفر به عدوه وهلك، فكان الذى أتلف رياسة نفسه ".[2]

---

(١) البيان والتبيين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١/ ٢٨٩ .

(٢) تلخيص الخطابة لابن رشد ٥٦٨ ، نشر لجنة احياء التراث العربى، تحقيق وشرح الدكتور محمد سليم سالم .

رابعا : الاكثار من الكلمات الغريبة والحوشيـة .

خامسا : الاعتماد على الإيقاع الرنان للألفاظ الموحى بألوان من المشاعر الغامضة كقول الكاهن : " والسماء والأرض والقرض والفرض والغمر والبرض "(١) يبتغى الكاهن بذلك خداع الناس وإيهامهم بأنهم يستمعون من خلال كلامه إلى طلسمات الشياطين .

من أجل ذلك وغيره كره الرسول (ص) سجع الكهان وأنكره . فهـو فهو أداة للباطل، وعدة للدجل وإسفاف فى الكلام ولكنه (ص) لم يكـره السجع كله . فقد ورد أنه استحسن الشعر من أصحابه وكان لـه شعراء يدافعون عن الإسلام أمثال عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب ابن مالك، وهو الذى قال لحسان : أهجهم وروح القدس معك . وإذا كان قد سمع الشعر واستحسنه وأمر شعراءه ، وإذا كان صحابته قد استمعوا للشعر واستنشدوه وظهر فيهم الشعراء فكيف نعقل حرمة السجع "وكيف يحل ماهو أكثر ويحرم ماهو أقل "(٢) ويقول الجاحظ : " وكان الذى كره الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد رئيا من الجن "(٣)

---

(١) الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى ، عيسى البابى الحلبى وشركاه ، تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٢٦٦ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر تحقيق عبد السلام محمد هارون : ٢٨٨/١ .

(٣) نفسه : ٢٨٩/١ .

إن كراهية الرسول (ص) للسجع – كما سبق أن ذكرنا – لم تكن كراهية لمطلق السجع فقد سمع السجع عن الرسول (ص) كقوله للانصار: [٢] " إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع " وقوله (ص) : " رحم الله من قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم " .

ومن يتأمل أسلوب القرآن يجد أن السجع من أهم مميزاته في بداية الدعوة الإسلامية بمكة . إن الأحوال والظروف كانت تستدعي جملا قصيرة سريعة ، تثير انفعال النفوس في آيات متتابعة . وهذا مما دعى الكفار يصفون القرآن بأنه شعر مرة وبأنه سحر مرة أخرى وغير ذلك مما يؤثر في النفوس ويعمل فيها عمل السحر . وكان أسلوب السجع أليق الأساليب في تلك الفترة إذ أن لكل مقام مقالا ولكل موضع مايليق به ، فكان أسلوب السجع من أكثر الأساليب اتصالا بالوجدان .

إذن ليس ثمة مايدعو لانكار السجع في القرآن بحجة أن الكهان كانوا يسجعون . إن السجع طريقة في الأداء تضعف وتقوى كغيرها من فنون القول يقول ابن سنان " والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا ويسيرا بلا كلفة ومشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه ، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله ، وورد ليصير وصلة إليه ".[٢] والقرآن جمع كل محاسن السجع

---

(١) الصناعتين لابي هلال العسكري ، عيسى البابي الحلبي وشركاه تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٢٧ .

(٢) سر الفصاحة ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده وتعليق عبد المتعال الصعيدي : ٢٠١ و ٢٠٢ .

وبلغ به في الذروة في البلاغة .

السجع والفاصلة :

وقف العلماء من السجع في القرآن بين مؤيد وجوده ومعارض له . فالذين كرهوا السجع يرون أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه . فأذهب طلاوة الكلام وأزال ماءه . وحجة من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها ، ويظهر آثار الصنعة فيها ولو لا ذلك لم يرد في كلام الله تعالى وكلام النبي (ص) والفصيح من كلام العرب ، وكما أن الشعر يحسن بتساوي قوافيه كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف في فصوله .(١)

ويطلق هؤلاء الذين يتورعون من القول بالسجع لفظة الفاصلة على آيات السجع استنادا على قوله تعالى : " كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ "(٢) ويعرفها السيوطي بقوله : " هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع "(٣) وقال القاضي أبو بكر : الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها إفهام المعاني "(٤) ويقول الزركشي " فاصلة الآية كقرينة السجعة في النثر وقافية البيت في الشعر ".(٥)

---

(١) نفسه : ٢٠١ .

(٢) سورة فصلت: ٣ .

(٣) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده الطبعة الثالثة : ٢/٩٦ .

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر الطبعة الثانية تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم : ١/٥٣ .

(٥) نفسه : ١/٥٤ .

وذهب الرماني — من المعارضين للسجع — إلى أن الفواصل بلاغة والسجع عيب وتبعه القاضي أبو بكر الباقلاني ونقل عن الأشعرية عدم وجود السجع في القرآن ، وذكر أن أبا الحسن الأشعري نص على ذلك في غير موضع من كتبه .(١)

وذهب كثير من مخالفيهم إلى إثبات السجع في القرآن ، وذكر أنه مما يتبين فيه فضل الكلام ، وأنه من فنون البلاغة التي يبين فيها التفاضل في البيان والفصاحة كغيره من الفنون الأخرى ، ويتعرض منهم الخفاجي للرماني فيقول : " فأما قول الرماني — إن السجع عيب والفواصل بلاغة على الإطلاق فغلط ، لأنه ان أراد بالسجع مايكون تابعا للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة ، والفواصل مثله ، وإن كان يريد ماتقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلف ، فذلك عيب ، والفواصل مثله " .(٢)

ونجيب على ذلك كله بأن القرآن نزل بلغة العرب وأساليبهم فجاءت فواصله مسجوعة وغير مسجوعة ، فهي لم تلتزم حرف الروي التزام الشعر ولم تهمله إهمال النثر المرسل ، فقد وردت فيه الفواصل المتماثلة والمتقاربة ، والمتماثلة هي الفواصل المسجوعة والمتقاربة غير متماثلة

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر الطبعة الثانية تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم : ٥٤/١ .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، تعليق عبد المتعال الصعيدي : ٢٠٤ .

كقوله تعالى : الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ "[1] وكقوله تعالى : " قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ " .[2]

ويلاحظ أن الفواصل المتماثلة " المسجوعة " تشيع في الآيات والسور المكية بينما تغلب المتقاربة على الآيات المدنية[3] ومن السور القصار التي جاءت فواصلها متماثلة القمر ـ القدر ـ العصر ـ الأعلى الليل ـ الشمس ـ الإخلاص ـ الفيل وغير ذلك كثير .

كل هذه السور جاءت مسجوعة في القرآن، ولعل الذين يتورعون عن إطلاق السجع على آيتها هو رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بالكلام المروى عن الكهنة وغيرهم .

ولقائل أن يقول : إذا كان السجع محمودا فلماذا لم يرد القرآن كله مسجوعا :

ونجيب على ذلك بأن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم في الكلام . ولا يحسن أن يكون الكلام كله مسجوعا لما في ذلك من التكلف والتصنع الممقوت . ولا يحسن أيضا أن يجئ الكلام على نمط واحد لما في الطبع من الملل والسأم يقول ابن سنان "إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعادتهم وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعا ، لما في ذلك من امارات التكلف والاستكراه والتصنع لا سيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد كله

---

(١) سورة الفاتحة : ٢ و ٣ .
(٢) " ق : ١ و ٢ .
(٣) الفاصلة في القرآن لمحمد الحسناوي مطبعة دار الاصيل حلب: ١٧٢ .

مسجوعاً جرياً على عرفهم فى الطبقة العالية من كلامهم ، ولم يخل من السجع لأنه يحسن فى بعض الكلام على الصفة التى قدمناها ، وعليها ورد فى فصيح كلامهم ، فلم يجز أن يكون عالياً فى الفصاحة وقد أخل بشرط من شروطها، فهذا هو السبب فى ورود القرآن مسجوعاً وغير مسجوع والله أعلم ". (١)

وعلى ذلك فلا غضاضة من القول بأن القرآن الكريم جاء على ضروب من الفصاحة العالية التى لا يخلو منها السجع الذى يحسن به الكلام لبعدة من التكلف والصنعة الممقوتة • وإذا تأكد لنا ذلك تماماً حق لنا أن نتعرض لهذا السجع الذى يجئ فى القرآن على نمط فريد من البلاغة الذى لنرى ارتباطه السجعة فيها ببقية الآية ولنرى دوره فى خدمة العقيدة وما فيه من جاذبية فى النغم وغير ذلك من أسرار الجمال •

ارتباط السجعة بما قبلها :

ليس السجع فى القرآن مناسبة لفظية يستريح لها السمع فحسب بل فيه من بدائع الأسرار ودقائق الأغراض مايتجاوز ذلك إلى ارتباط السجعة بما قبلها من الكلام الذى يجئ تمهيداً لها وينحدر نحوها لتصيب موقعها بحيث تكون مستقادة للمعنى ، ولو حذفت لاختل المعنى •

ومن ذلك قوله تعالى : "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ • وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ" (٢) فختمت الآية الأولى بقوله تؤمنون "(٢)" والثانية بقوله

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى، مطبعة محمد على صبيح وأولاده تعليق عبد المتعال الصعيدى ، ٢٠٥ •

(٢) سورة الحاقة : ٤١ و ٤٢ •

" تذكرون " . والسر فى ذلك أن القرآن مباين للشعر الذى هو من كلام البشر فهو كلام الله سبحانه وتعالى فناسب أن تختم الآية بالإيمان لأن المقام يقتضى ذلك . وأما الآية الثانية لما اقتضى الأمر ذكر الكهنة الذين يدعون معرفة الغيب والقرآن مباين لسجعهم كان من المناسب أن يتذكروا ذلك ويتعظوا به فختمت الآية بقوله "تذكرون" .

وقوله تعالى : " وَهُوَ الذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ قد فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الذِى أَنشَأَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قد فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ".(١)

ختمت الآية الأولى بقوله "يعلمون" والثانية بقوله "يفقهون" والثالثة بقوله "يؤمنون" . فاجتمعت الفواصل الثلاث وجاءت مختلفة هكذا لغرض معنوى وسر بلاغى قال الصادى :" عبر هنا بـ "يفقهون" إشارة إلى أن أطوار الإنسان وما احتوى عليه أمر خفى تتحير فيه الألباب . بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد ولذا عبر فيها بـ "يعلمون".(٢) وجاء التعبير مناسبا لكل موضوع . الاهتداء بالنجوم فى ظلمات الليل والبر والبحر من أقوى الدلائل على قدرة الله وعظمته للمتدبر فى آياته ومقام الهداية

---

(١) سورة الانعام : ٩٧ ــ ٩٩ .

(٢) صفوة التفاسير للصابونى دار القرآن الكريم بيروت : ٨٧/٢ .

بالنجوم يقتضى العلم بها . وخلق الإنسان وإبداعه من نفس واحدة هى آدم عليه السلام وذكر استقرار النفوس فى الأرحام فيه من الأسرار والدقائق لمن يفقه ذلك ، وذكر الثمار والزروع وإخراجها من الأرض بالماء على اختلاف أشكالها وألوانها وأجناسها من الدلائل على قدرة الله الباهرة ووحدانيته التى يناسبها التصديق بذلك .

وقوله تعالى : " أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ . أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ "(١) جاءت الموعظة فى الآية الأولى مسموعة وهى أخبار الأمم الغابرة الذين كذبوا برسلهم فناسب ختمها بقوله " يسمعون " ، وجاءت الموعظة فى الآية الثانية مرئية وهى قدرة الله تعالى على إحياء الأرض اليابسة الخالية من النبات بالماء فتنتج أنواع الزروع والثمار التى تناسب الدواب وتناسب الناس فناسب أن تختم بقوله "يبصرون " .

ان قوله تعالى فى كلام السحرة : " قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِىَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى "(٢) فيه من الدقة فى اختيار السجعة التى جاءت موافقة لما قبلها ، فلو جاء التعبير فى السجعة مختلفا فقيل "إما أن تلقى وإما أن نلقى " لكان التعبير ميتا باردا . ولكن التعبير

---

(١) سورة السجدة : ٢٦ و ٢٧ .

(٢) " طه : ٦٥ .

القرآن فيه قوة فى التحدى ودلالة على الثقة فى النفس، فقد خيروه بين أن يبدأ هو أو يكونوا هم البادئين ، وهم فى كلتا الحالتين يثقون فى انتصارهم، ولكن الله سبحانه وتعالى نصر نبيه عليهم .

فى التقديم والتأخير ابداع وإحكام وجمال يراعى فيه القرآن نسق السجع وعمق المعنى كقوله تعالى : " فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى "(١) وأصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول . ولكن بتأخير الفاعل اتسق الكلام مع ماقبله فجاء مسجوعا ، وهناك حكمة أخرى وهى أن تقديم الخيفة يوحى بأن الأمر جلل فى نفس سيدنا موسى عليه السلام لأنه رأى شيئا هائلا ، ثم تبدل الحال فقال له الله سبحانه وتعالى : " قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى ".(٢) وقد اقتضى المقام تقديم " الخيفة " لما لها من وقع وأثر فى النفس، وبجانب ذلك فإن النفس تتشوق لفاعل "أوجس" فوقع فى موقع بعد أن أخر .

قوله تعالى : " فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى " (٣) تقدم فيه ذكر الآخرة على الأولى خلافا لقوله تعالى " لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ".(٤) وهذا يستقيم مع الحمد والثناء لله تعالى فجاء التعبير متسقا مع بعضه . وأما الآية الأولى بها تناسق مع ماقبلها من حيث المعنى والصورة ، روعى فيها

---

(١) سورة طـه : ٦٧ .
(٢) " " : ٦٨ .
(٣) " النجم : ٢٥ .
(٤) " القصص : ٧٠ .

جمال السجع وروعته ومناسبة ماقبلها من المعنى الذى يقول فيه عز وجل : " أم للإنسان ماتمنّى . فَلِلَّهِ الآخِرَةُ والأُولَى " والمراد بالإنسان هنا الكافر الذى نسى الله وتعلق بأهداب الدنيا واتبع هدى نفسه فيما تطلبه فناسب أن يذكر هذا بالآخرة أولا وأن الله مالك الدنيا والآخرة . ويقول فى ذلك الصابونى : " وهذه الآية تجر بذيلها على من يلتجىء لغير الله طلبا للفانى ".(١) ففى التقديم هنا تناسق مع نهايات الآيات فى السورة وبيان على أهمية المقدم.

أما قوله تعالى : " فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ".(٢) فقد قيل فيه أن هارون عليه السلام قدم ليقع موسى مؤخرا فى اللفظ ليناسب السجع . يقول الزركشى : "وأقوى ما استدلوا به الاتفاق على أن موسى أفضل من هارون عليه السلام . ولما كان السجع قيل فى موضع " هارون وموسى " ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيل : "ياموسى وهارون ".(٣)

---

(١) تفسير جزء والذاريات للصابونى . مكتبة الغزالى بدمشق ومؤسسة مناهل العرفان ببيروت : ٤٨ .

(٢) سورة طه : ٧٠ .

(٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر الطبعة الثانية تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم : ١/٥٥ .

وتعرض علماء كثيرون لهذا الرأى ونفوا أن يكون المراد السجع فى الآية يقول الباقلانى " وأما ماذكروه فى تقديم موسى على هارون فى موضع وتأخيره فى موضع لأجل السجع ، ولتساوى مقاطع الكلام فمردود ، بل الفائدة فيه إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا ، وذلك لأن الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة ، وتتبين البلاغة ، ولهذا أعيدت كثير من القصص فى مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة تنبيها بذلك عن عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرر ".(١)

يقول الدكتور محمد الحمزاوى بأن هارون أفصح من موسى عليهما السلام وأكبر منه بثلاث سنوات ، وهما مؤهلان تسوغان تقدمه فى أحد المواضع حين يذكران ".(٢) ويقول عبد الكريم الخطيب : " فهذه المقولات الثلاث التى حكاها القرآن على لسان السحرة هى جميعها من مقولاتهم فى تلك الحال ... فقال بعضهم : " رب هارون وموسى " وقال بعض آخر " رب موسى وهارون " وقال بعض ثالث "رب العالمين " وقال بعض رابع .. وخامس وسادس وهكذا ... قالوا جميعا مقولات تدل على الإيمان بالله ... قالوها بأساليب مختلفة وبصور متباينة جهر بها بعضهم وخافت بها بعضهم ... ومحال أن يكونوا جميعا قالوا قولا واحدا على صورة واحدة ... فذلك مالايتفق لهذا الجمع الكثير ، ولا يشهد له واقع الحياة ... وكان الذى حكاه القرآن من مقولاتهم هو الوجه الغالب فيها ... وهذا مايتفق وصدق القرآن وإعجازه ".(٣)

---

(١) نفسه : ٥٦/١ .

(٢) الفاصلة فى القرآن لمحمد الحسناوى مطبعة دار الأصيل حلب : ١٢٨ و١٢٩ .

(٣) نفسه : ١٤٠ .

الذى يفهم من تقديم هارون على موسى فى هذه الآيــــة أن هناك أمرا اقتضى هذا الترتيب بجانب مايبدو من جمال السجـــع • وهناك مواضع أخرى قدم فيها موسى على هارون ينبغى أن نذكرهـــا أولا لتساعدنا فى معرفة سر التقديم فى الآية السابقة : وهذه الآيات هى :

١ـ قوله تعالى : "وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ • وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ـ سورة الصافات الآيتان ١١٤و١١٥•

٢ـ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ـ الصافات الآية ١٢٠ •

٣ـ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ • قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ • رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ـ سورة الشعراء الآيتان ٤٦ ـ ٤٨ •

٤ـ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ • قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ • رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ـ الأعراف الآيات ١٢٠ ـ ١٢٢ •

التقديم والتأخير جاء لحكمة الهية منشودة يصور فيها القرآن دقائـــق الفروق بين التعابير •

ماجاء فى سورة الصافات ليس فيه سرد لقصة هارون مع السحـــرة • وورد فى آيات سورتى الشعراء والأعراف • ونلاحظ فيهما قولا إضافيا فـــى السحرة وهو "آمنا برب العالمين" • وهذا استيعاب لأصل الإيمان واستجابة من السحرة للدعوة ، بعد أن عفت وجوههم وخروا ساجدين • وجاء قوله تعالى "رب موسى وهارون " بدلا مما قبله فى اتحاد تام معه وامتزاج معنـــوى وكأن التعبيرين أفرغا فى قالب واحد • وفى ذلك دليل على الإيمان والإذعان والاستجابة لدعوة الرسولين وهنا يلزم الترتيب لسبق الأصل وهو الإيمـــــان برب العالمين • "

ولما لم يذكر فى سورة طه قول السحرة "آمنا برب العالمين" اقتضى المقام تأخير موسى على هارون لأن موسى هو العمود والقوام الذى يقوم عليه أمر الدعوة ، ويجعل هارون معينا له يساعده ويشد من أزره ، وهو شريكه فى مهمته • فتحقق بتأخير موسى معنى خلاف لو قدم • فهو الذى ألقيت عليه تبعات الدعوة أساسا فلو قيل "آمنا برب هارون" لكان الكلام ناقصا فيزداد قوة وكمالا وترتقى درجة الإيمان عند ختم الكلام بموسى • وهذا إضافة إلى ما روعى من روح السرد فى الآيات • فإن لم يقدم ما قدم ولم يؤخر ما أخر لم تحصل تلك الصورة وتلك الفوائد الجليلة •

دور السجع فى خدمة العقيدة :

السجع كما سبق أن بينا — محسن لفظى عبر به الجاهليون وازداد تطورا وعمقا بالقرآن الكريم ، وكان له أثر ودور كبير فى مواجهة طغاة مكة المعاندين الذين لقى منهم النبى (ص) فى بداية دعوته ألوانا من الإنكار والاستكبار •

اقتضت سنة الله فى الأرض أن تقوم المعارك بين الحق والباطل ، وتواجه دعوة الحق بعداوة المبطلين الذين يسخرون منها ويكذبونها يقول تعالى : "وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ".[1] وكانت الجاهلية لا ترضى بسيادة الإسلام ،

---

(١) سورة سبأ : ٣٤ •

لا تطيق وجوده • ولكن الإسلام نظام يتغلغل فى شئون الحياة فلابد أن يكون له نظام مستقل ، لأنه يأبى ويرفض ما يؤمن به التجمع الجاهلى •

وكان السجع هو الفن الأكثر مناسبة للتعبير به فى هذه المرحلة الأولى من مراحل الدعوة الإسلامية • كانت طبيعة الموقف تتطلب سوق الحجج والبراهين والشواهد فى فواصل موجزة قصيرة تتوالى فيها المعانى دافقة ، وبحسن موقعها فى السمع ووقوعها فى النفس • فانطلق القرآن يفرض نفسه بالحجة القوية التى تصدع أمامها جبروت الوثنية وتزلزلت أقدامها • وجاء السجع متجنبا التعقيدات والزخارف اللفظية فى آيات تتميز بوضوح الفكرة وحرارة التعبير وتجانس الصوت • وتمكن من هدم عقائد المشركين وأقبل الناس على الدين الجديد زرافات ووحدانا •

لقد دخل عليهم القرآن من باب مألوف لديهم مرغوب عندهم • وهو باب متصل بالإحساس والعاطفة خال من التنميق والزخرفة يوحى به الطبع ويقضى به سياق المعنى • ولذا كان أدعى إلى التأثير والاستجابة • جذب به القرآن أسماعهم وشدها نحوه ، ومن خلال النغم الجذاب قدم لهم معانيه السامية •

ان من يقرأ السور الأولى التى نزلت بمكة يجد طابعها السجع كسورة العلق والمدثر والمزمل والعاديات والتكوير والذاريات وعبس والأعلى والنجم والشرح والتكاثر وغير ذلك من السور • وقد ترددت فيها مفاهيم العقيدة الصحيحة • وهى العقيدة التى دعا لها أنبياء الله قبل سيدنا محمد عليه السلام وهى عقيدة واحدة لا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة ، منزلة من رب عليم خبير • والآيات القرآنية تقرر بوضوح وجلاء وحدانية الله وحقيقة البعث وصحة نبوة الرسول (ص) •

وحدانيـة اللـــه :

يقرر القرآن فى أسلوب السجع أصول العقيدة ليرسخها فى النفوس وتعرف ربها وتخضع له . فأول أصول الإيمان الإقرار بوحدانية الله سبحانه وتعالى وعدم اتخاذ شريك معه . يقول تعالـــــــى : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَـدٌ . اللَّهُ الصَّمَـدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُـنْ لَهُ كُفُوًا أَحَـدٌ ".(١)

عرضت الآية قضية الإيمان بهذا السجع الموجز ، فحققت غايـــة عظمى من غايات الدعـوة وأهدافها . ارتفع الصوت القرآنى لينزه اللــه عن صفات الشريك . والعرب كانوا يعترفون بوجود إله خالق للكـــون ولكنهم اتخذوا له شركاء يقربونهم زلفى إليه . وعندما جاءهم القـرآن يقول بإله واحد تعجبوا من ذلك وحكى القرآن ذلك فقال : " وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ "(٢) وينبه إلى الإشراك بالله ويدمغــه بالبرهان فيقول تعالى "أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ . لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ "(٣) عرضـت

---

(١) سورة الاخلاص : ١ ـ ٤ .

(٢) سورة ص : ٤ ـ ٥

(٣) سورة الزمر : ٢ ـ ٥

الآيات لوحدانية الله سبحانه وتعالى وخضوع الكائنات له فلو كان له شريك لما وجد هذا النظام الكونى البديع كما قال فى آية أخرى " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا "(١) فهو يخاطب العقول ويمتلك الأفئدة بإشراق عباراته وقوة منطقه واستدلاله .

وللقرآن طريقته الفذة فى مجادلة الكفار واثبات وحدانية الله . وهو يدعو إلى الالتجاء إلى الله فى كل الأحوال يقول تعالى : " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ . مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ " . ويقول تعالى : " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِن شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ . وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ " .

ويلفت النظر إلى السموات والأرض للتفكير فى القدرة الإلهية العظمى وتدبير الله وعجائب صنعه . ويدعو للانطلاق فى ملكوت الله فهو أكبر دليل على وحدانية الله لمن يريد أن يستيقن ويملأ نفسه بالعبرة والموعظة . تأمل قوله تعالى : " الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ . وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ " .(٢) ويقول عز وجل : " أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ " .(٣)

---

(١) سورة الانبياء : ٢٢ .

(٢) " تبارك : ٣ ــ ٥ .

(٣) " ق : الآيتان ٦ و ٧ .

أنظر إلى القرآن كيف يعرض حقائق الكون فى روعته ودقة نظامه فى أسلوب جذاب يؤدى دوره فى الفكر والوجدان . وإن أسلوب السجع فيه يحرك العقول والأفئدة بما فيه من تناسق موسيقى فتحلى عظمة الله وقدرته ، وتصل إلى أنه واحد لاشريك له .

حدد القرآن ذلك كله فى أول سورة منه وبكلمات موجزة يبين أن الله هو خالق كل شىء وخالق الإنسان من علق يقول تعالى : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ "(١) ويقول عن خلق الإنسان فى سورة أخرى : " الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ "(٢) ويقول : " خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ" . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ "(٣) ويقول تعالى : إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ".(٤)

يجادل القرآن المشركين فى أسلوب استنكارى ليريهم كيف يتم بقدرة الله خلق الإنسان ويثبت عجزهم بالدليل الملموس يقول تعالى : "أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ "(٥) ويلفت النظر إلى بناء الإنسان فيقول : " يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ

---

(١) سورة العلق : الآيتان ١ و٢ .

(٢) " الرحمن : ١-٤ .

(٣) " " : ١٤ و ١٥ .

(٤) " الانسان :الآيتان ٢ و ٣ .

(٥) " الواقعة : ٥٨ و ٥٩ .

فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ".(١) ويقول : " فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ".(٢)
فلينظر الإنسان نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذى ابتدأ أول خلقه قادر على اعادته .

يحذر القرآن الإنسان من عاقبة أعماله ويدعوه إلى مراقبة الله فيقول : " كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ "(٣) فمراقبة الله أمر هام مادام هناك حفظة يراقبون الإنسان ويكتبون أعماله التى سيحاسب عليها يوم القيامة . فالايمان بالملائكة أصل من أصول الايمان .

النبوة والقرآن :

يؤسس القرآن بأسلوب السجع أيضا شطرا من الإيمان وهو التصديق بالرسالة وأن القرآن من عند الله . فهناك ادعاءات كاذبة وشبه باطلة لايقبلها الله ولا رسوله . لقد شككوا فى وحدانية الله وكذبوا بالرسول وبالقرآن الكريم فيقول تعالى مصدقا رسوله : "تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى . الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ . لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ".(٤) ويقول تعالى : الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . اللَّهِ الَّذِي لَهُ

---

(١) سورة الانفطار : ٦ ــ ٨ .
(٢) " الطارق : ٥ ــ ٧ .
(٣) " الانفطار : ٩ ــ ١٢ .
(٤) " طه : ٤ ــ ٦ .

مافى السّمواتِ ومافى الأرضِ وويلٌ للكافرينَ من عذابٍ شديدٍ • الذينَ يستحبّونَ الحياةَ الدّنْيا على الآخرةِ ويصُدّونَ عَن سَبيلِ اللهِ ويبْغونهَا عِوَجا أولئكَ فى ضَلالٍ بَعيدٍ ".(١)

لقد جاءت الآيات صواعق مرعبة تخيف المكذبين وبصائر هادئة تطمئن المؤمنين وتزيل شبهة المبطلين يقول تعالى مقسما : "والسّمَاءِ ذاتِ الرجعِ • والأرضِ ذاتِ الصّدْعِ • إنّهُ لَقولٌ فصْلٌ • وَمَاهو بالهَزْلِ".(٢)

أقسم الله بالسماء ذات المطر والأرض ذات النبات • وكل ذلك آية من آيات الله الدالة على ربوبيته وأقسم على كون القرآن حقا وصدقا فقال "إنّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وماهو بالهَزْلِ ".

ويقسم تعالى على أن ماجاء به النبى (ص) قرآن منزل من عنده فيقول : " فَلاَ أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجومِ • وإنّهُ لَقَسمٌ لو تَعلمونَ عَظيمٌ • إنّهُ لَقرآنٌ كَريمٌ • فى كتابٍ مَكنونٍ • لاَيَمَسُّهُ إلاّ المُطهرونَ • تنزيلٌ مِن رَبِّ العَالمينَ ".(٣)

هو قسم على أصل من أصول الإيمان • على صدق رسالته (ص) يقول تعالى " فَلاَ أُقْسِمُ بِما تبصِرُونَ • وَمَالاَ تبصِرُونَ • إنّهُ لَقولُ رَسولٍ كَريمٍ • وماهو بِقولِ شَاعِرٍ قَليلاً ماتؤمنونَ • ولابِقولِ كَاهِنٍ قَليلاً ماتَذكَّرونَ • تنزيلٌ مِن ربِّ العَالمينَ ".(٤) أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما

---

(١) سورة إبراهيم : ١ــ٣ •
(٢) " الطارق : ١١ ــ١٤•
(٣) " الواقعة : ٧٥ــ٨٠•
(٤) " الحاقة : ٣٨ــ٤٣ •

لايبصر بأن القرآن من عند الله ، وأنه كلامه ، ودحض دعوى المبطلين بأنه شعر وأنه من كلام الكهان بل "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ • ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ • مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ".(١)

هكذا يصور القرآن نبيه بالقسم على أن القرآن حق ثابت كما أن سائر المخلوقات مايرى منها ومالايرى حق يقول تعالى : "فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ".(٢) فإن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تكذبونه ولا تشكون فيه فكذلك ما أخبرتكم به من التوحيد والبعث والنبوة ، وأن القرآن حق ، وكل ذلك يقوم دليلا على وحدانية الله سبحانه وتعالى وأنه الخالق المتصرف في الكون .

البعـــث :

يسلك القرآن المنهج نفسه بأسلوب السجع مؤسسا شطرا من الإيمان ، وهو الإيمان بالحياة الآخرة ، تذكر الآيات بالبعث وبكمال قدرة الله تعالى ، يقول عز وجل : " إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ • يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ • فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ".(٣)

كما أنه قادر على خلقه من ماء دافق ، فهو قادر على رجعه إليه يوم القيامة لمجازاته على ماقدم من عمل ، وهذه من طرق القرآن

---

(١) سورة التكوير : ١٩ ـ ٢١ .

(٢) " الذاريات : ٢٣ .

(٣) " الطارق : ٨ ـ ١٠ .

فى النظر والفكر والاستدلال على قدرة الله على إعادة الخلق يوم القيامة أحياء فى ذلك اليوم .

وقوله على السرائر أى تختبر . بلوت الشىء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه وماخفى منه والسرائر جمع سريرة وهى سرائر الله التى بينه وبين عبده من ظاهره وباطنه لله ".[1] فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحا ، فتبدو سريرته على وجهه نورا وإشراقا وحياء ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعا لسريرته ، لا اعتبار بصورته فتبدو سريرته على وجهه سوادا وظلمة وشينا "[2] ثم أخبر تعالى بأنه لا فكاك للإنسان من عذاب الله لابقوة منه ولا بقوة خارجة عنه ولا ناصر له .

والارتباط هنا بين المبدأ والمعاد . وهذا الارتباط بين النشأة الأولى والنشأة الثانية ارتباط من وجوه عديدة ، فيلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر ، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر . ولهذا حسن الاستدلال بأحدهما على الآخر كما يقول تعالى: " وأنَّهُ خَلَقَ الزَّوجينِ الذَّكرَ والأُنْثى . مِن نُطْفَةٍ إذا تُمْنَى . وأنَّ عَليهِ النَّشأةَ الأُخْرَى "[3] ويقول تعالى: "أفرأيتُمْ ماتُمنُونَ أأنتُمْ تَخلقونَهُ أمْ نحنُ الخالِقُونَ . نحنُ قَدَّرنا بينكمُ الموتَ ومانَحنُ بِمسبُوقِينَ . عَلى أنْ نُبدِّلَ أمثالَكُمْ ونُنْشِئكُمْ فِيما لاَ تَعْلَمونَ . وَلَقد عَلِمْتُمُ النَّشْأةَ الأُولَى فَلَوْ لاَ تَذَكرونَ ".[4]

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم الجوزية ، دار الكتاب العربى ، تحقيق طه يوسف شاهين: ٦٦ .

(٢) نفسه .

(٣) سورة النجم : ٤٥ ـ ٤٧ .

(٤) " الواقعة : ٥٨ ـ ٦٢ .

طريقة القرآن فى الاستدلال بالمبدأ على المعاد وردت فى آيات متعددة فى القرآن . إن المشركين استبعدوا واستعظموا أن تصير الأجسام بعد التفرق والتحلل فى الأرض حية من جديد . يقول عنهم القرآن " وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ " (١) فيرد عليهم المولى عز وجل : " قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ " . (٢)

لم يقف الأمر عند حد الاستغراب بل راحوا يتهكمون من الرسول (ص) ويشهرون به مستنكرين أن يكون بعد الموت والبلى عودة إلى الوجود فى حياة أخرى يقول تعالى : " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ " (٣) فبينت الآية ما يؤولون اليه يوم القيامة جزاء على استنكارهم وتكذيبهم ، فإن تحول الموتى إلى تراب لا يحول دون حياة أخرى فالله يعلم هذه الأجزاء المتفتتة المتبددة وطرق جمعها إلى بعضها يوم القيامة فيقول " أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى " . (٤)

يقسم الله سبحانه وتعالى بأن العذاب واقع يوم القيامة لا محالة لهؤلاء الذين تنكبوا الطريق وساروا على غير هدى .

---

(١) سورة الواقعة : ٤٧ و ٤٨ .
(٢) " " : ٤٩ و ٥٠ .
(٣) " سبأ : ٧ و ٨ .
(٤) " القيامة : ٣٧ ــ ٤٠ .

أنظر إلى أسلوب السجع في قوله : "وَالطُّورِ • وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ • فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ • وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ • وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ • وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ • إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ • مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ".(١)

ذلك هو الحق الذي لا مراء فيه ، ومن يكذب به فقد استسلم للأهواء والأوهام • إن الله قد أعد الجزاء لكل حسب عمله : " فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا • وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا ". (٢) ويقول تعالى : " إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ".(٣) ويقول " إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا • حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا ".(٤)

آيات ترغب وآيات ترهب كلها في أسلوب من السجع له وقع في النفوس وتأثير قوي عليها ومع هذا البيان الواضح فهناك من يغويه الشيطان ويصرح بالتكذيب " يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ • فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ • وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ • يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ • كَلَّا لَا وَزَرَ • إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ • يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ "(٥) فيبين الله لهم أهوال ذلك اليوم • فإذا برق البصر أي يشخص بما يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها وذهب ضوء القمر وانمحى وجمع الشمس والقمر ، ولم يجتمعا قبل ذلك ، بل يجمعهما الذي يجمع العظام بعد البلى ويجمع على الإنسان الذي قدمه من خير وشر • ففي ذلك اليوم لا ملجأ ولا مفر من عذاب الله .

---

(١) سورة الطور : ١ ـ ٨ •
(٢) " الانشقاق : ٧ ـ ١٢ •
(٣) " الانفطار : ١٣ و١٤ •
(٤) " عم : ٣١ ـ ٣٤ .
(٥) " القيامة : ٦ ـ ١٣ •

هكذا يقدم القرآن حجته الفاصلة فى البعث • وقد عرضه المولى لكفار قريش فى أسلوب مألوف لديهم من السجع الذى يرتبط ارتباطا منطقيا بالفكرة •

العظـــة والعبرة :

القرآن كتاب هداية للبشر فيه المواعظ والعبر التى يسوق بعضهـــا فى أسلوب من السجع للمسلمين عندما ناصبتهم الجاهلية العداء • هذه الجاهلية التى لا تطيق أن يكون للإسلام كيان مستقل ليس لها مثيل وشبيه فـــى الأمم الغابرة • تلك الأمم التى ذاق منها رسل الله وأتباعهم ألوانــــا من الكيد والعذاب يقول الله " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى • إِذْ نَادَاهُ رَبُّــهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى • اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى • فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّى • وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى • فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى • فَكَذَّبَ وَعَصَى • ثُمَّ أَدْبَـرَ يَسْعَى • فَحَشَرَ فَنَادَى • فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى • فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى • إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ".(١)

تجمع سورة الفجر عددا ممن مضى وكان عبرة وعظـة لمن بعده يقول تعالى : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ • إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ • الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ • وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ • وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ • الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ • فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ • فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَـــوْطَ عَذَابٍ • إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَـــادِ ".(٢)

---

(١) سورة النازعـات: ١٥ ــ ٢٦ •

(٢) " الفجــر : ٦ ــ ١٤ •

وفى سورة القمر قصة نوح مع قومه وقصة ثمود وعاد وقوم لوط وفرعون . وفى غير هذه وتلك آيات تحكى قصص الأمم السابقة مع رسلهم وما لاقوا من عذاب . وفى ذلك كله عظة وعبرة وتخفيف للنبى (ص) وتسلية له ولأصحابه ليصبروا على أذى الكفار وعذابهم . ونكتفى بالمثالين السابقين على ذلك خوف الإطالة .

النغم الموسيقى :

يمتاز السجع بنغم موسيقى مرتوب وترنيمات اتخذها الكهان ذريعة للابهام والغموض . وهذا ماجعل بعض العلماء يتورعون من القول بوجود السجع فى القرآن الكريم . وقد استطعنا فيما سبق بحمد الله وتوفيقه أن نبين أنه يؤدى أسمى المعانى وأرفعها . وقد بينا دوره فى بناء العقيدة بناء سليما . ونشير أيضا إلى أنه يرضى العاطفة والعقل على حد سواء وأن فيه أنغاما عذبة حلوة .

ونود هنا أن نتكلم عن هذه الموسيقى التى تتملك القلوب وتهز أعماقها بعذوبة أنغامها ونتابع جرسها لنوضح أنها جاءت من التلاحم والائتلاف وقوة التماسك مع الألفاظ والمعانى بدرجة بليغة لا يمكن أن تتهيأ فى سائر كلام البشر .

ومن يقرأ سورة الضحى — على سبيل المثال — يحس بجاذبية النغم وتلاحمه مع المعنى . عرتفع النفس فى مجالات لتدرك القسم فى نواميس الكون العليا يقول تعالى : "وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى" .

يقسم المولى عز وجل بـ الضحى والليل إذا سجى أى سكن وركد فـى ظلامـه .[1] يقال ليلة ساجية أى ساكنة الريح وسجا البحر أى سكنت أمواجـه ومنه البحر الساجى[2] قال الأعشى :

فَمَا ذَنْبُنَا إِنْ جَاشَ بَحْرُ أَبِيكُم ... وَبَحْرُكَ سَاجٍ لَا يُوَارِي الدَّعَامِصَا

لقد جاء السجع فى أبلغ درجات البلاغـة والفصاحة . أقسـم الله بآيتين عظيمتين من آياته الدالة على ربوبيتـه فجاء القسم مناسـبا يدعـو اليه المقام ، وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل . وهذا يجئ ملاوما مع نور الوحى الذى نزل على النبى (ص) بعد احتباسه عنـه حتى قال أعـداؤه إن محمدا ودعـه ربـه وقلاه[3] يقول ابن القيم : فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسـه واحتجابـه . وأيضا فان فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذى فلـق ظلمة الجهل والشر بنور الوحى والنبوة ".[4]

تأمل حسن الربط فى القرآن ، فقد أثار جانبا حسيا وربطه بآخر عقلى . إن رحمة الله تمد العباد بالنهار لمصالحهم ومعايشهم بعد ظلمـة الليل كما أخرجتهم من ظلمة الجهل إلى نور الوحى والنبوة إلى مصالحهـم الدنيوية والأخرويـة .

---

(١) الكشاف للزمخشرى ، طباعة باكستانية طهران : ٢٦٣/٤ .

(٢) الصحاح مـادة سجـا .

(٣) تفسير أبى السـعـود : (ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم) : ٥٤٢/٥ .

(٤) التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم الجوزيه ، دار الكتاب العربـى تحقيق طه يوسف شاهين : ٤٦ .

ثم يأتي جواب القسم : " مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى " . ومعناه ماقطعك قطع المودع . والتوديع مبالغة في الودع وهو الترك . والقلى : البغض . فنفى أن يكون ودع نبيه أو قلاه لأن من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك . فما تركه منذ أعتنى به وأكرمه فقد أحبه ولم يبغضه .

حذف الضمير في " قلى " و " آوى " و " أغنى " . وأصله " قلاك " و " آواك " و " أغناك " وفي ذلك يقول الزمخشري " هو اختصار لفظي لظهور المحذوف " .(١) وزيادة على ذلك فيمكن القول بأن الله سبحانه وتعالى لم يرد أن يضيف القلى إلى النبي (ص) إكراما له واحتراما . يقول أبو السعود : " وحذف المفعول إما للاستغناء عنه بذكره من قبل أو للقصد إلى نفي صدور الفعل عنه تعالى بالكلية مع أن فيه مراعاة للفواصل " . (٢)

قال تعالى : " وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى " . إن اطلاق خير الآخرة على الأولى يعم كل حالة يرقيه إليها ، فهي خير مما سبقها . كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها . فقد خصه الله تعالى وأكرمه بأعظم النعم وأجلها مما يشرح له صدره وهو أن يعطيه فيرضى . وهذا معنى شامل يعم جميع الخير .

وتستمر السورة معددة نعم الله على نبيه من الإيواء بعد اليتم

---

(١) الكشاف: للزمخشري ، طباعة باكستانية طهران : ٤/٢٦٢ .

(٢) تفسير أبي السعود (ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم): ٥٤٢/٥ .

والهداية بعد الضلالة ، والإغناء بعد الفقر . وقد كان محتاجا إلى كل ذلك : " أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى " .

ثم أمره سبحانه وتعالى أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر . فنهاه عن قهر اليتيم ، وعن نهر السائل ، وعن كتمان النعمة فقال : " فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ "

فأنت ترى أن السورة تحتفظ من أولها إلى آخرها بإيقاع متناسق لا يخرج فيه السياق عن سنن المدلول اللغوى بل يتعانق معه فى تلاحم تام وائتلاف قوى . وكل سجع ورد فى القرآن لا تفارقه هذه الصفة مهما تعددت آياته . أنظر الى قوله تعالى : فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ . وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ " .(١)

فى الآيات السابقة سجعات خفيفة ، أتت فى مكانها الأعلى ، توصل الأنغام فى انسجام مع المعنى . أقسم الله بثلاثة أشياء متعلقة بالليل أولها الشفق وهو الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء وثانيها الليل وما وسق أى ماضم وحوى وجمع وثالثها القمر إذا اتسق ، واتساقه : امتلاؤه نورا . فهذه ثلاث آيات جاءت على الترتيب المنطقى الذى لا يمكن تقديم أو تأخير أى واحدة منها ، وتضمن كل قسم فيها آية من آيات تدل على ربوبيته سبحانه وتعالى وأن فى تعاقب الليل والنهار مصلحة كبرى للعباد وفيه

---

(١) سورة الانشقاق : ١٦ ـ ١٩ .

دلالة على عظمة الخالق تزيد من إيمان العابد . ولهذا شرع عند إقبال الليل وإدبار النهار ذكر الله تعالى بصلاة المغرب . وفى الحديث : اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك ، وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أغفر لى ".(١) كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار . ولأهمية الوقتين أقسم بهما الله كقوله : "وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ . وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ".(٢) ونظيره قوله تعالى : " وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ "(٣)

فى كل ذلك تتجلى القدرة الإلهية التى احتفظت بالأنغام تتابع وتتناسق لتشع من خلالها المعانى الوضاءة التى تتلاءم مع كل موقف . وإن من يقرأ سورة القمر أو سورة طه أو غيرهما من السورة التى جاءت آياتها مسجوعة لا يمكن أن يغيب لحظة عنه تلك الحكمة الإلهية وذلك الإحكام الدقيق فى اختيار الألفاظ الدقيقة الموحية التى تتلاءم مع الموقف والأنغام ذات الجرس التى تهز النفس من أعماقها .

لكى لا نطيل الكلام نكتفى بالحديث الموجز عن قوله تعالى : إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ".(٤)

---

(١) رواه أبو داود والترمذى عن أم سلمة .

(٢) سورة المدثر : ٣٣ و ٣٤ .

(٣) " التكوير : ١٧ و١٨ .

(٤) " القمر : ٤٧ _ ٥٥ .

نود هنا أن نعرض لموقف المجرمين والمتقين فى الآيات • ألا ترى أن اللفظين " سعر وسقر " هما أحق بالمجرمين من غيرهما وأقوى تخويفا لهم ! والموقف كله مظاهر ومظاهر يعين يعين أنهم سيحسبون فى النار على وجوههم ثم يخاطبهم بما يزيدهم خوفا " ذوقوا مس سقر " •

فأين هذا المشهد المخيف المروع عندما يتحول المقام فى الآيات من مقام الرهبة والخوف الى مقام تقوى وطاعة : " إن المتقين ••• الخ " تجد الكلمات تدور حول معانى التقوى وتزداد قوة والتحاما بالصورة التى ترسمها الآية الأخيرة، وتجدها قد أخذت النغم اللائق بها • والمتمعن فى ذلك كله يجد أن الآيات تقصر وتطول حسب المقام المناسب • إنها تقصر عندما حددت فى أول آية مكانة المجرمين وهذا يقتضى المقام تحديد النهاية الحتمية لهم • ثم يقتضى المقام حالة نفسية تحتاج إلى الإطالة فيها لتتابع النفس السحب فى النهار على وجل وخوف، إنه مشهد مروع مخيف يمتد زمنه ويشتد عذابه •

وعندما نصل الى مشهد المتقين تحدد الآية مكانهم فى إيجاز " إن المتقين فى جنات ونهر " لا يختلف التعبير من حيث الطول والقصر عن ذلك الذى حدد مكانة المجرمين • ولكن هذا التعبير الأخير لا تصحبه تلك الحسرة والمرارة التى صحبت ذلك التعبير • فالمقام مقام كريم عند رب عظيم • ثم يطول التعبير ليحدد النهاية الحتمية للمتقين ولكنه يكون بصورة أقل من حيث الطول والقصر عن تلك التى رأيناها عند المجرمين • فإن طال التعبير هناك فى ألم وخوف فهنا يطول بمقدار مناسب ليحدث الراحة النفسية والبهجة والسرور

التي تتلاءم مع الموقف الذي هو " مقعد صدق عند مليك مقتدر " والإطالة هنا تغمرها الفرحة فينبغي أن لا تبلغ مبلغ السحب المؤلم .

فأنت ترى بما قدمت لك أن النغمة القرآنية ليست مجرد صوت منسجم ، بل لها صلة بالمعاني ، تشارك فيه النغمة المعنى حسا وفكرا فيأتي جرس ألفاظ القرآن ونغم سياقه موافقا مع معانيه متعاضدا في أداء الإيحاءات والآثار النفسية والوجدانية . وستظل مواهب الإنسان إلى الأبد عاجزة عن بلوغ هذا النوع من التأليف الدقيق .

وما من نغم شعري أو لحن موسيقي إذا طال أو تكرر إلا أحدث سأما وملا لسامعه ، وضعف تأثيره بكثرة ترداده ، ولكن شيئا في هذا لا يحدث لقارئ القرآن أو المصغي إليه . فالقلوب تهتز له وتبتهج النفوس بسماعه . فالقرآن لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد كما أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم .

رد الأعجاز على الصدور

مع أن رد الأعجاز على الصدور يعد محسنا لفظيا لكنه في القرآن مظهر من مظاهر الجمال الحسي والمعنوي، في مفرداته وجمله، وسحر تراكيبه، وجمال أساليبه، وفرط تأثيره في النفوس التي لا تلبث أن تتراءى أمامه في أسمى مشاعر الاستجابة والخضوع . المعاني فيه متلائمة مع ألفاظها في بناء سليم متسق الأجزاء متراص اللبنات . تجذب السامعين إليها وتقنعهم بما تقرر من أحكام وتوضح من أفكار في بعد عن التكلف وجمال في السياق وتناسق في النغمات وحسبنا أن نذكر هنا طرفا من هذا الجمال الفني المتكامل الأجزاء .

الملاءمة والملاحمة :

كمال المعنى وتنسيقه شراكة ما بين الأعجاز والصدور من جهة اقترانهما ببعض . الملاقة بينهما علاقة تآلف وترابط تستوفي مقاييس الجمال وعناصر الحسن في الشكل والمضمون . تأمل قوله تعالى في قصة ذي النون وهو في بطن الحوت: " فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ".(١) جاء التعبير بأسلوب رد الأعجاز على الصدور في أعلى الفصاحة والجلالة لهذه الملاءمة والملاحمة التامة بين قسمي الكلام . فناسب صدد ذكر الظلمات في هذا الموقف أن يذكر

---

(١) سورة الأنبياء : ٨٧ .

الظالمين لما يبدها من تلاحم وملاءمة . وكونه في الظلمات يعني أنه في غم وضيق بسبب عدم صبره على معاناة الدعوة وأنه قد تسبب في ظلم نفسه . وأما قوله "إني كنت من الظالمين" اعتراف منه عليه السلام بذنبه وإظهار توبته ليفرج عنه كربته . ويقول الحسن البصري : "ما نجاه الله إلا اقراره على نفسه بالظلم" . ويقول (ص) : "ما من مكروب يدعو بهذا إلا استجيب له ".(١)

يقول الشهيد سيد قطب : "إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة ، فضاق صدرا بالقوم ، وألقى عبء الدعوة وذهب مغاضبا ، ضيق الصدر ، حرج النفس ، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين . ولو لا أن تاب إلى ربه [واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه لما فرج الله عنه هذا الضيق . ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعانيه ".(٢)

المعنى بالظلمات : الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت ، وجعلت الظلمة لشدتها كأنها ظلمات يقول السعافي :

وَلَيلٍ تَقُولُ النَّاسُ فِي ظُلُماتِهِ سَواءٌ صَحِيحاتُ العُيونِ وَعُورُهَا

---

(١) الكشاف : ٥٨٢/٢ .

(٢) في ظلال القرآن : سيد قطب ، دار الشروق الطبعة الشرعية الخامسة : ٢٣٩٢/٤ .

والظلم يستعمل فى الذنب الكبير والذنب الصغير يقول تعالى : " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (١) وهذا بين الإنسان وربه ويقول أيضا " أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ".(٢) وأما قوله : " إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ " (٣) فهذا بين الإنسان وغيره من الناس. وقوله : " فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ".(٤) فهو بين الإنسان ونفسه. ويقول المصطفى صلوات الله عليه وسلامه " الظلم ظلمات يوم القيامة ". ألا ترى الربط بين الظلم والظلمات فى حديث الرسول (ص) . ولأجل هذا جاء فى الآية عجز الكلام متسقا معنى مناسبا لصدره ومؤتلفا معه .

يقول تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ".(٥) وقوله تعالى " أعرض ونأى بجانبه " وقوله " ذو دعاء عريض " لاينفكان عن بعضهما لما بينهما من الملاءمة والعلاقة التى تجمعهما . فهما يمثلان ضربا من ضروب طغيان بنى الإنسان . وضربا من ضروب لجوئه إلى ربه .

---

(١) سورة لقمان : من الآية ١٣ .

(٢) " هود : من الآية ١٨ .

(٣) " الشورى : من الآية ٤٢

(٤) " فاطر : من الآية ٣٢ .

(٥) " فصلت : ٥١ .

إن من البشر من إذا أصابته النعماء أبطرته ، وتكبر وتعظم ونسى حق الله عليه وأنه المنعم المستحق للشكر فأعرض ونأى بجانبه ، أى ترفع عن الانقياد وتكبر . فالإعراض عن الشيء يعني الصد عنه وتقول أعرض الشيء أى جعله عريضا . والعارض صفحة الخد وصفحتا العنق . والسحاب المعترض في الأفق والجبل . وتقول نأى أى تباعد ونأيت عنه نأيا بمعنى تباعدت عنه والمنتأى الموضع البعيد قال النابغة :

فإنك كالليلِ الذى هو مُدرِكى　　　وإنْ خِلتُ أنّ المُنْتأَى عنكَ وَاسعُ[1]

ومن البشر إذا أصابه مكروه " فذو دعاء عريض " أى كثير . وقد كان متكبرا عند النعماء . والعرب تستعمل الطول والعرض فى الكثرة.[2] يقال أطال فلان فى الكلام وأعرض فى الدعاء إذا كثر . والمقصود بقوله : " ذو دعاء عريض " أنه يقبل على دوام الدعاء ويظل يبتهل ويتضرع . والكافر يعرف ربه فى البلاء ولا يعرفه فى الرخاء . المعنى فى الآية له مفهوم واضح فى الأذهان والعلاقة واضحة بين الإعراض وهو حالة فى الصد عن الشيء والدعاء العريض وهو بيان للإقبال . والتعبير عن كل ذلك بأسلوب رصين وليس حلية مقصودة لذاتها . واللفظ يؤدى المعنى المطلوب دون إحداث صدع بين عجزه وصدره .

---

(١) تفسير القرطبى ، مصطفى البابى الحلبى وشركاه الطبعة الثالثة : ٣٢٣/١٥ .

(٢) نفسه .

وتأمل بعد ذلك قوله تعالى : "رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ" (١) الترابط في الآية مبني على أساس من الهداية ومبادئها السامية ، في أسلوب من الدعاء والاعتراف ، يعلمنا بها القرآن الكريم كيفية التأدب أمام الله سبحانه وتعالى . فقوله "هب لنا من لدنك رحمة" دعاء بطلب النعم الصادر عن الرحمة . ومن ذا الذي يهب هذا النعم غير "الوهاب" . ولذا جاء التعميم القرآني ليقرر مبدأ هاما من مبادئ العقيدة الذي لا يجوز أن يتخلف إطلاقا وهو طلب النعمة من الله سبحانه وتعالى وأنه وراء كل النعم وأنه مصدرها .

الآيات السابقة شاهد ناطق على علو بلاغة القرآن في اشتقاق الألفاظ لتؤدي معاني لها من الدلالة اللغوية والبيانية بجانب كونها في صورة تامة من الترابط والتلاحم وأنها واضحة الفكرة بينة الغرض . تأمل قوله تعالى : "وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" (٢) .

الآية واضحة الفكرة بينة الغرض ، فهي تعلم للرسول (ص) سنن الله في الأمم السابقة مع رسلهم وتسلية له عما كان يلقى من الأذى من قومه ثم يجيء عجز الكلام ليبين أن الله قد كفى رسوله المستهزئين فحاق بهم الهلاك بسبب الاستهزاء .

---

(١) سورة آل عمران : ٨ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠

لايسع من يتدبر الآيات السابقة إلا أن يقر بأن من روائع هذا الفن أيضا أنه يجذب السامع إليه ويثير انتباهه . فعلى سبيل المثال فإن قوله تعالى : "ولقد استهزئ برسل من قبلك" يدفع السامع إلى تلق العجز "فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون" فى تلهف ورغبة . لايخفى مافى التعبير من تسق فى التركيب وجرس فى النغم . الألفاظ متوالية فى جرسها وحسن استعمالها ومناسبة لبعضها البعض . أنظر إلى هذه السينات المتعاقبة التى أحدثت نغما خاصا وقارن بينها وبين النغمة فى قوله تعالى : " قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ".(١)

إنك لاتجد تلك النغمة التى أصبتها فى السينات ولكنك إزاء نغمات أخرى لأن كل معنى ينبغى أن يختار للتعبير عنه الألفاظ المناسبة التى تقتضيها طبيعة المعنى . فما من حرف أو حركة فى الآية إلا وأحدثت نغما خاصا . إن الفاءات المتعاقبة مع كثرة حرف النون وتردد الميم كل هذا وغيره يجعل للآية جرسا ونغما موسيقيا . ثم إن السمع لاينى أن ينجذب نحو العجز بعد سماعه الصدر " لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ". وهكذا تشوق النفس وتستقر على حال عندما تصل إلى قوله : " وقد خاب من افترى ".

ومثل ذلك يقال فى قوله تعالى : " أُنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا "(٢) هذا التفاوت بين

---

(١) سورة طه : ٦١ .

(٢) " الاسراء : ٢١ .

درجات الدنيا ومجالسها وبين درجات الآخرة ومجالسها دافع للاصغاء وحافز لانتظار النتيجة . يقول الألوسي : " وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا " أي أكبر من درجات الدنيا وتفضيلها لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية لايقادر قدرها ولايكتنه كنهها ".(١)

يقول الفخر الرازي : " إن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس . فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم . فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا . فإذا كان الإنسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى ".(٢)

إن رد الاعجاز على الصدور فن من فنون البلاغة وهو يكسب الكلام جمالا وروعة . وقد فطن لذلك أبوهلال العسكري فقال : " وهذا يدلك على أن لرد الاعجاز على الصدور موقعا جليلا من البلاغة . وأن له في المنظوم خاصة محلا خطيرا "(٣) ويقول ابن رشيق : " ... ويكسب البيت الذي فيه أبهة . ويكسوه رونقا وديباجة . ويزيد مائيته وطلاوته "(٤)

إن ماذكره ابن رشيق ينطبق على ماجاء منه في الأشعار فكيف بالقرآن ؟ لاشك أن القرآن قد انفرد بطريقته في النظم في هذا الفن وفي غيره . فإن روعته فيه تفوق كل روعة وجماله يفوق كل جمال وبه ترتبط المعاني مع بعضها في تآلف وتلاحم في أسلوب بديع عجيب فيه التركيب اللفظي حسنا في السمع سهلا على اللسان تتقبله النفس وترتاح لسماعه .

---

(١) روح المعاني للألوسي . احياء التراث العربي بيروت لبنان : ١٥ / ٤٨ .
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي . المطبعة البهية المصرية الطبعة الأولى : ٢٠ / ١٨١ .
(٣) الصناعتين لأبي هلال العسكري . عيسى البابي الحلبي وشركاه . تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل ابراهيم : ٣٧٥ .
(٤) العمدة لابن رشيق . مطبعة السعادة بمصر . الطبعة الثالثة . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد : ٣ / ٤ .

الفصـــل الثـــالث

أثـــــره وخصائصـــــه

بعد أن استعرضنا فنون البديع فى القرآن يجدر بنا قبل أن نختم هذه الرسالة أن نتعرض لما كان لهذه الفنون من أثر على الأدب والنقد الأدبى خاصة فى عصر ازدهارهما فى العصر العباسى الذى نال فيه البديع شهرة كبيرة . ثم نخلص بعد ذلك إلى الخصائص الفنيـــة التى تضافرت جميعها ليحتل هذا البديع مكانته من البلاغة فى القرآن الكريم . والهدف من تأخير هذا الجانب من البحث أنه سيكون واضحـــا بعد أن بانت حقيقـــة البديع فى القرآن الكريـــم .

لاشك أن البديع فى القرآن فى الذروة من البلاغـــة ، وليس غريبـــا أن تتوافـــر له كل أسباب الجودة ، فالقرآن كله فى أعلى درجة من الجمال والإعجاز . ومهما يقال عن البديع فيكفيه أن أول سورة من القرآن جـــاءت تجرى على نمط من السجع قرعت به آذان العرب وفتحت مغاليق قلوبهـــم .

إن ريـــادة القرآن فى هذا الفن من فنون البلاغة لا تنكر ، وإن أسلوبه وتراكيبه وطريقته فى المزاوجة بين ألفاظه ومعانيه ببراعـــة نادرة منحتـــه كل أسباب الجمال والجلال ، وجعلت الأدباء والنقاد يهتمون به اهتمـــامـا بالغا . ولهذا رأيت أن أعرض بإيجاز لهذا الجانب بعد توضيح الصـــورة الصحيحة لأسلوب البديـــع .

الشاهد القرآني :

أول مايحق لنا أن نعرضه هو الشاهد القرآني ،فهو الأساس لكل الدراسات التي قامت حول البديع • فمن مميزات دراسة البديع في القرآن أو في أثري الأدب والنقد الأدبي على السواء بثروة طائلة امتدت الدراسة فيها عبر القرون المتعاقبة • ونحن نقرأ الأدب العربي في العصر العباسي • نجد أن الشعراء أولعوا بالبديع واستحلوا مذاقه • وأكثر منه المحدثون حتى أصبح من السهولة العثور على شواهد متعددة لفنون البديع في حين أن القدماء لم يحفلوا بالبديع ولم يجعلوه مبلغ همهم • وهذا لايعني أنه لم يرد في أشعارهم • لقد كان يستعمله الشاعر منهم ولكن دون قصد أو اجهاد نفس في البحث عنه كما يقول ابن المعتز : " وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل ".(١)

إن ولوع المحدثين بالبديع وجه أنظار العلماء وشحذ هممهم لدراسة البديع • والمتتبع لحركة النقد الأدبي عند العرب يجد أن القرآن الكريم كان له أثر كبير على هذه الدراسة • لقد جعل النقاد الشاهد القرآني في المرتبة الأولى وصدروا به دراساتهم • وحسبنا أن نذكر أن كتاب البديع لابن المعتز الذي يعتبر أول كتاب في البديع ،قد جعل الشاهد القرآني الطابع المميز لدراسته والأساس الذي يقوم عليه التمثيل لكل فن من فنون البديع •

---

(١) البديع لابن المعتز ، شرح وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكي : ١ •

كذلك إذا استعرضنا كتب النقاد من بعد ابن المعتز نجد أن الشاهد القرآنى هو الباعث الرئيسى والموجه لدراساتهم • فأبو هلال العسكرى مثلا يرشد إلى الاستعانة بالقرآن والتماس سبل البراعة فيه للإجادة فى صناعة الشعر والنثر • لجأ هؤلاء العلماء إلى القرآن فأكسبهم قوة فى الاستدلال فجاء نثرهم عميقا فى المستوى الرفيع من العلم •

موقف القرآن من مذاهب الصنعة :

وقف البيان القرآنى سدا منيعا أمام تيار الغلو فى الصنعة • نظر الشعراء إلى ألوان البديع فى القرآن الكريم فهالهم جمالها وفخامتها فتهالكوا عليها ينشدون زخرفة وحليا لأشعارهم • وظهر تيار معاكس لهم وهم أصحاب الطبع الذين آثروا طريقة العرب فى كلامهم وجعلوا للطبع والسجية المقام الأول • وكان القرآن هو الأساس لاتجاههم الادبى •

طبيعى أن يتتبع النقد الأدبى الأعمال الأدبية جاعلا القرآن منبعه الأصيل ومقياسه الوحيد فى نقد مناهج الشعراء • فيتعرض النقاد لشعر البحترى ويذكرون أن منهجه أقرب إلى مذهب القدماء وأبعد عن مذهب أبى تمام يقول الباقلانى : " وأما البحترى فإنه لايرى فى التجنيس مايراه أبو تمام ويقل التصنع له • فإن وقع فى كلامه كان فى الأكثر حسنا رشيقا وظريفا جميلا ".(١)

---

(١) اعجاز القرآن (بهامش الاتقان) للباقلانى •مطبعة مصطفى البابى الحلبى : ١٦٦/٢ •

يقول ابن سنان الخفاجي فيمن كثر البديع في أشعارهم : " ثم جاء المحدثون فلهج به منهم مسلم بن الوليد الأنصاري ، وأكثر منه وفي استعمال المطابق والمخالف، وهذه الفنون المذكورة في صناعة الشعر ، حتى قيل عنه : إنه أول من أفسد الشعر ، وجاء أبوتمام حبيب بن أوس بعده ،فزاد على مسلم في استعماله والإكثار منه حتى وقع له الجيدوالرديء الذي لاغاية له وراء القبح ".(١)

يذكر النقاد أن أبا تمام جد في طلب الجناس وأكثر منه في شعره فجانس في البيت الواحد عدة تجنيسات متشابهة كقوله :

ليالينا بالرقمتين وأهلها
سقى العهد منك العهد والعهد والعهد

لقد حجب أبو تمام عن القارئ المعنى الذي يريده بهذا التجنيس ، ولكن ابن رشيق القيرواني يكشف لنا الستار عن قصده فيقول : " فالعهد الأول المسقي هو الوقت ، والعهد الثاني هو الحفاظ ، من قولهم فلان ماله عهد ، والعهد الثالث الوصية من قولهم : عهد فلان إلى فلان ،وعهدت إليه ،والعهد الرابع المطر ،وجمعه عهاد ،وقيل : أراد مطرا بعد مطر ،وفسر ذلك بقوله :

سحاب متى يسحب على النبت ذيله
فلا رجل ينبو عليه ولا جعد

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ،مطبعة محمد علي صبيح وأولاده تعليق عبد المتعال الصعيدي : ٢٢٧ .

قال أبو هلال العسكري ينقد أبا تمام بأنه قد جاء بأربع تجنيسات في بيت واحد ولعله لم يسبق إليه[2] وهو قوله :

بحوافر حفر وصلب صلب   وأشاعر شعر وخلق أخلق

وقوله :

لسلمى سلامان ، وعمرة عامر   وهند بني هند وسعدى بني سعد

ففي البيت الأول لا نجد غير وصف لأعضاء الفرس بصفات تجانسها . وفي الثاني أسماء لمن يتغزل بهن مع ما يجانسها من أعلام القبائل . فأين العاطفة والتجربة الشعورية التي نراها من وراء هذا الجناس ...

لقد أسرف أبو تمام في التجنيس وشغف به حتى أكثر النقاد من قبله يرى الآمدي أن ما أفسد عليه شعره ، وأحال أكثر معانيه ، وخبله هو عشقه وطلبه للطباق والتجنيس .[3]

---

(1) العمدة لابن رشيق ، مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثالثة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد : 1/322 .

(2) كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري ، عيسى البابي الحلبي وشركاه تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم : 330 .

(3) الموازنة للآمدي ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية تحقيق السيد أحمد صقر : 135 .

هذا بعض ما قيل عن شاعرين معاصرين لبعضهما . شاعر مولع بالبديع يكثر منه في شعره حتى ذمه كثير من النقاد وأنكروا عليه صنعته وتكلفه وتعرضوا لأبياته ينقدونها . وشاعر آخر صاحبه الطبع السليم والذوق الصحيح ولم يتكلف البديع في شعره .

على هذا المفهوم يجمع النقاد على أن الجناس مستحسن إذا وقع قليلا غير متكلف ، خاليا من كل صنعة ، قال ابن سنان الخفاجي : " وهذا إنما يحسن في بعض المواضع إذا كان قليلا ، غير متكلف ، ولا مقصودا في نفسه ، وقد استعمله العرب المتقدمون في أشعارهم ".(١)

ويرى عبد القاهر الجرجاني أن الجمال في الجناس لا يرجع إلى جرس الحروف وظاهر الوضع اللغوي وإنما يقع موقعه وينزل منزله إذا استدعاه المعنى . ولذلك لا يعجبه جناس أبي تمام في مدح الحسن بن دهب:(٢)

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت
فيه الظنون أمذهب أم مذهب

إذ أعاد كلمة مذهب مضمومة الميم ، فبدأ تكلفه واضحا ، وكأنه يتمحل الجناس تمحلا . وبون بعيد بين هذا الجناس التام وجناس بعض الشعراء في قوله :

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده . تعليق عبد المتعال الصعيدي : ٢٢٧ .

(٢) بتصرف من أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، نشر مكتبة القاهرة تعليق محمد عبد المنعم خفاجي : ٩٩ وما بعدها ودلائل الاعجاز دار المعرفة بيروت : ٤٠٢ .

نَاظِراهُ فِيمَا جَنَى نَاظِرَاه ... أوْ دَعَانِي أمُتْ بِمَا أودَعَانِي

ويرى عبد القاهر ان الشاعر أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها .

يبين عبدالقاهر أن الحسن فى التجنيس لايتم إلا بنصرة المعنى . ولم يقف نقده عند حد الجناس التام وحده وانما تعداه إلى الجناس غير التام أيضا فى قول أبى تمام فى وصف بسالة بعض الجيوش:

يَمُدُّونَ مِن أيدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ ... تَصُولُ بأسيافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وهذا ما يعده من الجناس الحسن ويرجع حسنه إلى المعنى . وذلك أن السامع يتوهم قبل أن يرد عليه الحرف الأخير فى كلمتى "عواصم" و "قواضب" أنهما نفس الكلمتين اللتين مضتا ، حتى إذا وعاهما سمعه انصرف عنه ذلك التوهم ، وحصلت له فائدة جديدة بعد اليأس منها . ومن أجل ذلك حسن الجناس لما تضمن من هذه المفاجأة ومن هذا الخداع ، على أنه ينبغى ألا يكثر منه الشاعر حتى لايجنى عليه إكثاره فيخرج عن صوره التى يرضاها العقل إلى صور متكلفة مستكرهة .

إن عبد القاهر وغيره من نقاد العربية لايقفون ضد التجنيس إلا إذا كان ثقيلا غثا ، يلجأ إليه بقصد التأنق والزخرفة فى الكلام دون أن يكون للمعنى نصيب فيه يقول عبد القاهر : " وعلى الجملة فإنك لاتجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا ، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه . وساق نحوه ، وحتى تجده لاتبتغى به بدلا ، ولا تجد عنه حولا . ومن

منها كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه : ماوقع في غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمته — وإن كان مطلوبا — بهذه المنزلة ، وفي هذه الصورة ، وذلك كما يمثلون به أبدا من قول الشافعي رحمة الله تعالى ، وقد سئل عن النبيذ فقال : أجمع أهل الحرمين على تحريمه ".(١)

وعاب الباقلاني على أبي تمام أيضا الصنعة في شعره وكثرة البديع فيه ومما تعرض له بالنقد لاميته :(٢)

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل	وصدرك منها مدة الدهر آهل
تطل الطلول الدمع في كل موقف	وتمثل بالصبر الديار المواثل
دوارس لم يجف الربيع ربوعها	ولا مر في اغفالها وهو غافل
فقد سحبت فيها السحاب ذيولها	وقد أخملت بالنور تلك الخمائل
تعفين من زاد العفاة اذا انتحى	على الحي صرف الأزمة المتماحل
لهم سلف سمر العوالي وسامر	وفيهم جمال لا يغيض وجامل
ليالي أضللت العزاء وخذلت	بعقلك آرام الخدور العقائل
من الهيف لو أن الخلاخيل صيرت	لها وشحا جالت عليه الخلاخل
مها الوحش الا أن هاتا أوانس	قنا الخط الا أن تلك ذوابل
هوى كان خلسا ان من أطيب الهوى	هوى جلت في أفيائه وهو خامل

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني نشر مكتبة القاهرة تعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : ١٠٢ .

(٢) اعجاز القرآن للباقلاني دار المعارف بمصر تحقيق السيد أحمد صقر : ١٠٨ .

لقد أكثر أبو تمام من الطباق في هذه القصيدة ، ولعل هذا ما جعل الباقلاني يرى أن البديع يمكن الوصول لفنونه بالتدريب والتصنع لها ولذلك لا يمكن أن يستفاد من هذه الفنون في إعجاز القرآن .

ومن هذا المنهج كشف النقاد العرب عن الأسلوب الجيد من الرديء في فنون البديع . ويرى الآمدي أن أبا تمام كان يمكنه أن يقتصر على الجيد من هذا الفن مثل قوله في الطباق وحده :

قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بالبَلوى وإنْ عَظُمتْ ... ويَبْتَلي اللَّهُ بَعْضَ القَومِ بالنِّعَمِ

ويروى أن أبا جعفر المنصور سأل أبا دلامة(1) وقال : أي بيت قالته العرب أشعر ؟ قال بيت يلعب به الصبيان . قال : وما هو ذلك ؟ قال قول الشاعر :

ما أَحْسَنَ الدِّينَ والدُّنيا إِذَا اجتَمَعَا ... وأقبحَ الكُفرَ والإفلاسَ بالرَّجُلِ

ومما يعده قدامة بن جعفر من جيد المقابلة قول عقيل بن حجاج :

فتى في حيث لم يجد مصعدة ... ولم يصوب إلى أدنى مهاويها

يقول قدامة : "فجعل بإزاء قوله "يجد مصعدة" أدنى مهاويها ولو جعل بإزاء الإبعاد في الصعود البعد من غير أن يقول أدنى المهاوي

---

(1) العمدة لابن رشيق ، مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثالثة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد : ١٧/٢ .

لكانت المقابلة ناقصة ، كما قال محمد قال أدنى ، ولو قال "لم محمد "
لقنع ... بأن يقول نحوى من غير أن يأتى بالدنو ".[١]

من جيد المقابلة الذى يوصف بالترتيب عند ابن رشيق القيروانى
قول الطرماح :

يَبْدُو وتضمره البلاد كأنه ... سيفٌ على شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

يقول : فقابل يبدو بيسل ، وقابل تضمره البلاد بيغمد ، على ترتيب ،
وكذلك كان يجب على هؤلاء أن يصنعوا وإلا كانوا مقصرين "[٢] .

هذا أصل ذكره ابن رشيق فى قوله : يعطى أول الكلام مايليق
به أولا وآخره مايليق به آخرا .

من جيد المنثور قول بعضهم : فإن أهل الرأى والنصح لا يساويهم
ذوو الأفن والغش ، وليس من يجمع إلى الكفاية الأمانة كمن أضاف إلى العجز
الخيانة .

جعل هذا النص فى كونه "جعل بإزاء الرأى الأفن ، وبإزاء
النصح الغش ، ومقابلة العجز الكفاية وإزاء الأمانة والخيانة فهذا على
وجه المخالفة" [٣] .

---

(١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان تحقيق
الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى : ١٤١ .

(٢) العمدة لابن رشيق مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثالثة تحقيق محمد
محى الدين عبد الحميد : ٢/١٩ .

(٣) الصناعتين لأبى هلال العسكرى عيسى البابى الحلبى وشركاه تحقيق على
محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٣٤٧ .

من كلام إبراهيم بن هلال الصابى : وأعد لمحسنهم جنة وثوابا ولمسيئهم نارا وعقابا ". (١)

أما المقابلة الرديئة عند النقاد أن لا يرد الكلام على ما ينبغى أن يرد عليه ، فى الموافق بما يوافقه وفى المخالف بما يخالفه ، ومثال ذلك عند ابن سنان الخفاجى قول أبى عدى القرشى :

يَا ابن خَيرِ الأخْيارِ مِن عَبْد شَمْسٍ
أنتَ زينُ الدُّنيا وغيثُ الجُنُودِ

يقول ابن سنان : فليس غيث الجنود مقابلا لزين الدنيا ولا موافقا " (٢)

ومن المقابلة الرديئة عند قدامة وأبى هلال قول امرئ القيس :

فَلو أنَّها نفسٌ تموتُ سَوِيَّةً ولكنَّها نفسٌ تَساقطُ أنْفُسَا

يقول أبو هلال : ليس " سوية " بموافق " لتساقط " ولا مخالف له ، ولهذا غيره أهل المعرفة فجعلوه " جميعة " لأنه بمقابلة " تساقط " البيت . (٣).

---

(١) العمدة لابن رشيق مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثالثة تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد : ١٨/٢ .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى مطبعة محمد على صبيح وأولاده وتعليق عبد المتعال الصعيدى : ٣١٥ .

(٣) الصناعتين لأبى هلال العسكرى عيسى البابى الحلبى وشركاه تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم : ٣٤٨ . ونقد الشعر لقدامة بن جعفر دار الكتب العلمية ببيروت لبنان تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى : ١٩٤ .

ان فساد المقابلة عند النقاد العرب ـ كما نرى ـ أن يؤتى عند ذكر حال يقتضى مايوافقه ويخالفه ، بمالايوافق ذلك ولا يخالفه يقول قدامة : وهو أن يضع الشاعر معنى يريد أن يقابله بآخر اما على جهة المقابلة أو المخالفة فيكون أحد المعنيين لايخالف الآخر أو يوافقه .(١)

وينقد قدامة قول الشاعر :

وَصَاءُ لِذِي الصَّلَاحِ وَغَرًّا بُـون قُدمَـاً لِهَامَـةِ الصِّنْدِيـدِ .

فيقول : ليس الصنديد فيما تقدم ضد ولا مثيل ولعله لو كان مكان قوله الصنديد الشرير لكان جيدا لقوله لذى الصلاح "(٢) .

ارضاء العقل والعاطفة :

من مميزات القرآن أنه ينفرد بطريقة فذة يرضى فيها العقل والقلب معا . انه يقنع العقل ببرهانه الساطع ويحرك فى الوقت نفسه النفس ويثير انفعالها . وهو فى ذلك مباين للشعراء الذين يخاطبون العواطف والمشاعر ويثيرون الانفعال ويعرضون المعانى فى صور بيانية متلفقة ، ومباين لأصحاب الأسلوب العلمى الذين تكون المعارف العلمية هى الأساس الأول فى بناء أسلوبهم ، فهم يخاطبون العقل بما يؤدون من حقائق علمية .

لكن القرآن الكريم يقنع العقل ويمتع العاطفة دون أن يضعف أسلوبه أو يختل الميزان فى الجمع بينهما . أنظر إليه كيف يواجه المنكرين

---

(١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر (المطبعة المذكورة آنفا) : ١٩٣ .

(٢) نفسه .

للبحث ، وكيف يسوق لهم الدليل العقلى بكلام جزل ، رصين ، متين البناء يجلب للنفس المتعة والارتياح . يقول تعالى : " قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَهُ . مِن أيِّ شيءٍ خلقَهُ . مِن نطفةٍ خلقَهُ فقدَّرَهُ . ثُمَّ السبيلَ يسَّرَهُ . ثُمَّ أماتَهُ فأقبَرَهُ . ثُمَّ إذا شاءَ أنشَرَهُ . كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أمَرَهُ . فلينظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِهِ . أنَّا صَبَبْنَا الماءَ صَبًّا . ثُمَّ شققنا الأرضَ شقًّا . فأنبتنا فِيها حَبًّا . وعِنَبًا وقَضْبًا . وزيتونًا ونَخْلًا . وحدائقَ غُلْبًا . وفاكِهَةً وأبًّا . متاعًا لكم ولأنعامِكُم ".(1)

هذه آيات من السجع البديع ، الذى جاء أكثر شيوعا فى القرآن المكى . وكانت طبيعة الموقف تقتضيه فى الدفاع بحرارة عن الدين الجديد وإرساء قواعد العقيدة الحقة وإصلاح المجتمع . وقد كان القرآن يحرك به القلوب ويثير الوجدان ويخاطب العقول فى آن واحد ، لكى تسلك المنهج السديد فى الحياة .

فالآيات تبدأ بقوله تعالى : " قتل الإنسان ما أكفره " إنه أسلوب من التعجب تنبيهاً به النفس لتلقى الحقائق الأصيلة ، ولتقف فكرة فى أصلها ومصيرها . إنه التعجب من إفراط الكافر فى كفره مع كثرة نعم الله وإحسانه إليه يقول الألوسى : " والآية دعاء عليه بأشنع الدعوات وأفظعها ، وتعجب من إفراطه فى الكفر والعصيان ، وهذا فى غاية الإيجاز والبيان ".(2)

---

(1) سورة عبس : ١٧ ــ ٣٢ .

(2) صفوة التفاسير للصابونى دار القرآن الكريم بيروت : ٣/٢٠ ١٩ .

بعد هذا الدعاء الشهج المؤثر فى النفس يجىء أسلوب التفصيل بعد الإجمال بقوله تعالى: " من أى شئ خلقه " ثم يفصل ذلك ويوضحه بقوله "من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره ".

يختم هذا المشهد بقوله تعالى : "ثم إذا شاء أنشره " ليأتى الدليل العقلى لهذا الجاحد المتكبر فى صورة بيانية ليرتفع بعقله وفكره لكى يشاهد حقيقة نفسه فى مرآة الحياة أمامه فيعرف كيف خلقه الله بقدرته ويسر له المعاش برحمته يقول تعالى : "فلينظر الإنسان إلى طعامه .. الخ الآيات ". وفى ذلك دليل من "إحياء النبات فى الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ماكانت عظاما بالية وأوصالا متفرقة ".(١)

هذا المعنى الذى يصور خلق الإنسان وبعثه نجده أيضا فى قوله تعالى : " وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ . رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ".(٢)

يرضى العاطفة بهذا التصوير البديع ويرضى العقل بهذه المعانى التى تشد نحو الإيمان شدا .

---

(١) صفوة التفاسير للصابونى ، دار القرآن الكريم بيروت : ٢٠/٣ .
(٢) سورة ق : ٩ ــ ١١ .

ثم أنظر مرة أخرى لألوان مختلفة من الأدلة والبراهين تمتلىء بها النفس ويفيض بها القلب بما فيها من عظات يسوقها القرآن فى أدق صور وأجلاها فى جزء من قصة نوح عليه السلام مع قومه المعاندين . يقول تعالى : "قَالَ رَبِّ إِنِّى دعوتُ قومِى لَيلاً وَنهاراً . فَلَمْ يَزِدهُم دُعائى إلاّ فِراراً . وإنّى كُلما دعوتُهم لتغفِرَ لَهم جعلُوا أصابِعَهُم فِى آذانِهِمْ واستغشَوْا ثِيابَهُم وأصرُّوا واستكبَرُوا استكبَاراً . ثم إنّى دعوتُهم جِهاراً . ثم إنّى أعلنتُ لهم وأسررتُ لَهم إسراراً . فقلتُ استغفِرُوا ربكم إنّه كانَ غَفّاراً . يُرسلِ السماءَ عليكُمْ مِدْراراً . ويُمْدِدْكُمْ بأموالٍ وبنينَ ويَجْعَلْ لَكم جنّاتٍ ويجعَلْ لكم أنْهاراً . مالَكُم لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقاراً . وَقَدْ خَلَقَكم أطْواراً ".(١)

الآيات تعبير صادق تحس فيه بصدق العاطفة وتدفق الشعور ، وتصور جدالا محتدما بين الدعوة إلى الحق ، والتمسك بالضلال والاعتقاد الهابط إلى الأرض .

هكذا يسوق القرآن الأدلة والبراهين الدامغة للباطل فى أسلوب من الطباق بين " ليلا ، ونهارا " وبين " أعلنت وأسررت " وبين " جهارا و أسرارا " وأسلوب من السجع المرصع بجانب الصور البيانية الأخرى . وتنتقل الآيات من تجربة إلى تجربة مصورة مراحل الدعوة المتعددة من ليل إلى النهار ومن سر إلى العلن ومن دعوة جهرية إلى سرية حسب مايتطلب الموقف ، وتثير فى كل ذلك انفعالات شعورية جامحة . وكلما كانت درجة الانفعال قوية فإن التعبير يجىء فى قصة

---

(١) سورة نوح : ٥ ــ ١٤ .

من الجودة والتأثير في النفس . وتتضمن الآيات ايقاعا موسيقيا يحمل لواء الدعوة الى الحق مدعما بالادلة العقلية الداعية الى الايمان "يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لاترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا" وعندما تتجاوب أصداء الموسيقى مع العقل تقوى درجة الانفعال وتتحرك النفس لتستجيب لنداء الدليل العقلى .

لنمضى بعد ذلك إلى قوله تعالى : "وُجوهٌ يَومئذٍ مُسفِرَةٌ . ضاحِكَةٌ مُستبشرةٌ . وُوجوهٌ يَومئذٍ عليها غَبرةٌ تَرهَقُها قَتَرةٌ . أولئكَ هُمُ الكفرةُ الفَجَرةُ ".(١)

بالآية مقابلة في قوله : "وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة" . قابلها بقوله "ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة" وهي مقابلة لطيفة بين السعداء والأشقياء تصور مشهدين أحدهما مشرق وضاء وثانيهما مظلم كئيب يقول الصابوني "وجوه يومئذ مسفرة" : أى وجوه في ذلك اليوم مضيئة مشرقة من البهجة والسرور . "ضاحكة مستبشرة" أى فرحة مسرورة بما رأته من كرامة الله ورضوانه ، مستبشرة بذلك النعيم . "ووجوه يومئذ عليها غبرة" أى ووجوه في ذلك اليوم عليها غبار ودخان . "ترهقها قترة" أى تغشاها وتعلوها ظلمة وسواد ".(٢)

---

(١) سورة عبس : ٣٨ ـ ٤٢ .

(٢) صفوة التفاسير للصابوني دار القرآن الكريم بيروت : ٢٠ / ٢١ .

في الآيات ترغيب وترهيب يجلي حقائقه ويظهرها شحنة من العواطف الملائمة لكل موقف • وفي أسلوب تنساب عباراته خالية من التكلف وفضول الكلام يضع العقل بين موقفين ليمايز بينهما • وهكذا يضع القرآن الحقائق أمام البصائر والعقول •

لقد حفل القرآن بمثل هذا الأسلوب الذى تعرضه فنون البديع حافلا بالمشاهد التي تخاطب الإنسان كله قلبا وعقلا في أدلة تقوده الى جانب الرشد والهداية •

الأصـالة :

الأصالة في الأسلوب هي طريقة التعبير التي تختص بصاحبه دون تقليد لغيره أو سلوك لمنهجه • وتظهر في دقة التعبير ودلالة اللفظ على المعنى ووقوعه في الموقع المناسب •

البديع أصل في القرآن يصادف موقعه فيه • ولا يمكن التصرف في أي فن من فنونه بتغيير أو تبديل • الكلمة إذا وقعت في موضعها الأصيل والتحمت بأخواتها في التركيب دبت فيها الحياة وسرت فيها الحركة ودلت على المعنى المراد ، وإذا قصرت أو حشرت في غير موضعها بان نبوها ونفورها • والعبارة الطريفة أساسها الابتكار في تصوير الأفكار في طبع صاف يورث الأسلوب دقة وحيوية ووضوحا وروعة

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٤٦ •

يقول تعالى : " انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ". (١)

بالآيــة طباق فى قوله " خفافا وثقالا " ومعنى قوله انفروا — كما يقول أبوعبيدة : أخرجوا واغــزوا .(٢) وجاء الطباق ليدعــــو للقتال فى جميع الظروف والأحوال . يقول الصابونى : "أخرجوا للقتال يامعشر المؤمنين شيبا وشبابا ،مشاة وركبانا ، فى جميع الظروف والأحوال فى اليسر والعسر ، والمنشط والمكره "(٣) .

التعبير فى الآية على أسلوب الطباق وهو تعبير أصيل فى ذاته ، يدل على المعنى المراد ، ويفيض بالحركة والحياة ، ولن تجد لفظـــــا أو معنى أدعى للقتال يهز الوجدان هزا عميقا مثل ماجاءت به الآيــــة الكريمة ويروى فى ذلك " عن حيان بن زيد قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو ، فرأيت شيخا كبيرا هرما ،قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت عليه فقلت : ياعم لقد أعذر الله إليك قال : فرفع حاجبيه فقال ياابن أخى : استنفرنا الله خفافا وثقالا ، ألا إنه مـــن يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده الله فيبقيه ،وإنما يبتلى الله من عبــاده من شكر وصبر وذكر ،ولم يعبد إلا الله عز وجل ".(٤)

---

(١) سورة التوبة من الآية ٤١ .

(٢) مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى نشر مكتبة الخانجى بمصر: ٢٦٠/١ .

(٣) صفوة التفاسير للصابونى دار القرآن الكريم ببيروت : ٢١/٥ .

(٤) نفســـه : ٢٤ .

ألا ترى مالأصالة هذا التعبير القرآني من أثر على هذا الشيخ الكبير؟ الألفاظ لها أبعادها ودلالتها وجاءت مناسبة للغرض الذي ترمي اليه . وبتلاؤم الألفاظ جاءت الصورة قوية واضحة في التعبير صادقة في الأداء .

الألفاظ والمعاني :

لقد أصبح واضحا وجليا أن أسلوب البديع ينال حظا وافرا من البلاغة على أن يأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديتـــه . ويختار له اللفظ الذي يكون أكثر ملاءمة من غيره . ولنا في القرآن أسوة وقدوة ، فالأداء محكم والمعاني تتميز بالعمق والملاءمة للألفـــاظ والغرض الذي ترمي إليـــه . فهي تغوص في أعماق النفس وتلامس أبعادها فتؤثر فيها تأثيرا قويا مما جعلها خالدة على مدى الدهر . وأما الألفاظ فلا تقسر لأداء معنى من المعاني مثل مارأيناه عند أصحاب البديع الذيـــن يجعلون كل همهم اللفظ، ويعنون بظاهر الكلام مثل السجع والتجنيـــس من غير مراعاة لما تخفي وراءها من معان . يقول الزمخشري : "لا يحسن تخير الألفاظ الموثقة في السمع السلسـة على اللسان إلا مع مجيئها منقادة للمعاني الصحيحة المنتظمة ، فأما أن تهمل المعاني ، ويهتم بتحســـين اللفظ وحده ، غير منظور فيه إلى مؤداه على بال ، فليس من البلاغـــة من فتيل أو نقير ".(1)

---

(1) الاتقان للسيوطي مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده الطبعـــة الثالثة : ٢/ ٧٢ .

القرآن يعرض المعنى الشريف فى المعرض اللائق به . ويختلف الأسلوب باختلاف الموضوع فقوله تعالى -على سبيل المثال- فى توبيخ إبراهيم عليه السلام قومه وتعنيفهم : "قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَالَا يَنفَعُكُم شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُم"(١) جاء على أسلوب من الطباق فى قوله : "ينفعكم ويضركم" . ولا يمكن أن يغير هذا الأسلوب أو يبدل بآخر لأنه يؤدى غرضا يحتاج الى عدة جمل لتقوم بأدائه بجانب أنه جاء ترجامانا صادقا عما يدور فى نفس قائله باستعمال الضد فى الكلام فإذا قال "لاينفع فإن ذلك وحده لايكفى لتوقع الضرر فلابد من الضد إذن . وللأسلوب أيضا أثر شديد على نفس سامعه . ولهذا فان معانى القرآن سامية ولم تفاجىء العرب وحدهم ،بل فاجأت الدنيا كلها ، وهى لا تزال تحتفظ بجدتها وستظل كذلك ولن يصيبها البلى على تقدم الأيام . يقول الدكتور محمد عبد الله دراز " فالجديد فى لغة القرآن أنه فى كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد ، وأمسها رحما بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ،وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها ،وهى أحق به بحيث لايجد المعنى فى لفظه إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ولا يجد اللفظ معناه إلا وطنه الأمين ، لا يوم أو بعض يوم ،بل على أن تذهب العصور وتجىء العصور ،فلا المكان يريد بساكنه بدلا ،ولا الساكن يبغى عن المنزل حولا ... وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو الأمثل الأعلى فى صناعة البيان ".(٢)

---

(١) سورة الانبياء : ٦٦ .

(٢) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز دار القلم الكويت الطبعة الثانية : ٩٢ .

الجزالة والوضوح :

أساليب البشر تتباين فيما بينها . وأسلوب الشاعر والكاتب تتجاذبه القوة والضعف فى الموضوع الواحد . ومن الشعراء والكتاب من يبلغ الذروة فى فن من الفنون أو غرض من الأغراض دون سواه . ولكن أسلوب البديع مع تعدد أغراضه وفنونه واختلاف أهدافه ومعانيه فانه قطعة رائعة من البيان الساحر . لا يتخلف عن غيره من أساليب البيان ، ولا يبعد عن ذلك فن من فنونه التى تجدها بينة الجزالة فى مفرداتها وديباجتها وواضحة الدلالة فى معانيها ومراميها .

البعد عن التكلف:

أسلوب البديع فى القرآن بعيد عن التكلف والتعمل الذى عهدناه فى مذهب الصنعة . وفى أسلوبه ~~البعيد~~ تجديد خال من كل زخرف . ونضرب لذلك مثلا بقوله : " إِنَّ لَكَ أَن لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ".(١)

يقول ابن القيم : " تأمل كيف قابل الجوع بالعرى ، والظمأ بالضحى . والواقف مع القالب ربما يخيل اليه : أن الجوع يقابل بالظمأ ، والعرى بالضحى . والداخل إلى بلد الفقه عن الله : يرى هذا الكلام فى أعلى الفصاحة والجلالة لأن الجوع ألم الباطن ، والعرى ألم الظاهر ، فهما متناسبان فى المعنى .

(١) سورة طـه : ١١٨ و ١١٩ .

وكذلك الظمأ مع الضحى ، لأن الظمأ موجب الباطن ، والضحى موجب لحرارة الظاهر فاقتضت الآيــة نفى جميع الآفات ظاهرا وباطنا ". (١)

هذا أسلوب من السجع جنح فيه القرآن إلى هذه الجدة فى المقابلة بين الألفاظ ومعانيها • وهو أسلوب أخاذ ارتضاه العرب وليس له نظير فى الاستعمال •

التصوير :

من أسرار الجمال فى البديع التصوير الفنى العجيب الذى يصور المشاهد من خلال كلماته وحروفه وأسلوبه ، ويقربها إلى العقل فى صور أدبية موحية يقول تعالى : "اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ".(٢)

الآية بها طباق عرضه القرآن فى مشهد رائع بديع يبرز المعقول فى صورة محسة تحرك الأحاسيس والمشاعر بما لها من تأثير قوى فى النفوس حيث بين أن الله يخرج المؤمنين من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية • وهذا الميدان ميدان فسيح يتنافس فيه الأدباء لاظهار مواهبهم ومقدراتهم ولكنهم مهما ارتفع شأنهم فى ميدان البيان فإنهم لن يبلغوا شأو القرآن لعلو منزلته وتغلغله فى الأعماق •

---

(١) التفسير القيم : لابن القيم ، لجنة احياء التراث العربى بيروت لبنان : ٢٥٦ و ٣٥٧ •

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٥٧ •

يقول تعالى " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ".(1) إنه أسلوب من الجناس يميط اللثام عن حالة نفسية تجيش فى أعماق المجرمين يوم القيامة ،وتجلى موقفهم بكل وضوح يغنى عن الكلام الطويل . ومن هنا قوة الصورة فى التعبير وصدقها فى الأداء .

إن التصوير فن جميل ومرآة ناصعة تنعكس عليها المشاهد نابضة بالحياة . وهو أدعى إلى فهم المراد والتأثر به . ويكسو المعانى أبهة. ويلبس المعنوى منها ثوب المحسوس ويضاعف قواها فى تحريك النفوس،والنفس تولع بالصور الجميلة غير المتكلفة والمقصودة لذاتها .

النغم الموسيقى الجـذاب :

إنه صفة أساسية من صفات الجودة فى القرآن الكريم . وبلغ حد الكمال المعجز فيه . وقد تحدث عنه الشهيد سيد قطب فى كتابـه التصوير الفنى فى القرآن حديثا رائعا .

والقارئ والمستمع للقرآن يحس بحلاوة رائعة عذبة تنساب فى الكلمة وفى الجملة كما تنساب فى الكلام المركب تركيبا بديعا .

الكلمـة : من حروف الكلمة تنطلق الموسيقى الداخلية فى القرآن ، تدل على قدرة فائقة على اختيار الكلمات ذوات الإيقاع الموسيقى . وقد رأينـا ذلك فى آيات كثيرة وجد فيها التعاطف بين المعنى واللفظ والانسجـام فى إيقاع الحروف مما يجعل للكلمة نغما معينا يخدم المعنى وخاصة فى السجع الذى غالى فيه الكهان وأبعدوه عن خدمة المعانى الشريفة

---

(1) سورة الروم : ٥٥ .

وهذا على خلاف ما فى القرآن الذى تنسجم فيه الحروف ولو ذهبت تبحث فيه عن كلمة تتنافر حروفها لما استطعت أن تجد شيئا . فإننا نجد كل كلمة من كلماته منسجمة الأصوات سهلة النطق لها وقع فى السمع متعانقة ألفاظها مع معانيها .

الجملة : من الكلمات تكون الموسيقى الداخلية للجملة . وهذه الموسيقى الجيدة تبدو فى آيات القرآن . إن الكلمة قد تكون مقبولة فى ذاتها ولكنها تجتمع مع غيرها قد تتنافر وتنبو عن الأذن وتستثقل فى النطق . وإن كلمات البديع فى القرآن عندما تضم الواحدة منها إلى أخواتها تحس بحلو جرسها وعذوبتها وحسن إيقاعها . والسبب فى ذلك يعود إلى الانسجام فى إيقاع الكلمات والتآلف بين مخارج حروف الكلمات . فأنت لا ترى ثقلا فى حروف ونشازا بين إيقاع وآخر .

الكلام : من الجمل تتكون موسيقى الكلام . وفى القرآن نغم جذاب فى الجمل المتعددة فمن يقرأ على سبيل المثال سورة النجم يجد لحنا جميلا ينبع من الموسيقى الداخلية للألفاظ والجمل ذات الإيقاع المؤثر فيحصل بذلك كله انسجام تام يروق السمع ويعجب النفس .

خاتمـــــــــة

هأنذا أختم بحمد الله وتوفيقه هذه الرسالة عن " البديع في القرآن " . وقد كان أساس مادفعني لهذا الموضوع ــ كما ذكرت في المقدمة ــ صلته بالقرآن الكريم والبلاغة العربية . وليس ذلك بمستغرب على القرآن الكريم . فهو منبع فياض يغترف منه الناهلون في شتى العلوم والمواضيع . ولأجل ذلك فإن الكتابة في هذا الموضوع وغيره من المواضيع المتصلة بالقرآن الكريم لايمكن استقصاء كل ماينبغي أن يقال فيها . إن فيض القرآن لاينضب ماؤه ولاينقطع مدده . ولابد لمن يلج بابا من أبواب القرآن من أن يصل إلى نتائج هامة في نهاية بحثه . وأنـــا بحمدالله وعونه قد خرجت ببعض النتائج التي لايمكن أن اعتبرها أنها كل مايمكن الوصول إليه .

إن دراستي لإعجاز القرآن مع التركيز على البديع جعلتني أكثر إيمانا بأن للبديع دورا في هذا الإعجاز ينبغي دراسته دراسة وافية لأن القرآن عندما تحدى العرب لم يقتصر في تحديه على فن من فنون البلاغة دون غيره . فقد جاء التحدي عاما . أعجز أرباب الفصاحة والبلاغة الذين عاصروا نزول القرآن . وإن ذلك التحدي باق على الزمن فإذا عجز العرب الأوائل الذين شهدوا نزول القرآن عن الوقوف أمام التحدي فغيرهم أعجز . ومايبغي أن نفعله نحن هو أن نظل نغترف من منهل الإعجاز القرآني الذي تقصر عنه أقلام الكتاب والشعراء وأن نستفيد من أسلوبه الإنشائي بعد الدراسة والبحث .

ولم يقف أمر إعجاز القرآن عند العرب الاوائل الذين عاصروا نزوله ، بل امتد أثره إلى من جاء بعدهم . فقد كان لهذا الإعجاز القرآنى أثر فى الدراسات البلاغية . لقد ألهب عقول العلماء وشحذ أفكارهم فى بحوثهم لمعرفة كنه الإعجاز وسره . وكان البديع يقود هذه الدراسات ويوجهها . فقد اشتدت دراسته بعد أن ألف عبد الله بن المعتز كتابه "البديع" الذى كان ثمرة صراع حول أولية البديع وأصله . لقد تصدى ابن المعتز لمن يغمط العرب الأوائل حقهم ونقض دعوى من ادعى لنفسه اختراع البديع . وأبان ابن المعتز أصالته فى القرآن الكريم واللغة العربية . ثم ازدهرت الدراسات بعد ذلك بسبب الصراع بين مذهب الغلاة فيه كأبى تمام ومذهب المقتصدين كالبحترى وغيره ممن يرفض التكلف وينادى بسلوك منهج الطبع .

وعند بسط القول فى فنون البديع فى القرآن توصلنا إلى أن هذه الفنون ترد فى القرآن من غير إسراف ولا قصور . تقع فى مواقعها الجديرة بها . والملائمة لها ، وتضرب بسهم وافر فى البلاغة . وهذه هى طريقة العرب فى كلامها وماسارت عليه من وقوع البديع فى كلامها من غير تفريط ولا إفراط ، وبهذا تتحطم الفكرة التى تقلل من شأن البديع . وإن أصالة البديع تظهر فى الميل إلى الطبع السليم وعدم التعقيد والبعد عن التكلف وعدم الإكثار منه عمدا . إن لكل شىء حدا إذا تجاوزه وقع فى الإفراط . وماوقع فى الإفراط فى شىء إلا شانه . ولهذا نرى ألا يقع الإفراط فى البديع وألا يكون الكلام خاليا مغسولا منه .

إذن، منهج القرآن في البديع هو المنهج الصحيح ، يعبر به القرآن عن أغراضه أصدق تعبير ويتصف أسلوبه بالإحكام والدقة. فإذا اقتضى المقام طباقا عبر به ، وإذا اقتضى سجعا أو جناسا جاء بهما ، وهكذا يأتي كل فن حيث تقتضي به الضرورة وتستدعيه طبيعة الموضوع .

إن الطباق والمقابلة كلا تزيدان الكلام جمالا وتساعدان على وضوح الفكرة وبيانها ، ومقابلة الأضداد تزيد في كل بيان وتؤدي المعاني أداء محكما ، إن الضد – كما تعلم – يظهر ضده ، ومن ذلك في أسلوب القرآن وأغراضه يقول تعالى : " الر كِتَابٌ أنزلناهُ إليكَ لتُخرِجَ النَّاسَ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ " .(١) أنت الآن أمام طباق في الآيتين بين " الظلمات والنور " وهما ضدان لبعضهما ، وبهذين الضدين أديت المعاني أداء واضحا ، حدد فيهما طريقان وهما طريق الظلمات وطريق النور ، ويقصد بهما طريق الكفر والضلالة وطريق الهداية والرشاد ، فالله يخرج المؤمنين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وجاء لفظ " الظلمات " جمعا لأن طرق الضلالة متعددة ومتشعبة ، ولم يجمع النور لأن طريق الحق واحد لايتغير ، ولأجل ذلك كله جاء التعبير بأسلوب الطباق لا بغيره لما كان الموقف يتطلبه ويستدعيه .

والالتفات يختص بنكت ولطائف تجدد نشاط السامع وتطرد عنه السأم والملل وتحثه على الاستماع ، ويلفت أسلوب الالتفات إلى أسرار وحكم

---

(١) سورة ابراهيم : ١

تلقى فى النفوس الروعة والمهابة . ولذا فإن القرآن يجئ به فى موضعه المناسب يقول تعالى : " فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ".(١) الالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب جاء فى موقعه المناسب ليحقق هدفا هاما وهو التوبيخ والعتاب . إن الله سبحانه وتعالى يخاطب الإنسان قائلا : "فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بعد وضوح الدلائل والبراهين التى تقدمت مثل خلق الإنسان من نطفة وغير ذلك من الدلائل . وهذا الأسلوب الذى يحق أن يخاطب به الإنسان فى هذا الموضع .

أما الجناس فله ألفاظ عذبة وعبارات سلسة رشيقة تتميز بأصالتها واصابة الغرض فى تراكيب محكمة بعيدة عن التكلف وفضول القول . يقول تعالى : " فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ".(٢) ورد فى الآيتين جناس الاشتقاق فى "يعذب ، عذابه " ويوثق وثاقه " محدثا نغما موسيقيا ومعنى قويا واضحا . إن قوة المعانى تكمن فى كون عذاب الله للمجرمين لا مثيل له ، فليس هناك أحد أشد عذابا من تعذيب الله للعصاة . وتكمن قوة المعنى أيضا فى أنه لايقيد أحد بالسلاسل والأغلال مثل تقييد الله للكافر الفاجر . وبهذا التعبير بأسلوب الجناس نمط تطلبه الموقف ولا يوجد تعبير أكثر دلالة منه .

والسجع فن له وقع فى النفس ، يجذب السامع إليه ويرغب الحديث إليه . وقد جمع القرآن محاسن الشعر والنثر . فإذا كان الشعر يلتزم القافية

---

(١) سورة التين : ٧ و ٨ .

(٢) " الفجر : ٢٥ و ٢٦ .

فإن القرآن الكريم يلتزم الفاصلة . وما جاء من فواصله مسجوعا فإنه يصيب المعز بأقصر طريق وأخصره . ويتغير السجع فيه حسب تغير الموضوع يقول تعالى : "سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأعلَى . الذِي خَلَقَ فَسَوَّى والذِي قَدَّرَ فَهَدَى والذِي أَخْرَجَ المَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ".[1] جاء السجع هنا لآلىء ينتظمها عقد واحد فى نغم موسيقى معجب ليؤدى معانى تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى : "إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإِنسَانُ مَالَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا .. الخ السورة "[2] السجع هنا فى سورة كاملة مصورا أهوال يوم القيامة فى جمل قصيرة عذبة النغم وشيقة العبارات . وإن وجود مثل هذا السجع فى القرآن لايعد مذمة بل هو محمدة لأنه جاء على نمط يختلف عما ألف من سجع الكهان ، وبهذا يكون القرآن قد جاء بالسجع نقيا صافيا نفى عنه ما لحق به من الصفات الذميمة التى نجدها فى سجع الكهان . ففى سجع القرآن معانى نبيلة تطهر العقيدة الإسلامية من أدران الشرك وتدافع عنها بالأدلة القوية والبراهين الواضحة . وبهذا كله نصل إلى أن السجع وغيره من فنون البديع لم ترد فى القرآن لاجل التكلف أو الرغبة فى تزيين الكلام بها دون اهتمام بالمعنى .

إن فنون البديع فى القرآن — كما رأينا — تختلف عما عمد إليه الأدباء أصحاب الغلو الذين يميلون إلى الصنعة البديعية . إنها فى القرآن صلة اتصالا وثيقا بالحياة ، تعرضها وتعالج مشاكلها على ضوء عقيدته ومبادئه السامية . وعلى الرغم من تنوع هذه الفنون فإنها

---

(١) سورة الأعلى : ١ — ٥ .

(٢) " الزلزلة : ١ — ٨ .

قد بلغت الكمال المعجز دون أن يعتريها ضعف بمرور الزمن أو يطرأ عليها مايطرأ على مذهب أصحاب الغلو من التنافر وعدم التلاؤم ، ولهذا فإن لها فى القرآن أهمية قصوى فى الدلالة على إعجاز القرآن وبيان أسراره. ولها خصائص ومميزات ظهرت لنا فى علاقة المعانى بالألفاظ فلا تجد لفظا نابيا لايؤدى المعنى المراد ، بل تجده يلتحم مع المعنى فى تركيب متسق لايمكن إبداله بغيره . المعانى واضحة فى القرآن والألفاظ جزلة والارتباط بينهما قائم . وظهرت الخصائص والمميزات أيضا فى أصالة البديع وبعده عن التكلف والغلو وعدم الإكثار منه لغير فائدة .

وفى الختام أقول إن البديع فن من فنون البلاغة وأحد الينابيع التى يتدفق منها إعجاز القرآن مثل غيره من فنون البلاغة الأخرى . والله أسأل أن يتقبل منا جميعا وأن يوفقنا إلى خدمة الإسلام والمسلمين والحمد لله رب العالمين .

الفهارس

الآيـــات القرآنيـــة

مرتبـة حسب ترتيب السور فى المصحف ، بدأنا برقم الآية ثم ثنينا بالصفحة:

<u>٦ـ الانعام:</u>

٩٥/٢٦ ، ٨٤/٦٠ ، ٢١٨/٩٩ـ٩٧ ■ ١٧١/٩٩ ، ٢١/١٠١

٥٣/١٢٢ ■ ١٣٠/١٦٠ •

<u>٧ـ الأعراف:</u>

٥٤/٣ ■ ١٧٠/١٤٥ ■ ٦٣/١٥٧ ، ١٧١/٩٩ ، ١٢٢ـ١٢٠ /٢٢٣•

<u>٨ـ الأنفال :</u>

١٣٧/٢ ■ ١٥٥/٣٠ ■ ٢٠٠/٧٩ ■

<u>٩ـ التوبة:</u>

٢٦٧/٤١ ■ ٦٠/٨٢ و١٤٨ ، ١١٤/١٢٧ و١٥٧ •

<u>١٠ـ يونس:</u>

١٨٢/٣ ، ١٥٦/٢١ ، ٧٠/٢٢ و١٧٣ ، ٥٤/٥٦ •

<u>١١ـ هود :</u>

١٦/١ ، ٥/١٣ ، ٢٤٥/١٨ ■ ٦٣/٢٤ و ١٤٨ ■

<u>١٢ـ يوسف:</u>

٢٠٥/١٧ ، ١٣١/٥٣ ■

<u>١٣ـ الرعد :</u>

١٨٣/٢ ، ١٥٥/٤٢ ■

<u>١٤ـ ابراهيم:</u>

٢٧٦/١ ، ١ـ٢ /٢٣٠ ■

١٥ـ النحل :

١٥٤/١٢٦ ■

١٦ـ الاسراء :

٧٩/١٢ ■ ٢٤٨/٣١ ، ٩٢/١٧٦ ■ ٥/٨٨ و١٥ ، ٦/١٠٩ •

١٧ـ الكهف :

١٨/٥٢و٥٣ ■ ٢٨/٧٩ ، ٩٧/١٠٤ ■

١٨ـ مريم :

٨٨ـ ٨٩/١٦٧ ■

١٩ـ طه :

٤ـ٦/٢٢٩ ، ٥/٥٨ و٨٤ ، ٦١/٢٤٨ ، ٦٥/٢١٩ ، ٦٧/٢٢٠
٦٨/٢٢٠ ، ٧٠/٢٢١ ■ ٩٤ / ٩٨ ، ١١٨ـ١١٩/٢٧٠ ■

٢٠ـ الأنبياء :

٢٢/٢٢٧ ، ٦٦/٢٦٩ ■ ٨٧/٢٤٣ ■

٢١ـ الحج :

٧٨/١٣٩ •

٢٢ـ النور :

١١/١٦٢ ، ٣٧/١١٤ ■

٢٣ـ الشعراء :

١٦٨/١٠٠و١١٢ ، ٤٦ـ ٤٨/٢٢٣ ■

٢٤ـ النمل :

٤٤/٩٠ ، ٥٠/١٥٦ ، ٥١ـ٥٣/١٥٦ ■

٢ـ الأعلام والقبائل

(أ)

(ج)

(ح)

(خ)

(ز)

(س)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ى)

الشعر

<u>الألف اللينة</u>

٤ـ الأماكـــن

المصــــادر والمــــراجـــع

١ـ القرآن الكريـــم

٢ـ الآمـدى أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى (٣٧٠ هـ) ٠
الموازنة دار المعارف بمصر الطبعة الثانيــة
١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م تحقيق السيد أحمد صقر ٠

٣ـ ابن أبى الأصبع المصرى (٥٨٥ ـ ٦٥٤ هـ) بديع القرآن طبع ونشـر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة ٠

٤ـ ابن الأثير : نجم الدين أحمد بن اسماعيل ابن الأثير الحلبى
المتوفى ٧٣٧ هـ ٠
جوهر الكنز نشر منشأة المعارف بالاسكندريـــة
تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ٠

٥ـ ابن حجر : الحافظ شهاب الدين أبى الفضل العسقلانـــى
المعروف بابن حجر ٠
فتح البارى فى شرح البخارى جـ ١٢ مطبعـــة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصـــر ٠

٦ـ ابن رشـد : أبو الوليد بن رشـد ٠
تلخيص الخطابـة نشر لجنة احياء التراث العربى ـ
تحقيق وشرح الدكتور محمد سليم سالم ٠

٧ـ ابن رشـيق : أبو الحسن على بن رشيق القيروانى ٠
العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، مطبعـــة
السعادة بمصر الطبعة الثالثة تحقيق محمد محى
الدين عبد الحميد ، مطبعة أمين هندية الطبعة
الأولى ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٥٢م ٠

٨ـ ابن عبد ربه الاندلسى : العقد الفريـــد الجزء الثانى دار الكتاب
العربى بيروت لبنان ٠

١٠ـ ابن القيم : شمس الدين محمد بن أبى بكر المعروف بابن القيم الجوزيه .
التبيان فى أقسام القرآن دار الكتاب العربى ـ تحقيق طه يوسف شاهين .

١١ـ ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبى بكر المعروف بابن القيم الجوزيه .
التفسير القيم لجنة احياء التراث العربى بيروت لبنان .

١٢ـ ابن كثير : الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى .
تفسير القرآن العظيم ـ دار احياء التراث العربى بيروت ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م .

١٣ـ ابن كثير : الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى .
السيرة النبوية دار الفكر لبيروت الطبعة الثانية .

١٤ـ ابن مالك : بدر الدين بن مالك الاندلسى الطائى المتوفى سنة ٦٨٦
المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع المطبعة الخيرية الطبعة الأولى .

١٥ـ ابن المعتز : عبد الله بن المعتز .
البديع . نشره وعلق عليه اغناطيوس كراتشقوفسكى .

١٦ـ ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور .
لسان العرب بيروت اعداد وتصنيف يوسف خياط .

١٧ـ ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام .
السيرة النبوية ـ دار الجيل بيروت .
١٨ـ ابن وهب : أبو الحسين اسحق بن ابراهيم سليمان بن وهب الكاتب .
البرهان فى وجوه البيان ـ مكتبة الشباب ـ
تقديم وتحقيق الدكتور حفنى محمد شرف .
١٩ـ ابن يعقوب المغربى : مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص)
عيسى البابى الحلبى وأولاده بمصر .
٢٠ـ أبو السعود : قاضى القضاة أبوالسعود محمد العمادى الحنفى (٩٠٠ ـ ٩٨٢ هـ).
تفسير أبى السعود (ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم).
٢١ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠هـ) مجاز القرآن نشر مكتبة الخانجى بمصر .
٢٢ـ أبو هلال العسكرى: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى
كتاب الصناعتين ـ عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ
تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبوالفضل ابراهيم .
٢٣ـ أحمد ابراهيم موسى : الصبغ البديعى فى اللغة العربية نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م .
٢٤ـ أحمد أمين : النقد الأدبى مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة .
٢٥ـ أحمد رضا : معجم متن اللغة ـ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .
٢٦ـ أحمد زكى صفوت : جمهرة خطب العرب الجزء الأول .
مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

٢٧ـ أحمد الشايب : الأسلوب مكتبة النهضة المصرية .
الطبعة السابعة ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧١م .
٢٨ـ أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة دار احياء التراث العربي بيروت لبنان .
٢٩ـ أحمد مطلوب: فنون بلاغية دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع الكويت الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .
٣٠ـ أحمد مظهر العظمة تفسير جزء تبارك المكتب الاسلامي بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
٣١ـ الأخضري : عبد الرحمن الأخضري .
حلية اللب المصون على الجوهر المكنون نسخة مكتوبة باليد بمكتبة الرياض تحت الرقم العام ٨٢٥٥٦.
٣٢ـ أسامة بن منقذ : البديع في نقد الشعر ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي . تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي والدكتور حامد عبد المجيد .
٣٣ـ اسماعيل حقي البروسي : تفسير روح البيان نشر المكتبة الاسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ .
٣٤ـ الألوسي : شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي .
روح المعاني احياء التراث العربي بيروت لبنان .
٣٥ ـ الباقلاني : القاضي أبو بكر الباقلاني .
اعجاز القرآن (١) بهامش الاتقان مطبعة مصطفى البابي الحلبي . (٢) دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة تحقيق السيد أحمد صقر .

٣٦ـ بدوى طبانة : البيان العربى دار العودة ، دار الثقافة بيروت ـ الطبعة الخامسة .

٣٧ـ بدوى طبانة : قدامة بن جعفر والنقد الأدبى مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الثالثة .

٣٨ـ البغوى : أبو الحسين الفراء البغوى ـ تفسير البغوى (بهامش الخازن) دار الفكر بيروت لبنان .

٣٩ـ البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوى موسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت لبنان .

٤٠ـ التفتازانى : سعد الدين التفتازانى المتوفى سنة ٧٩١هـ .
مختصر التفتازانى على تلخيص المفتاح الجزء الرابع (ضمن شروح التلخيص) عيسى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

٤١ـ الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥١ ـ ٢٥٥) .
البيان والتبيين تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م .

٤٢ـ الجاحظ : أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (١٥١ ـ ٢٥٥هـ) .
الحيوان الجزء الثانى نشر الكتاب العربى بيروت . الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م .

٤٣ـ الجرجانى : عبد القاهر الجرجانى .
دلائل الاعجاز دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م .

٤٤ـ الجرجانى : عبد القاهر الجرجانى
أسرار البلاغة نشر مكتبة القاهرة ـ تعليق محمد عبد المنعم خفاجى .

٤٥ـ الجرجاني : عبد القاهر الجرجاني
الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) دار المعارف بمصر الطبعة الثانية .

٤٦ـ الجرجاني : علي بن عبد العزيز الجرجاني
الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ عيسى البابي الحلبي وأولاده بمصر .
الطبعة الرابعة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي .

٤٧ـ الجمل : الشيخ سليمان الجمل ـ حاشية الجمل على الجلالين نشر المكتبة الاسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ فن الجداس مطبعة الاعتماد بمصر نشر دار الفكر العربي .

٤٩ـ الجوهري : اسماعيل بن حماد الجوهري .
الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية دار العلم للملايين بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م تحقيق أحمد عبد الغفور عطار .

٥٠ـ حسن ضياء الدين عتر : بينات المعجزة الخالدة دار النصر سوريا الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

٥١ـ الخازن : علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي .
تفسير الخازن ـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .

٥٢ـ الخطابي : أبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (٣١٩ ـ ٣٨٨هـ) .
بيان اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) دار المعارف بمصر الطبعة الثانية .

٥٣ــ الخفاجي : أبو عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ .
سر الفصاحة مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ١٣٧٢هـ ــ ١٩٥٣م تعليق عبد المتعال الصعيدي .

٥٤ــ خفاجي : محمد عبد المنعم خفاجي .
البحوث الأدبية ومناهجها ومصادرها دار الكتاب اللبناني بيروت .

٥٥ــ خفاجي : محمد عبد المنعم خفاجي .
ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ــ مكتبة الحسين التجارية الطبعة الأولى .

٥٦ــ الدسوقي : حاشية الدسوقي على شرح السعد (ضمن شروح التلخيص) الجزء الرابع . عيسى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

٥٧ــ الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي المتوفى سنة ٦٦٦ .
مختار الصحاح دار الكتاب العربي بيروت .

٥٨ــ الرازي : أبو عبدالله محمد بن حسين القرشي الملقب بالفخر الرازي .
التفسير الكبير المطبعة البهية المصرية الطبعة الأولى .

٥٩ــ الرماني : أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٢٩٦هـ ــ ٣٨٦هـ).
النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) دار المعارف بمصر الطبعة الثانية .

٦٠ــ الزبيدي : محمد مرتضى الزبيدي .
تاج العروس من جواهر القاموس المجلد الخامس منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .

٦١ــ الزرقاني : محمد عبد العظيم الزرقاني .
مناهل العرفان في علوم القرآن مطبعة عيسى البابي

الحلبى وأولاده بمصر .
٦٢ـ الزركشى : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى .
البرهان فى علوم القرآن ـ عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر الطبعة الثانية تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .
٦٣ـ زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع . دار الجيل بيروت .
٦٤ـ الزمخشرى : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى .
الكشاف طباعة باكستانية ـ طهران .
٦٥ـ الزمخشرى : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى .
أساس البلاغة دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م .
٦٦ـ السبكى : بهاء الدين السبكى .
عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) عيسى البابى الحلبى وأولاده بمصر .
٦٧ـ السكاكى : أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكى المتوفى ٦٢٦ هـ .
مفتاح العلوم مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م .
٦٨ـ سيد قطب : فى ظلال القرآن . دار الشروق الطبعة الشرعية الخامسة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .
٦٩ـ السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن السيوطى .
الاتقان فى علوم القرآن مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده الطبعة الثالثة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م .
٧٠ـ السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن السيوطى .
معترك الأقران فى اعجاز القرآن تحقيق على محمد البجاوى دار الفكر العربى .

٧١ـ الشريف الحسين الجرجاني : حاشيته "على الكشاف" طباعة باكستانية ـ طهران .

٧٢ـ شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ دار المعارف الطبعة الرابعة .

٧٣ـ الشوكاني : محمد بن علي بن محمد الشوكاني .
فتح القدير دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .

٧٤ـ الصابوني : محمد علي الصابوني .
صفوة التفاسير المجلد الأول ـ دار القرآن الكريم بيروت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

٧٥ـ الصابوني : محمد علي الصابوني .
ايجاز البيان في سور القرآن مكتبة الغزالي الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

٧٦ـ الصابوني : محمد علي الصابوني .
تفسير جزء والذاريات مكتبة الغزالي بدمشق ومؤسسة مناهل العرفان بيروت .

٧٧ـ الصابوني : محمد علي الصابوني .
صفوة التفاسير (في عشرين جزءا) دار القرآن الكريم بيروت .

٧٨ـ صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن . دار العلم للملايين .

٧٩ـ الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .
جامع البيان عن تأويل القرآن . مصطفى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م .

٨٠ـ عبد الجبار : القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المتوفى سنة ٤١٥هـ .
متشابه القرآن دار التراث القاهرة .

٨١ــ عبد الجبار : القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المتوفى سنة ٤١٥هـ ،
تنزيه القرآن عن المطاعن طبع المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٩هـ •

٨٢ــ عبد الحكيم بلبع : النثر الفني وأثر الجاحظ فيه نشر مكتبة وهبة •

٨٣ــ عبد الفتاح لاشين : البديع في ضوء أساليب القرآن دار المعارف الطبعة الأولى ١٩٧٩م •

٨٤ــ فتحي عبد القادر فريد : فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب منشورات دار اللواء للنشر والتوزيع الرياض •

٨٥ــ الفراء : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ • معاني القرآن طباعة عالم الكتب بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٠م •

٨٦ــ الفيروزابادي : الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي القاموس المحيط دار الفكر بيروت •

٨٧ــ قدامة بن جعفر : نقد الشعر دار الكتب العلمية بيروت لبنان تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي •

٨٨ــ القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي الجامع لأحكام القرآن مصطفى البابي الحلبي وشركاه • الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م •

٨٩ــ القزويني : جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب (٦٦٦ ــ ٧٣٩) •
التلخيص في علوم البلاغة ــ نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان شرح عبد الرحمن البرقوقي •

٩٠ـ القزوينى : جلال الدين محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى
الايضاح (ضمن شروح التلخيص) الجزء الرابع
(١) عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر .
(٢) مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة .

٩١ـ مجمع اللغة العربية بمصر : معجم ألفاظ القرآن الكريم . دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

٩٢ـ محجوب الحسن محمد : النقد البيانى عند العرب رسالة الماجستير من جامعة الخرطوم ١٩٧٩ م .

٩٣ـ محمد ثابت الفندى وآخرون :دائرة المعارف الاسلاميه المجلد الحادى عشر "منقول الى العربيــة ".

٩٤ـ محمد جمال الدين القاسمى: تفسير القاسمى مصطفى البابى الحلبى وأولاده .

٩٥ـ محمد الخضرى : مهذب الأغانى الطبعة الثالثة، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

٩٦ـ محمد الحسناوى: الفاصلة فى القرآن مطبعة دار الأصيل حلب .

٩٧ـ محمد رشيد رضا : تفسير المنار دار المنار بمصر ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م الطبعة الرابعة .

٩٨ـ محمد زكى صالح :الترتيب والبيان عن تفصيل آى القرآن .
مصطفى البابى الحلبى الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

٩٩ـ محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم دار القلم الكويت الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

١٠٠ـ محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم دار القلم الكويت .

١٠١ـ محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن دار احياء التراث العربى بيروت لبنان .

١٠٢ـ محمد نسيب الرفاعي : تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير
الطبعة الثانية بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
١٠٣ـ المراغي : أحمد مصطفى المراغي
تفسير المراغي مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
الطبعة الرابعة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .
١٠٤ـ المرتضى : أمالي المرتضى طباعة دار الكتاب العربي بيروت
لبنان .
١٠٥ـ مصطفى صادق الرافعي : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية نشر دار الكتاب
العربي بيروت لبنان .
١٠٦ـ ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري المالكي .
الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال
(بحاشية الكشاف).
١٠٧ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
معجم ألفاظ القرآن الكريم الطبعة الثانية .

الفهرست العام